

ألكساندر دوما

«بياض الثلج» وحكايات أخرى

ترجمها عن الفرنسية

محمد بنعبود

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

ألكساندر دوما



«بياض الثلج»
وحكايات أخرى

ترجمها عن الفرنسية

محمّد بنعبود

مراجعة

كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PQ2224.A7 .B45 2013
Dumas, Alexandre, 1802-1870
[*Blanche de Neige* et autres contes]
بياض الثلج وحكايات أخرى: رواية / ألكساندر دوما ؛ ترجمة محمد بنعبود ؛ مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
264 ص. ؛ 13×20 سم.
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
ترجمة كتاب : *Blanche de Neige* et autres contes
تدمك: 978-9948-17-184-3
أ-بنعبود، محمد. ب-جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لنصوص الكاتب الفرنسيّ ألكساندر دوما

«بياض الثّلج» وحكايات أخرى

Alexandre Dumas

Blanche de Neige et autres contes

لوحة الغلاف للرسّام الألمانيّ كارل أوفتردنغر (1829-1889) Carl Offterdinger



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

«بياض الثلج»

وحكايات أخرى

المحتوى

هذه السّلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَنوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات، بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

هذا الكتاب

بدون أيّة رغبة في الكشف عن أسرار هذه الحكايات وإفساد متعة قراءتها، نشير في ما يأتي بكلمات شديدة الإيجاز إلى خطوطها الأساسيّة، ما يمكن اعتباره مغزى كلّ حكايةٍ أو عبْرتها. وذلك لا سيّما وأنّ ألكساندر دوما قلّما يختتم حكاياته بعبْرةٍ من لدُنه، مثلما دأب عليه روّاد حكايات الناشئة، شارل بيرّو أو ماري-كاترين دونوا على سبيل المثال.

تتحدّث حكاية «جنديّ من رصاص وراقصة من ورق» عن علبةِ لُعَبٍ تضمّ جنوداً من رصاص، بينهم جنديّ أعرج يقع في حبّ لعبة أخرى هي عبارة عن راقصة ورقيّة، فتدور أحداث تنتهي نهاية تراجيدية يخفّف من حدّتها ذوبان الجنديّ الرّصاصيّ العاشق في النّهاية على هيئة... قلبٍ صغير يرمز إلى دوام المودّة في ما وراء الحَدَثان والشّخوص.

وتعْرض حكاية «جان النّحيل وجان السّمين» فكرةَ أنّ القوّة العضليّة، التي يمثّلها جان السّمين، عندما تُوَظَّف في الشّرّ، فإنّ قوّة الحيلة والذّكاء التي يمثّلها جان النّحيل، يمكنها أن تقف لها بالمرصاد، لا بل أن تكون المنتصرة في النّهاية.

وتروي «بياض الثلج» حكاية فتاة فائقة الجمال، تصبح محطّ اعتداء مستمرّ من طرف ملكة لا تقبل أن توجد في الدّنيا امرأة أجمل منها، لكنّ غيرة الملكة المُفرطة لن تؤدّي بها إلاّ إلى الهلاك.

أمّا حكاية «ملك الخِلدان وابنته»، فتنبني على صراع بين السِّحر،

بوصفه شرّاً، وبين الحبّ الأموميّ والطّيبة والبراءة بوصفها «علاجاً طبيعيّاً» يستطيع في النهاية أن ينتصر على السِّحر وأن يعيد إلى ملكٍ وأتباعِه هيئتهم البشريّة، بعد أن أمضوا عشرات السّنين ممسوخين ومعتقلين في جوف الأرض.

وتقوم ساحرة عجوز، في حكاية «تيني المغرورة»، بمنح تيني، الطفلة الصّغيرة، جناحين كي تسافر بهما عبر الأصقاع لتعرف عن قرب، ومن خلال سلوكات ملموسة لحيوانات معروفة، مدى قبْحِ أن يكون الكائن معجباً بنفسه ومزهوّاً بها ومتكبّراً على غيره.

وتُمثّل حكاية «شباب بيبرو» ذروة ثانية لهذه المجموعة، إلى جانب «عصيدة الكونتيسة بيرت»، سواء من حيث طولها أو من حيث تعدّد أحداثها وتنوّعها. لكنّها تبقى منتمية، في النّهاية، إلى الاختيار نفسه (الصّراع بين الشّر والخير): ملك متقدّم في السنّ محاط بمقرّبين خيّرين وبآخرين شرّيرين، فتدور بين الطّرفين أحداثٌ كثيرة ومناورات متعدّدة، يسردها دوما في مزيج من الخيال والدّعابة والسّخرية، وتنتهي بانتصار الخيِّرين.

وتسْرد حكاية «الأنانيّ» خسارة كارْل، وهو مزارع شابّ بخيل يستولي عليه جنّيّ خبيث يقوده في مغامرات عاثرة يعود منها منهاراً وعليلاً، فيهبّ لنجدته الآخرون، بمَن فيهم صهره فيلهَيلْم الذي كان ضحيّة طمع كارْل وأنانيّته. فيدرك هذا الأخير أنّ روح الإحسان وطيبة النّفس هما الثروة الحقيقيّة في الحياة.

وأخيراً، في حكاية «نيكولا الفيلسوف»، يتلقّى شابّ من مُشَغِّلِه

سبيكة ذهبيّة لقاءَ سبع سنوات من العمل عنده، ثمّ يتنازل عنها لأحدهم مقابل حصان، ثمّ يتنازل عن الحصان مقابل بقرة، وعن البقرة مقابل كبش، وهكذا دواليك حتّى يعود في نهاية المطاف إلى قريته وإلى أمّه صفرْ اليدَين، مسروراً لتخفّفه من عبء المادّة وثقَلِ الأشياء. حكاية فرِحة لا نعرف هل ينبغي أن نأسى فيها لسذاجة الشابّ أم نغبطه للبساطة التي بها يتقبّل تحرّره من إرادة التملّك[1].

المترجم

محمّد بنعبود

(1) الحواشي التي ترافق النّصوص التّالية هي من إعداد المحرّر، إلاّ إذا وردت إشارة مُخالِفة.

جنديّ من رصاص
وراقصة من ورق[1]

أُعْلِمُكم، يا قرّائي الصّغار الأعزّاء، بأنّني قد قمتُ سنة 1838، أيْ قبل أن تروا أنتم النّور بمدّة طويلة، برحلة إلى ألمانيا.

وهناك توقّفتُ لمدّة شهر كامل بمدينة فرانكفورت كي أنتظر صديقاً لي، يعرف الكثير من الحكايات الجميلة. صديقي هذا كان يسمّى جيرار دو نرفال[2].

وذات يومٍ ستعرفون، يا قرّائي الصّغار الأعزّاء، كيف عاش صديقي هذا وكيف مات. إنّ حياته لَهِي أكثر من قصّة وأحسن من حكاية؛ هي بالأحرى أسطورة.

كنت، في رحلتي تلك، قد استضافتني عائلة، ربُّ أسرتها فرنسيّ وزوجته فلامنديّة، أمّا أبناؤهما فكانوا خليطاً منهما معاً.

(1) مستوحاة من حكاية للكاتب الدّانماركيّ هانْس كريستيان أندرِسن Hans Christian Andersen (1805–1875)، وهو ما يكشف عنه دوما نفسه في نهاية الحكاية.

(2) جيرار دو نرفال Gérard de Nerval (1808–1855) شاعر وناثر ورحّالة فرنسيّ، من أهمّ الشّعراء الرّومنطيقيّين الفرنسيّين، له كتاب مشهور بعنوان رحلات إلى الشّرق *Voyages en Orient*، يُدخله دوما في حكايته هذه والحكاية التّالية لها على سبيل التّكريم.

كان بالبيت طفلان صغيران، وصبيّة.

كان عمر الطفل الأوّل سبع سنوات، بينما كان الثّاني في الخامسة من عمره.

أمّا الطّفلة الصّغيرة، فكان عمرها أربعة عشر شهراً.

أصبح الطّفل الأوّل اليومَ عسكريّاً برتبة ملازم، بينما أصبح الثّاني رقيباً يعمل في أفريقيا.

أمّا الطّفلة الصّغيرة فقد أضحت فتاة جميلة وممشوقة القدّ يبلغ عمرها عشرين سنة ونصف.

كنت على حقّ إذن، عندما أخبرتكم بأنّ رحلتي قد حدثت قبل أن تولدوا أنتم بزمن طويل.

كان الطّفلان الذّكَران، وبدعوى أنّهما يريانني أكتب خلال شطرٍ من النّهارِ، بانتظام، قد طلبا منّي أن أحكي لهما حكاية.

أمّا الطّفلة الصّغيرة فإنّها لم تكن تطالب، حينئذٍ، سوى برضّاعتها التي تأخذ بملامستها - وعليّ أن أشير إلى ذلك - بحنان خاصّ. لكنّها شرعتْ بعد ذلك تطلب منّي، هي الأخرى، في بعض الأحيان، أن أحكي لها حكاية. وسرعان ما استنفدتُ ذخيرتي من الحكايات، لأنّكم تعلمون جميعاً بلا شكٍّ نَهَمَ مَن هُم في مثل سنّكم إلى الحكايات.

عندما كنت أنتهي من رواية حكاية لهم، كانت طريقتهم في التّصفيق لي هي أن يقولوا: «حكاية أخرى!» و طريقتهم في شكري كانت هي أن يقولوا: «احكِ لنا حكاية أخرى!»

وبسببٍ من ذلك كنتُ، عندما تنفد حكاياتي، أشرع في اختراعها.

وأنا الآن مغتاظٌ من أنّني لا أتذكّر تلك التي ابتدعتُها؛ فقد كان من بينها، بالتّأكيد، حكاية أو حكايتان جميلتان.

وعندما لم يعدْ خيالي يسعفني، اضطررتُ لأن أقول لهم:

- -أنا يا أصدقائي أنتظر، من يوم لآخر، وصول صديقي جيرار دو نرفال. هو يعرف الكثير من الحكايات الرّائعة، وسيحكي لكم منها بقدْر ما تشاؤون.

ليس ذلك بالتّحديد ما كان يطالب به الأطفال؛ لم يكونوا يريدون أن ينتظروا. لكنّ رسالة قد وصلت صباحاً تخبر بأنّ وصول جيرار سيكون بعد يومين من ذلك. بفضلِها، وبفضل قطعة خبز مدهونة بالزّبدة وبمربّى التّوت، وهي أكلة ألمانيّة الأصل، استطاع الأطفال أن يتحلّوا ببعض الصّبر.

وبالفعل، فقد وصل جيرار في الموعد المحدّد. كانت الأجواء في البيت تشبه أجواء حفل. والأطفال الذين رأوه قادماً من بعيد، وبعد أن قلت لهم أنا: ها هو ذا **رجل الحكايات** قادم، جَرَوْا في اتجاهه وتعلّقوا به وهم يصيحون:

- مرحباً بك يا سيّدي، يا **رجل الحكايات**؛ هل تعرف الكثير من الحكايات؟ هل ستبقى بيننا لمدّة طويلة؟ هل سيكون بإمكانك أن تحكي لنا حكاية كلّ يوم؟

فسّرنا لجيرار بما يتعلّق الأمر، ففهمَ من تلك اللّحظة أنّ استقبال الأطفال وطريقتهم في التعلّق به كانا طبيعيَّين تماماً، فوعدهم بأن يحكي لهم حكاية، خلال اليوم نفسه، بعد تناول وجبة العشاء.

قضى الأطفال يومهم في النّظر إلى عقارب السّاعة وفي القول إنّهم جوْعَى ويريدون تناول عشائهم.

في الأخير تمّ الإعلان عن أنّ «الأكل جاهز يا سيّدي».

في ألمانيا، يُقالُ يا أطفالي: «الأكل جاهز يا سيّدي»، أمّا في فرنسا فيقولون: «الأكل جاهز يا سيّدتي».

سيفسّر لكم آباؤكم، لاحقاً، الفرق بين هاتين الطّريقتين المختلفتين في دعوة ربّة البيت وربّ البيت إلى الانتقال إلى مائدة الطّعام.

إنّ تلك الطّريقة في دعوتهما إلى مائدة الطّعام تفسّر عبقرية الشّعبين مثلما يفسّرها بحث مُطوّل، أو ربّما هي تفسّرها أحسن منه.

لو لم يكن على المائدة سوى الأطفال، لما دام زمن الأكل، بالتأكيد، أكثر من عشر دقائق.

قبل تقديم التحلية الختاميّة، قفز الأطفال من على كراسيّهم، وأتوا ليسحبوا جيرار من ذراع السّترة الإسبانية الشّهيرة التي كتب هو نفسه حكايتها.

لم يطالب جيرار، أمام إلحاح الأطفال، سوى بوقتٍ يشرب فيه قهوته.

كان جيرار يعتبر القهوة إحدى اللّذائذ التي لا يتخلّى عنها بأيّ حال من الأحوال.

أمّا عندما فرغ من شرب قهوته، فلم تعد له أية وسيلة أخرى يقاوم بها إصرار الأطفال.

أناموا الصغيرة في مهدها ووضعوا رضّاعتها في متناول كفّيها، ثمّ

توجّهوا إلى شرفة على شكل سطيحة تطلّ على حديقة.

تسلّق شارل، الطّفل البكر، إحدى ركبتيّ، أمّا بول، الطّفل الأصغر، فقد انزلق بين ساقَي جيرار؛ فأصاخ الجميع السّمع وكأنّ الأمر يتعلّق بالحكاية التي رواها إنياس لديدون[1]. فبدأ جيرار حكايته:

صفّق شارل بكفّيه وهو يقول:

- أوه هذا ينبئ بأنّ الحكاية ستكون شيّقة.

- هلاَّ صمتَّ أنت! خاطبه بول، ضارباً عرض الحائط بالامتيّاز الذي عادةً ما يكون للأخ البِكر، وفارضاً الصّمت عليه.

انتظر جيرار إلى أن ساد الهدوء من جديد، فواصل:

- كان يا ما كان، خمسة وعشرون جنديّاً، كلّهم إخوة؛ هؤلاء الإخوة الجنود الخمسة والعشرون لا يجمع بينهم أنّهم قد ولدوا في اليوم نفسه وحسب، وإنّما يجمع بينهم أيضاً أنّهم قد خُلقوا من إذابة ملعقة الرّصاص القديمة نفسها. كانوا جميعاً يحملون سلاحهم في أيديهم وينظرون إلى الأمام. وكانت بذلاتهم رائعة بلون أزرق ذي خلفيّات حمراء.

- أوه! أنا أيضاً أملك بذلة مثلها، قال بول.

- اصمتْ! قال شارل صائحاً، بدروه، مسروراً بأن يكون أخوه

(1) في ملحمة **الإنيادة** للشّاعر اللاّتينيّ فرجيل Virgile، ديدون هي ملكة قرطاجنّه بتونس، تقع في حبّ البطل إنياس (الذي تحمل الملحمة اسمه) عندما يمرّ ببلادها على متن السّفينة التي ركبها هو ومجموعة من النّاجين القلائل من سقوط طروادة. وتضع آلهة الأولمب حدّاً لغرامهما عندما تُذكّر إنياس بمصيره المتمثّل في السّعي لتأسيس امبراطوريّة جديدة، هي امبراطوريّة الرّومان.

الأصغر قد وفّر له، بهذه السّرعة، فرصة الأخذ بثأره من عبارته السّابقة التي أمرَه فيها بأن يصمت. بعد ذلك واصل جيرار:

- كانت الكلمات الأولى التي سمعها أولئك الجنود، عندما انتُزع غطاء العلبة التي كانوا محبوسين بداخلها، هي:

«أوه! يا لهم من جنود رائعين!»

لذلك لم ينسوا تلك الكلمات طيلة حياتهم.

ومن النّافل القول إنّ الجنود قد شعروا، عندما سمعوها، بفخر عظيم.

كان طفل صغير هو الذي تلفّظ بتلك الكلمات، عندما فتح العلبة التي سُلّمت له بمناسبة عيده: كان يُسمّى جول.

قفز في البداية من الفرح بما رأى، ثمّ شرع يصفّق بكفّيه. بعد ذلك صفَّ الجنودَ الخمسةَ والعشرين على الطّاولة.

كان الجنود جميعهم يتشابهون، ليس فقط ببذلاتهم، وإنّما أيضاً بوجوههم.

ونحن سبق لنا أن فسّرنا سبب هذا التّشابه عندما قلنا إنّهم إخوة.

واحدٌ منهم فقط كان مختلفاً عن الآخرين، إذْ لم يكن له سوى ساقٍ واحدة.

اعتقدَ الطّفل في البداية أنّ الجنديّ قد فقد ساقه في إحدى تلك المعارك التي عادةً ما تندلع بين جنود الرّصاص. لكنّ عالِماً طبيباً من بين أصدقاء العائلة، وبعد أن فحص ما تبقّى من السّاق المخلوعة لذلك الأعرج المسكين، أكّد أنّ الجندي خُلِق بعاهته، وأنّه ولد بساقٍ واحدةٍ

لأنّه كان آخر ما أُذيب من ملعقة الرّصاص القديمة، فنَفَدَ الرّصاص وبقي، منذئذٍ، بساقٍ واحدة.

لكنّ الضّرر كان جزئيّاً، لأن هذا الجنديّ كان يتمتّع، وهو بساق واحدة، بالقوّة نفسها التي كان يتمتع بها الجنود ذوو الساقيْن.

بيد أنّ ذلك هو ما سيشكّل صلب الحكاية التي سأحكيها لكم.

كان هناك، فضلاً عن علبة جنود الرّصاص، لُعَب أخرى كثيرة موضوعة على الطاولة؛ ذلك أن الطّفل الصّغير كان له أخت تسمّى أنتونين، وتفاديّاً لأية غيرة بينهما، كانت تُقَدَّم، خلال عيد ميلاد الطفل، لعبٌ للطّفلة أيضاً، والعكس صحيح.

– ما الذي تعنيه بقولك «والعكس صحيح»؟ سأل شارل الذي كان يحبّ أن يكون على عِلم بتفاصيل كلّ شيء.

– أنت على حقّ، قال جيرار، فأنا مخطئ إذْ لم أفسرها.

ثمّ شرح للأطفال أنّ «العكس صحيح» تعني أنّه عندما كانت تُقدَّم للطّفلة، خلال حفل الطّفل الصّغير، لُعَبٌ، فإنّه كان يُفعَل الشّيء نفسه عندما يكون الحفل حفل الطّفلة؛ أي أنّه كانت تُسلَّم، آنذاك، للطّفل لُعَبٌ أيضاً.

كنت أقول إذن إنّ لُعَباً أخرى كثيرة، غير لعبة الجنود المصنوعين من رصاص، كانت موضوعة على الطّاولة؛ ومن بين تلك اللُّعَب، كان ثمة لُعبة تسترعي الانتباه على الفور، وهي عبارة عن قصر من ورق، له أربعة أبراج، برج في كلّ زاوية، وكان فوق كلّ برج دوّارة للرّياح تدلّ على الجهة التي تُقبل منها الرّيح. كانت النّوافذ كلّها مشرعة على

مصراعيها؛ وعبر تلك النّوافذ المفتوحة، كان بالإمكان رؤية ما يوجد بداخل الغرف. أمام القصر، كان ثمّة أشجار مغروسة في مجموعاتٍ متجاورة، قريباً من مرآة ذات شكلٍ متعرّج، موضوعة على النّبات، شبيهة ببركة صافية وشفّافة؛ وكانت إوزّات من شمع تسبح على صفحتها وتتأمّل فيها وجوهها. كلّ ذلك كان منظّماً بشكل لطيف وظريف.

لكنّ ألطف ما كان موجوداً في كلّ ذلك وأظرفه هو امرأة قصيرة واقفة على عتبة بوّابة مدخل القصر الكبرى. كانت مصنوعة من الورق وترتدي كسوة من كتّان ناعم وشديد الصّفاء؛ وكان شريط أزرق ملقىً على كتفيها بوصفه شالاً؛ وفضلاً عن ذلك، كانت وردةٌ رائعة مثبتةً إلى حزامها، يكاد يقارب حجمُها حجمَ وجهِها.

- حسناً! قال الطّفل، لديّ هنا جنديّ عاجز لا يصلح لشيء، ويختلف تماماً عن باقي الرّفقة، سأكلّفه بالحراسة أمام قصر أختي الورقيّ.

بعد ذلك نفّذ ما قاله، ممّا جعل جندي الرّصاص يجد نفسه وجهاً لوجه مع السيّدة التي من ورق.

كانت السيّدة الورقية، والتي تشتغل راقصة، قد ظلت في منتصف خطوتها، ذراعاها ممدودتان، وإحدى ساقيها في الهواء، ممّا أدّى بخيوط حذائها إلى أن تَعْلَق بشعرها.

وبما أنّها كانت راقصة ذات جسد شديد المرونة، فإنّ ساقها المرتفعة في الهواء كانت ملتصقة بجسدها، ممّا أدّى بالجنديّ الرّصاصيّ، وهو لا

يرى تلك السّاق، إلى الاعتقاد بأنّ الرّاقصة كانت مثله، لا تملك سوى ساق واحدة.

- آه! ها هي ذي المرأة التي أنا بحاجة إليها، فكّر الجنديّ؛ لكن، ولسوء حظّي، فإنّها امرأة ذات شأنٍ؛ فهي تقطن قصراً، بينما أتخذ أنا علبةً مسكناً لي، هذا فضلاً عن أنّ عدَدَنا في تلك العلبة يصل إلى خمسة وعشرين شخصاً. لذلك، فإنّ علبتنا هذه لا تليق أبداً بأن تكون مسكناً مناسباً لبارونة أو لكونتيسة. لنكتفِ إذن بالنّظر إليها دون أن نسمح لأنفسنا بأن نعبّر لها عن مشاعرنا.

هكذا ظلّ، في مكان الحراسة، ينظر ملء عينيه إلى السيّدة القصيرة التي كانت ما تزال - ودائماً في الوضعيّة نفسها - ثابتة على ساق واحدة، دون أن تفقد توازنها ولو للحظة واحدة.

عندما أقبل المساء وأتوا للبحث عن الطّفل الصّغير كي يأخذوه إلى سريره لينام، وَضعَ هذا الأخير كلَّ الجنود المصنوعين من الرّصاص في علبتهم، تاركاً، إهمالاً منه، أو ربما عمداً، الجنديّ ذا العاهة قائماً بالحراسة.

لكن، إن كان الطفل قد ترك الجنديّ العاجز في الحراسة، عمداً، أو بنيّة شريرة، فإنّه كان مخطئاً تماماً؛ ذلك أنّه لم يسبق أبداً لجنديّ من لحم ودم أن كان بمثْل السّعادة التي شعر بها الجنديّ المصنوع من رصاص، عندما رأى أنّهم لم يزيحوه عن الحراسة التي كُلّف بها، وأنّه سيكون بإمكانه أن يمضي اللّيل كلّه وهو يتأمّل معشوقته الجميلة.

كان الشّيء الوحيد الذي يخشاه، هو أن لا تكون اللّيلة مقمرة؛ فبما

أنّه ظلّ محبوساً في العلبة لمدّة طويلة، فإنّه ما عاد يعرف موقع اليوم الذي يعيشه من الشّهر. ظل يترقّب إذن وهو يشعر بقلق.

حوالى السّاعة العاشرة، وعندما كان الجميع نياماً في البيت، ارتفع القمر ناشراً أشعّته الفضّية عبر النّوافذ؛ وفي تلك اللّحظة عادت المرأة الجميلة، التي كانت قد افتُقدت في العتمة، إلى الظّهور، وقد بدت أجمل من ذي قبل؛ ذلك أنّ ضوء اللّيل كان يناسب بشكلٍ رائعٍ قسمات وجهها.

- آه! قال الجنديّ الرّصاصيّ، أنا اعتقد أنّها تكون أجمل باللّيل منها بالنّهار.

دقّت الساعة الحادية عشرة، ثمّ أقبل منتصف اللّيل.

وما إن دقّت السّاعة دقّاتها الأخيرة معلنةً عن انتهاء اليوم، حتّى شرعتْ بالاشتغال علبةٌ موسيقيّةٌ موضوعة على الطّاولة مع باقي اللُّعَب، تؤدّي في العادة ثلاثة ألحان مع رقصة شعبيّة تُعرف بالرّقصة التقابليّة[1]. عزفت في البداية: «لي تبغٌ جيّد»، ثمّ «مالبورك يذهب إلى الحرب»، فـ «نهر التّاخو»[2].

وما إن انتهتْ من هذا اللّحن الأخير حتّى انخرطت في الرّقصة الشّعبية المعروفة باسم رقصة الـ «جيك»[3].

---

(1) رقصة كلاسيكيّة يرقص فيها الأفراد في صفّين متقابلَين.

(2) من الأغاني الشّائعة في تلك الفترة. ونهر التّاخو El Tajo (بالفرنسيّة Le Tage) ينبع في إسبانيا ويصل إلى البرتغال حيث يصبّ مياهه في المحيط الأطلسيّ عند مدينة لشبونة.

(3) بالفرنسيّة: la gigue، رقصة قديمة كانت شائعة في فرنسا وفي اسكتلندة، يرقصها الأزواج اثنين اثنين أو أربعة أربعة.

حينئذ، وعند أوّل نوتة من تلك الرّقصة الشّعبية، شرعت الرّاقصة الصّغيرة تُنزل ساقها التي كانت لَصْقَ جسدها، ثمّ بذلت مجهوداً إضافياً فرفعت السّاق الثّانية عن الأرض، وانخرطت في لحن راقصٍ يبدو أنّ مؤلّف **باليه السّيلْفات**[1] نفسه هو من وضعه.

لم يكن جنديّ الرّصاص يُضيع أيّ حركة من ساقَي الرّاقصة وأيّ لَعِبٍ بهما. وكان أثناء رقص الرّاقصة الورقيّة يسمع رُفقاءَه وهم يقومون بمجهودات جبّارة كي يزيحوا عنهم غطاء العلبة؛ لكنّ الطّفل الصّغير كان قد أتقن إغلاق العلبة، فلم يستطيعوا تحقيق بُغيتهم، وظلّ الحارسُ هو المحظوظ الوحيد الذي يستمتع حتّى الثّمالة بموهبة الفنّانة الحسناء.

أمّا هذه الأخيرة، فقد كانت بالتّأكيد أوّل راقصة ظهرت إلى الوجود. وتدلّ كلّ القرائن على أنّها كانت، في الآن نفسه، تلميذة لتاغليوني ولإيسلر[2]. فهي كانت ترتفع مثل تاغليوني وتستقيم، عند الحاجة، مثل إيسلر، إلى درجة أنّ جنديّ الرّصاص المسكين كان يرى ما لم يُتَح من قبل رؤيتُه لأيّ عين بشرية؛ ذلك أنّ تلك الرّاقصة كانت قادرة، في الأمسية نفسها، على أن ترقص الرّقصة الإسبانية الأشدّ شهرة

(1) الارجح أنّه يُلمّح إلى باليه السّيلفيده *La Sylphide* ، وضعه المؤلّف الموسيقيّ أدولف نورّي Adolphe Nourrit بالتّعاون مع فيليبّو تاغليوني Filippo Taglioni في 1832. والسّيلف للمذكّر والسّيلفيده للمؤنّث من الكائنات الخياليّة في الأساطير الغاليّة والسّلتيّة والجرمانيّة، اسمها آتٍ من اللاّتينيّة *sylphus*، وتعني «الجنّ»، ولكنّها في حقيقة الأمر، أي كما تصورّها الأساطير، كائنات بالغة الجمال أشبه ما تكون بالحوريّات.

(2) فيلبّو تاغليوني (انظر الحاشية السّابقة): راقص ومؤلّف باليهات إيطاليّ (1777–1871). فاني إيسْلر Fanny Essler (1810–1884): راقصة باليه نمساويّة كان لها شهرة واسعة في أوربّا والأمريكتين.

والمسمّاة **كاشوشا الشّيطان الأعرج**[1]، ولحن رئيسة الرّاهبات في **روبير الشيّطان**[2].

لم يبْرح الجنديّ المصنوع من رصاص مكانَه، وكانت جبهته تتصبّب عرَقاً وهو يرى أن الرّاقصة الحسناء، الخفيفة مثل عصفور، تبدو غير عابئة به. صحيح أيضاً أن الرّاقصة كانت تبدو، أحياناً، وكأنّها تشرِّفه بخطواتها العالية؛ لا بل بدت، لأكثر من مرّة، وكأنّها تقدّم له علامات واضحة على الاهتمام الذي توليه له، عندما كانت تكاد تلمس أنفَه بمقدمة قدمها الصّغيرة، وهي تقوم بقفزتها مستديرة حول نفسها. لكن، وفي خضمّ ذلك الرّضا الخارق الذي عبّر عنه الحارس المسكين لتوّه، حصل له أنْ تخلّص من وهم كبير. ذلك أنّه أدرك خطأه الأوّل: كان للسيّدة الجميلة ساقان. وإذن، فإنّ ذلك التّشابه الذي كان يعوّل عليه بعض الشّيء ليتقرب من السيّدة العظيمة، قد اختفى، فوجد نفسه بذلك مُبعَداً عنها بآلاف آلاف الأميال.

في اليوم التّالي استيقظ الطّفلان مع بزوغ النّهار، فرحيْن بأن يريا لُعَبهما ثانية.

---

(1) الكاشوشا cachucha رقصة إسبانية فرديّة يقوم بها راقص أو راقصة، يصاحبها عزف القيثار والصّنجات الخشبيّة الصّغيرة التي يحملها الراقص أو الرّاقصة في أصابعهما. **والشّيطان الأعرج** *Le Diable boiteux* باليه صمّمها جان كورالّي Jean Coralli ووضع موسيقاها كازيمير جيد Casimir Gide وعُرضَت لأوّل مرّة في أوبرا باريس في 1836، وأدّت فيها الرّاقصة النمساويّة فاني إيشلر (انظر الحاشية السّابقة) الدّور النسويّ الأساس، ورقصت فيها رقصة كاشوشا بقي لها أثر في تاريخ الباليه.

(2) **روبير لو ديابْل** أو **روبير الشّيطان** *Robert le Diable* أوبرا وضع موسيقاها الألمانيّ جاكومو مايربير Giacomo Meyerbeer وعُرضت لأوّل مرّة في أوبرا باريس في 1831.

وبما أن الجوّ كان، خلال تلك الصّبيحة، رائعاً، فإنّ الطّفل الصّغير قد قرّر أن يُجري جنوده المصنوعون من رصاص استعراضَهم العسكريّ على النّافذة.

وهكذا قضى برفقتهم ثلاث ساعات جعلهم خلالها، وهو في غاية الانشراح، يقومون بكلّ الحركات التعبويّة والاستعراضيّة.

عندما دقّت السّاعة الثّامنة، نُوديَ عليه ليتناول طعامه.

وبما أنّ حديثاً كان رائجاً في البلد عن اجتياح محتمل قد يقوم به القراصنة الألمان، خشيَ الطّفل من أن يُهاجَم رجالُه على حين غرّة، فعيّن حارس الأمس حارساً مسؤولاً عن رفقائه، خصوصاً وأنّه كان راضيّاً عن اليقظة التي أعرب عنها، إذ كان قد وجده في المكان نفسه الذي وضعه فيه بالأمس؛ فنصَّبه في أكثر الأماكن خطورة، أي في أقرب مكان ممكن من حافّة النّافذة.

وعندما كان الطّفل يتناول طعامه، سقط الحارس من الطابق الثّالث، رأسه في المقدّمة، إمّا لأن التّيار الهوائيّ قد حمله، وإمّا لأنّ ذلك المعوّق المسكين شعر بالدّوار وهو واقف على حافّة النّافذة، فلم يستطع، لوقوفه على ساق واحدة، أن يتماسك؛ أو يكون الخيّالة الألمان، الذين كان يُخشى هجومهم، قد قدِموا بالفعل وأخذوه على حين غرّة.

كانت سقطة مريعة.

وحده حصول معجزة كان بإمكانه أن ينقذه؛ وقد حصلت بالفعل تلك المعجزة.

فلأنّ الجنديّ المخْلص لم يتخلّص من سلاحه، حتّى وهو في سقطته

تلك، فإنّه قد سقط على حربة بندقيّته.

انغرسَت الحربة بين حجرين، فظلّ منتصباً، رأسه إلى أسفل وساقه إلى أعلى.

كان الشّيء الأوّل الذي انتبه إليه الطّفل، وهو يلج الغرفة، بعد تناوله لطعامه، هو اختفاء حارسه الذي تركه هو قريباً من حافة النّافذة.

رأى، بِدَهاءٍ، أنّ الحارس قد يكون سقط من النّافذة، فنادى على خادمة أخته. نزلت الآنسة كلودين معه وشرعت تبحث تحت النّافذة.

كاد الباحثان، لمرّة أو لثلاث مرّات، يضعان اليد أو الرّجل على الجنديّ المصنوع من رصاص؛ لكنّ هذا الأخير كان يوجد، تحديداً، في المكان الأكثر خفاءً، فلم يستطع أيٌّ منهما أن يراه، رغم الانتباه الشّديد الذي خاضا به بحثهما.

لو كان الجنديّ قد نادى فقط: «هنا، ها أنذا»، لَكانا عثرا عليه ولكانا جمعاه بباقي رفقائه، وهو ما كان سيَحول دون وقوع مآسٍ كثيرة.

لكنّ جنديّ الرّصاص، بوصفه حارساً منضبطاً جدّاً لأسرار مهنته، كان قد قدّر أنّ من غير الملائم أن يتحدّث وهو في نوبة حراسة.

شرعت قطرات ضخمة من المطر تسقط؛ كما أنّ عاصفة رهيبة بدأت تبعث بنُذُرها في السّماء، فقدّر الطّفل الصّغير، باعتباره قائداً محنّكاً لجنوده، أنّ من الأفضل إهمال الجنديّ المعوّق، الذي لن يكون سقوطه من الطّابق الثالث، بالتأكيد، قد أعاد له ساقه الثّانية، عوضَ أن يُعرِّض للفيضان ولضربات هزيم الرّعد رفقةً من أربعة وعشرين رجلاً يرتدون ملابس جديدة، ويبدون في كامل الصحّة واللّياقة.

هكذا صعد إلى الطابق الثّالث طالباً من خادمة أخته أن تتبعه، فسارعت هذه بالاستجابة، فأدخل الجنود الأربعة والعشرين في العلبة وأقفل النّافذة اتقاءً للمطر، وسحب السّتائر لحجب التماعات البرق.

بعد ذلك، ولّى ظهره للعاصفة المحتدمة في الخارج، واكتفى بأن صاح في اتّجاه أخته، أثناء مروره:

- كم تبدو حزينةً، راقصتُك؛ ألا تكون واقعةً، صدفةً، في حبّ جنديّ الرّصاص؟

- آه! نعم، أجابت الفتاة الصّغيرة ساخرةً؛ لم يبق لراقصتي إلاّ أن تختار، بالتّحديد، الجنديّ الذي ليس له سوى ساق واحدة!

- أجل! ومن يدري، عقّب الطّفل الصّغير بفلسفة تفوق عمره، فالنّساء غريبات الأطوار للغاية.

ثمّ خرج كي يذهب لأخذ درسه.

- وماذا حصل للجنديّ الرّصاصيّ؟، سأل شارل.

- أجل، ماذا حصل لجنديّ الرّصاص؟، كرّر بول.

- أنا أرى بِرِضىً وبافتخار، قال جيرار وهو ينحني، أنّكما تهتمّان ببطلِ حكايتي.

لنعد إذن إلى الجنديّ المصنوع من رصاص.

كانت العاصفة قد اندلعت، وكان وابلٌ من المطر يهطل على جنديّ الرّصاص، الذي كان رأسه إلى أسفل، مضغوطاً بين حجرين، منغرساً في الأرض بواسطة مقدّمة حربة بندقيّته.

شكّل ذلك المطر المتهاطل مصدرَ سعادة كبرى بالنّسبة إليه. فهو، في

وضعه ذاك، كان ممكناً بالتّأكيد أن يصاب باحتقان دماغيّ، لولا مصدرُ الانتعاش غير المنتظر هذا.

مرّت العاصفة كما تمرّ كلّ العواصف؛ ثمّ عاد الجوّ الجميل من جديد. شرع طفلان يلعبان لعبة الكريّات الزّجاجيّة بمحاذاة جدار المنزل الذي سقط الجنديّ المصنوع من رصاصٍ من على نافذته.

أوقفت قبّعة الجنديّ المصنوع من رصاصٍ كريّةً متدحرجة.

وعندما التقطَ الطّفل كريّته، التقطَ معها جنديّ الرّصاص.

بعد ذلك أوقفه على ساقيه، أو بالأحرى، أوقفه على ساقه الوحيدة.

لم يتحرّك، رغم حبّه للرّاقصة التي من ورقٍ ورغم ليلة السّهر ورغم سقوطه من الطّابق الثّالث.

كان ما يزال متمسّكاً بسلاحه وهو ينظر إلى ما يعادل عشر خطوات أمامه.

- ينبغي أن نرسله في رحلة نهريّة، قال أحد الطّفلين.

كان الأمر يبدو غاية في السّهولة: كانت مجاري الميّاه قد أصبحت جداول حقيقية، ولم يكونا في حاجة إلاّ إلى مركب من ورق؛ وأيّة قطعة ورقية يمكنها أن تؤدّي الدّور كاملاً.

دخلا محلّ بقالة وطلبا من البقّال إن كان بإمكانه أن يسلّمهما جريدة.

كانت زوجه البقّال قد وضعت لتوّها مولوداً ذكراً، وهو ما كان البقّال يتمنّاه بقوّة، لأنّه لم يكن يُرزق من قبل سوى بمواليد إناثٍ، فكان يخشى، من جرّاء ذلك، أن لا يبقى لاسمه من وجود بعد وفاته. لذلك وجده الطفلان في لحظة راقَ فيها مزاجُه. بدا كريماً وقدّم لهما

الجريدة التي طلباها منه.

صنَعا من الجريدة مركباً، وفي اللّحظة نفسها وضعا المركب في الجدول، وبداخله وضَعا الجنديّ المصنوع من رصاص. كان على متن المركب القبطانُ والملازم والرّبان والطّاقم أيضاً.

انطلق المركب وهو يتمايل ويترنّح وكأنّه سفينة من سفن المياه العالية.

رافقه الطفلان وهما يجْريان ويصفّقان بأكفهما.

كان القارب، رغم المجرى السّريع لمياه الجدول الذي يوجد عليه، يسري بطريقة رائعة، يصعد مع الموجة وينزل معها، مبحراً وسط بقايا من كلّ نوع تسبح هنا وهناك، مصطدماً بصخور جوانب الجدول، لكن دون أن ينقلب أو أن يغرق، بل دون حتّى أن يقتحمه الماء.

ووسطَ كلّ هذه الاعتمالات، كان الجنديّ الرّصاصيّ ثابتاً في المقدّمة، سلاحه في يده؛ كما أنّه كان يبدو مستأنساً بحركة الأمواج وكأنّه قد قضى حياته كلّها مُبحِراً.

فقط، عندما كان القارب ينثني، وهو ما كان يحصل له أحياناً عندما كان يصادف دوّامة مائية، كان بإمكاننا أن نرى جنديّ الرّصاص وهو يلقي بنظرة سريعة مترعة حنيناً على المنزل الذي ترك فيه تلك التي يعتبرها أغلى ما في الوجود.

كان الجدول على وشك الانقذاف في النّهر.

انقذف القارب، مع الجدول، في النّهر.

عندما أدرك القارب النّهر، وجد الأطفال الصّغار أنفسهم مرغَمين

على التوقّف وتابعوه بأعينهم إلى أن اختفى تحتَ قوسِ جسر.

ألقى قوس الجسر ذاك بعتمة على القارب الذي ولجه، حتّى لَقَد ظنّ الجنديّ الرّصاصيّ أنّه أصبح داخل علبته.

فجأة سمع صوتاً يصيح في اتجاهه:

– أنت هناك! في القارب. تعال هنا.

لكنّ القارب، عوض أن يستجيب للنّداء، واصل طريقه.

– أليس لديك ما تصرّح به؟ صاح الصّوت نفسه.

لم يكن مصير هذا السّؤال الثاني بأحسنَ من مصير السّؤال الأوّل.

– أنت أيّها المهرّب الشّقي، صاح الصّوت، سأعرف كيف أتصرّف معك.

في تلك اللّحظة قام المركب بانثناءة أخرى، شبيهة بتلك التي تحدّثنا عنها، فشاهد الجنديّ المصنوع من رصاص جرذاً مائياً ضخماً، يشرع في السّباحة لمطاردته.

– ألقوا القبض عليه، ألقوا القبض عليه، شرع الجرذ المائيّ الضخم يصِيح، اقبضوا عليه، فهو لم يؤدّ رسوم المخور في النّهر.

ثمّ شرع يسبح خلف القارب وهو يضغط أسنانه، ويصيح في أَختامِ القشِّ التي تسبح هي بدورها إلى جانبه:

– اقبضوا عليه، ألا اقبضوا عليه، قلت لكم.

لسوء حظ الجنديّ الرّصاصيّ أو لحسن حظّه، كان التيّار قوياً للغاية، إلى درجة أنّ القارب سرعان ما وجد نفسه ليس فقط في مأمن من مطاردة الجرذ، وإنّما، أكثر من ذلك، في مكان لا يصل إليه صوت ذلك

الجرذ المتوعّد. وأنا أقول لحسن الحظّ أو لسوئه، لأن جنديّ الرّصاص لم يكن له أيّ شيء يخشاه: حتّى لو كان الجمركيّون قد ألقوا القبض عليه، فإنّهم كانوا سيتأكدون من براءته، وسيطلقون سراحه على الفور.

لكنّ الجنديّ المبحر لم يكن يتخلّص من خطرٍ إلاّ ليجدَ نفسه، بعد ذلك، عرضة لخطر آخر.

سمع صخباً يأتي من بعيد، شبيهاً بصخبِ شلاّل.

وبالموازاة مع تقدّم القارب إلى الأمام، كان الصّخب يصبح مسموعاً أكثر.

وكلّما أصبح الصّخب أقوى، أصبح التيّار أسرع.

لم يكن الجنديّ الرّصاصيّ، والذي لم يسبق له أن غادر العلبة، يعرف أيّ شيء عن ضواحي المدينة.

بيد أن ذلك الصّخب كان يزداد ارتفاعاً، كما أن السّرعة كانت تتضاعف. كلّ شيء، وبالخصوص دقّات قلبه، كان يدلّ على أن المركب يقترب من شلاّل شبيه بشلاّلات نياغارا.

راودته في لحظةٍ فكرةُ أن يقفز إلى الماء وأن يتوجّه إلى الشّاطئ، لكنّ الشّاطئ كان بعيداً جداً، كما أنّ سباحته كانت، بالطّبع، سباحة جنديّ من رصاص.

واصل القارب تقدّمه مسرعاً وكأنّه سهم. غير أن السّهم عندما يكون اقترب من هدفه، يشرع يتقدّم ببطء. أمّا القارب، فكلما اقترب من الهدف، أصبحت سرعته أشدّ.

بقي الجنديّ المسكين محتفظاً برباطة جأشه بقدرِ ما يستطيع، ولم

تطرفْ عينه مرّة واحدة، رغم الخطر العظيم الذي كان محدقاً به.

أصبح الماء أخضر شفّافاً. لم يكن القارب هو الذي يبدو متقدّماً وإنّما شاطئ النّهر هو الذي كان يبدو وكأنّه يهرب. الأشجار تعدو شعثاءَ منفوشةَ الغصون، كما لو أنّها كانت تريد، وقد ارتعبت من الضّجيج، أن تبتعد عن الشلاّل بأكبر سرعة ممكنة.

كانت سرعة القارب من القوّة بحيث تصيب بالدّوار.

كان جنديّ الرّصاص الشّجاع من الإخلاص للعدّة التي في عهدته، بحيث رفض أن يقال عنه إنّه أهملَ أسلحته. لذلك ضغط بندقيته إلى صدره، بطريقة لم يسبق له أن ضغطها بها من قبل.

دار القارب حول نفسه مرّتين متتاليتَين، وبدأ الماء يقتحمه.

كانت كميّة الماء على القارب تتزايد بسرعة، وفي غضون بضع ثوانٍ، كان الماء قد وصل إلى عنق الجنديّ.

بدأ القارب يغرق شيئاً فشيئاً.

كان كلّما ازداد غرقاً، ازداد تمدّداً؛ لذلك بدأ يفقد شكله، وشرع يأخذ شكلَ عوّامة.

مرّ الماء فوق الجنديّ الرّصاصيّ.

مع ذلك، استطاع القارب أن يصعد على صفحة الماء، فاستطاع الجنديّ أن يرى من جديدٍ السّماءَ وشاطئَ النّهر والمنظرَ العامّ؛ كما استطاع أن يرى أمامه الهاوية المزبدة.

في تلك اللحظة الحاسمة، استطاع، في لحظة خاطفة، أن يفكّر بالرّاقصة الورقية الصّغيرة الجميلة والرّشيقة واللّطيفة.

وفجأةً شعرَ وكأنّه يهوي إلى الأمام. تمزّق القارب عند قدميه وسارع إلى الهاوية دون أن يكون له الوقت حتّى ليقول: أُف!

كان ثمّة سمكة زُنجور عظيمة، فاتحة فاها مؤمّلة أن يسقط شيء ما من الأعلى، فاستقبلت الجنديّ الرّصاصيّ في فمها وابتلعته.

في الوهلة الأولى، كان مستحيلاً تماماً بالنسبة للجنديّ المصنوع من رصاص أن يدرك ما الذي حصل أو أن يعرف المكان الذي يوجد فيه.

كلّ ما كان يشعر به هو أنّه ليس على ما يرام، وأنّه ممدّد على جانبه.

وبين الفينة والأخرى، وبما أنّ ما يشبه كوّة صغيرة كان ينفرج أمامه، كان ضوءٌ أخضرُ مُزْرَقّ يصل إليه، وكان يرى أشياء أشكالها غريبة عنه تماماً.

كان يهتزّ من جرّاء حركات سريعة وارتجاجات، ممّا جعله يفكّر، شيئاً فشيئاً، بأنّه قد يكون في بطن سمكة.

ومنذُ أن راودتْه تلك الفكرة، أدرك وضعيّته وفهمَ أنّ تلك الإضاءات التي وصلته إلى مكانه في بطن الحوت، كانت ناتجة عن ضوء النّهار الذي يلج التّجاويف الصّدرية للسّمكة، عندما كانت تفتح خياشيمها كي تستخلص الهواء من الماء.

وعندما انقضى ما يقارب ربع ساعة، كان كلّ الشّك قد انْتَفَى.

ما العمل؟ خطرت له فكرة أن يشقّ له طريقاً بواسطة حربةِ بندقيّته؛ لكن ماذا لو ثقبَ، في لحظة شؤم، مثانة السّمكة؟ في تلك الحال لن تعود السّمكة قادرة على التزوّد بالهواء الذي تستطيع بفضله أن تصعد إلى سطح الماء، وستسقط إلى القعر.

ماذا سيحصل له آنذاك؟ ألن يُكفَّن داخل جثّة؟

من الأجدى، إذن، ترْك السّمكة تعيش: فمهما تكن قوّة العصارات المعوية للسّمكة، فإنّ من المحتمل ألاّ تستطيع إذابته.

وإذن، فإنّ الجنديّ الرّصاصيّ سيصبح بالتّأكيد سبباً دائماً للإزعاج بالنّسبة للسّمكة، وستنتهي، في غضون ثلاثة أيام أو أربعة، بأن تتخلّص منه.

للجنديّ المصنوع من الرّصاص سابقٌ شهيرٌ، هو يونس النبيّ.

منذ اللّحظة التي أصبح فيها واضحاً للجنديّ الغريق أنّه الآن في بطن سمكة، ما عاد أيّ شيء يفاجئه. أصبح كلّ شيء بالنسبة إليه مفسَّراً: الحركات السّريعة التي ترجّه ذات اليمين وذات الشّمال، والغطس المتكرّر إلى أعماق الماء، والصّعود بعد ذلك إلى السّطح. وقد قضى على تلك الحال - إن صدقتْ عملية حسابه للزّمن - أربعاً وعشرين ساعة في حالة اطمئنان نسبيّة.

لكنّ سمكة الزّنجور الضّخمة شرعت، فجأة، تهتزّ اهتزازات مرعبة، فحاول بطلنا سدىً أن يعرف سبب ذلك. بدا له إمّا أنّ حادثاً خطيراً ما قد طرأ، أو أن السّمكة واقعة تحت تأثير انفعال حادّ. كانت السّمكة تنْفتل وتحرّك ذيلها بعنف. وفي غضون بضع لحظات، وجد الجنديّ نفسه في وضعية عموديّة، بعد أن كان بقي إلى تلك اللّحظة ممدّداً في وضعيّة أفقيّة.

كانت سمكة الزّنجور تُسحَب إلى خارج الماء بقوّة شديدة، وهي تحاول دون جدوى، أن تقاوم وأن تظلّ في الماء.

كانت سمكة الزّنجور تعيش لحظات عصيبة وهي تصارع صنّارة.

وعندما لاحظ الجنديّ الرّصاصيّ أنّ تنفّس السّمكة أصبح صعباً، وتنفّسه هو أضحى أيسر ممّا كان، فهم أنّ السّمكة قد أخرجت من مجالها الحيويّ. ظلّت، خلال ساعة أو ساعتين، في حالة بين الموت والحياة؛ لكنّ الحياة انهزمت أخيراً، وهمدَ الحيوان.

كانت سمكة الزّنجور، أثناء احتضارها، قد نُقِلت من مكان إلى آخر؛ لكن ما هو المكان الذي نُقِلَت إليه؟ كان جنديّ الرّصاص يجهل ذلك جهلاً تامّاً.

فجأةً، أحسّ بشعاع ضوء يصل إلى غاية المكان الذي يوجد به في بطن السمكة. شاهد النّور وسمع صوتاً يقول، مصحوباً بنبرة تعجّب:

- انظري! الجنديّ المصنوع من رصاص!

كانت الصّدفة قد أعادت المسافر إلى البيت نفسه الذي انطلق منه، وكانت من أطلقت تلك الجملة التّعجبية هي الآنسة كلودين، مربّية الطّفلة الصّغيرة، وهي تحْضُر لحظةَ فتحِ بطنِ السّمكة، وتتعرّف على الجنديّ الرّصاصيّ الذي كانت في اليوم السّابق قد بحثت عنه في الطّريق، سدىً، برفقة الطّفل الصّغير.

- آه! يا له من أمرٍ عجيبٍ! قالت الطبّاخة؛ كيف أمكن لجنديّ السيّد جول، المصنوع من رصاص، أن يكون في بطن سمكة؟

لم يكن بإمكان أحد غير جنديّ الرّصاص أن يجيب عن هذا السؤال؛ لكنّه التزم الصّمت، ترفّعاً منه، في غالب الظنّ، عن أن يحادث خَدَماً.

- آه! قالت الخادمة، سيكون السيّد جول في غاية السّعادة.

بعد ذلك حملته الخادمة ووضعته تحت الصّنبور وغسلتْه. شعر جنديّ الرّصاص بأنّه كان في أمسّ الحاجة إلى حمّام مثل ذاك. عقِب ذلك حملته كلودين ووضعتْه على طاولة غرفة الاستقبال.

كلّ الأشياء كانت هناك، كما تركها جنديّ الرّصاص. علبة التّبغ التي تُصدر موسيقى كانت ما تزال في مكانها، والجنود الأربعة والعشرون يخيّمون في غابةٍ أشجارها مصبوغة باللّون الأحمر، أوراقها مدبَّبة ومجعّدة؛ وكانت الرّاقصة الورقيّة، أخيراً، ما تزال تحت البوّابة الكبرى، وهي لا تقف بحذقٍ على أطراف بنانها، وإنّما بشكل عموديّ على ساقيْها معاً. وكما لو أنّ ساقيها ما عادتا قادرتين على حملها، كانت تستند إلى الباب.

وفضلاً عن ذلك، فإنّه كان بإمكاننا أن نخمّن أنّها قد بكت كثيراً؛ ذلك أن عينيها كانتا متورّمتين بشكل مريع، وكان لونها ممتقعاً حتّى لَيَظُنُّ الرّائي أنّها على وشك أن تموت.

ذُهل الجنديّ المسكين من الحالة التي رآها عليها، حتّى لقد راودته فكرة أن يُلقي بعيداً بقبّعته وببندقيّته وبحقيبته وجعبته، وأن يذهب ليجثو عند قدميها.

وفي اللّحظة التي كان يُشاور فيها نفسه إن كان سيقوم بذلك أم لا، وعندما كان يحاول أن ينتصر على خجله الطّبيعيّ، اعتماداً على استدلالات داخليّة من كلّ نوع، دخلت الطّفلة الصّغيرة ورأته.

– آه! قالت الطّفلة الصّغيرة، آه أيّها المعوّق الشرّير، أنت إذن السّبب في بكاء راقصتي الورقية طيلة اللّيلة، وفي هذا الضّعف الذي أصبحت

عليه اليوم، حتّى أنّها لم تعد تقوى إلاّ بصعوبة على أن تبقى ثابتة على ساقيها.

- خذ! هذا جزاؤك!

ودون أن تتفوّه بعد ذلك بكلمة واحدة، أمسكت بالجنديّ الرّصاصيّ بقوّة وقذفت به إلى الموقد.

كان فعلها ذلك سريعاً وبديهيّاً، كما أنّه لم يكن منتظَراً البتة، بحيث لم يستطع الجنديّ أن يبدي أيّة مقاومة.

مرّ إذن من ماء شديد البرودة ومن جوّ معتدل إلى حرارة خانقة وسط موقدِ نارٍ حرارتُه شديدةُ الارتفاع.

لكن تلك الحرارة التي كان هو مقيماً فيها، والتي تبدو معها حرارة دولة السّنغال جوّاً لطيفاً، هل هي حرارة النّار التي تحرق جسده أم حرارة الحبّ التي تُشعِل قلبه؟

هو نفسه لم يكن يعلم.

لكنّ ما كان يشعر به بوضوح كامل، هو أنّه كان في طريقه إلى الفناء. كان يذوب مثل قطعة شمع، وكان على يقين تامّ من أنّه لن يعود، بعد لحظة من الآن، سوى سبيكة مشوّهة.

آنذاك، ألقى بعينيه الآخذتين في الموت نظرة أخيرة على الرّاقصة الصّغيرة التي كانت، من جانبها، تنظر إليه، يداها ممدودتان نحوه وعيناها زائغتان.

في تلك اللّحظة انفتحت النّافذة التي لم تكن مقفلة بشكل جيّد؛ فدَلَفَت هبّة ريح إلى القاعة، وحملت الرّاقصة الورقيّة مثل سيلفيده[1]،

---

(1) سبق التّعريف بها في حاشية متقّدمة من حواشي هذه الحكاية.

وألقت بها في الموقد، قريباً من أحضان الجنديّ المصنوع من رصاص.

وبمجرّد وقوعها في الموقد اندلعت النّار في ملابسها، فاحترقت في غضون ثوانٍ معدودةٍ مثلَ سيميلي[1].

سارعت الفتاة الصّغيرة محاولةً إنجادَ الرّاقصة.

كان الأوان قد فات.

أمّا بالنّسبة للمعوّق، الجنديّ الرّصاصيّ المسكين، فقد ذاب كليّةً، وعندما أتت الخادمة، صباح اليوم التّالي، كي تجمع الرّماد، لم تجد سوى سبيكة صغيرة في شكلِ قلبٍ صغير.

كان ذلك هو كلّ ما تبقّى من الجنديّ المصنوع من رصاص.

***

هذه هي الحكاية التي حكاها لنا صديقي جيرار، وهو يعرض أمامنا قلباً صغيراً من رصاص، يضعه في ساعته، بوصفه حُلية صغيرة، بين حليّ أخرى كان يحملها على معصمه.

زعمَ جيرار أنّه كان قد اشترى القلب الصّغير في اليوم السّابق، من خادمة الآنسة أنتونين نفسها، والتي يقول إنّه أخذ عنها هذه الحكاية[2].

لم تكن هذه الحكاية الوحيدة التي حكاها جيرار، وإن استطعتُ، يا أطفالي الأعزّاء، أن أتذكّر الحكايات الأخرى، فإنني سأحكيها لكم، كما حكيت لكم هذه.

(1) هي في الميثولوجيا اليونانيّة إحدى عشيقات زفْس، تطالبه بأن يتجلّى لها فيفعل، ولكنّها تنصعق لدى رؤيته.

(2) علمتُ لاحقاً أنّ هذه الحكاية عائدة لأندرسِن (المؤلّف).

جان النّحيل وجان السّمين[1]

الأمسية الأولى

استمتع الأطفال غاية الاستمتاع بالحكاية السّابقة، أقصد حكاية «جنديّ من رصاص وراقصة من ورق». لذلك سحبوا جيرارَ، في اليوم التّالي، من بدلته وهم يطالبونه بحكاية أخرى.

وضع جيرار قهوته بحيثُ تكون في متناول يده كي يتمكّن من أن يرتشف منها بين الفقرات الأكثر أهمّيّة.

بعد ذلك، وعندما جلس الأطفال في الأماكن نفسها التي كانوا يشْغلونها في اليوم السّابق، شرع جيرار يحكي حكايته بهذه الطّريقة:

- كان يا ما كان، كان في قرية ما عدت أذكر اسمها شخصان يحملان

(1) مستوحاة أيضاً من حكاية للكاتب الدّانماركيّ أندرسِن (انظرْ تعريفنا به في الحاشية الأولى للحكاية السّابقة «جندي من رصاص وراقصة من ورق»). وحكاية دوما هذه مترجمة هنا بشيء من التصرّف، فحُذِفَت منها فقرات قد تخدش حساسية النّاشئة، وهي لا تمسّ جوهر الحكاية. وبالرّغم ممّا في الصّفحات التّالية من بعض مظاهر العنف، من النّمط الذي نجده أيضاً في حكايات **ألف ليلة وليلة** وسواها، فينبغي أن نتعامل مع النصّ عبرَ أبعاده الرمزيّة وآخذين بعين الاعتبار عبرته التي ترد في خاتمته: المكْر الشرّير غالباً ما ينقلب على صانعه.

الاسم نفسه.

كان اسم كلٍّ منهما هو جان.

لكنّ أحدهما كان يملك أربعة أحصنة، بينما لم يكن الثّاني يملك إلاّ حصاناً واحداً.

وحتّى يتمّ التّمييز بينهما، سُمّي ذلك الذي يملك أربعة أحصنة جان السَّمين، بينما سُمّي من لم يكن يملك سوى حصان واحد جان النَّحيل.

وهو ما يجعلكم تعرفون، يا أصدقائي الصّغار، أنّ ما يجعل من أحدهما جان السَّمين ومن الآخر جان النَّحيل، هو الثّروة وليس الذّكاء ولا القامة.

- بلا تعليقات، بلا تعليقات، قال الأطفال، احكِ لنا حكايتنا وحدها.

- طيّب، قال جيرار؛ فلنعدْ إلى حكايتنا، أو بالأحرى قصّتنا، لأنّ ما سأحكيه لكم، يا أطفالي الأعزّاء، ليس حكاية وإنما قصّة.

- أنا أحبّ أن تحكي لنا حكاية، قال شارل؛ أمّا القصص فمملّة.

- سأحاول أن أجعل من قصّتنا هذه قصّة مسلّية، قال جيرار؛ لكن أتركوني أتابع.

ساد الصّمت.

- وهذا ما حصل لهما، واصل جيرار قائلاً:

كان على جان النَّحيل، وفق اتّفاقية عقَداها، أن يحرث أرض جان السَّمين وأن يُعيره حصانه الوحيد خلال أيام الأسبوع السّتّة، في حين يكون على جان السَّمين، بالمقابل، أن يساعد جان النَّحيل بإعارته

أحصنته الأربعة كي يحرث حقله الوحيد، لكنّ ذلك لا يكون إلاّ خلال يوم واحد من الأسبوع، وهو يوم الأحد.

كان بإمكان رجل آخر غير جان النَّحيل أن يتذمّر من العمل خلال اليوم الذي يستريح فيه العالم برمّته، لكنّ جان النَّحيل كان ذا مزاج رائق، ويرفض أن يستسلم للتّعب.

وكان عليكم، يا أطفاليَ الأعزّاء، أن تشاهدوه! كان يَعتبر ذلك اليوم يوم ظَفَره. كان يقف متعاظماً ومفتخراً أمام صفّ الأحصنة الخمسة، وهو يضرب في الهواء بسوطه؛ فهو سيتصوّر، طيلة اليوم، أنّ الأحصنة الخمسة كانت في ملكيّته الخاصّة.

كانت الشّمس تلمع والمؤمنون ذاهبون للصّلاة، فيمرّ القرويّون والقرويّات أمام حقل جان النَّحيل وهم يتأبّطون كتيّبات الصّلوات، بعد أن استحمّوا.

وكان جان النَّحيل، المنحني على محراثه، يستقيم ليحيّي أصدقاءَه وهو سعيدٌ للغاية وفخور بأحصنته الخمسة التي تحرث حقله.

- فليكْ! فلاكْ! هيّا يا أحصنتي الخمسة؛ كان جان النَّحيل يصيح بابتهاج.

- ما كان عليك أن تتكلّم بهذه الطريقة، قال له ذات يومٍ جان السَّمين، الّذي عِوضَ أن يساعد جان النَّحيل في عمله، كما يقتضي الاتّفاق المُبرم بينهما، كان يكتفي بأن ينظر إليه شابِكاً ذراعيه على صدره.

- ولماذا لا يكون علي أن أتكلّم أبداً بهذه الطّريقة؟ سأله جان النَّحيل.

- لأنّك لا تملك من هذه الأحصنة الخمسة سوى حصان واحد؛ أمّا الأحصنة الأربعة الأخرى فهي، على ما أعتقد، ملكي أنا.

- ما تقوله صحيح، أجاب جان النَّحيل، بغير اقتناع.

لكنّ جان النَّحيل، رغم اعترافه بأنّه لا يملك من الأحصنة الخمسة سوى حصان واحد، كان ينسى اعترافه مباشرةً بعد ذلك. ثمّ يمرّ صديق له أو أحد معارفه، أو حتّى غريبٌ، فيلتفت هو نحوه وهو يشتغل، فينسى كلّ شيء ويعود من جديد إلى فرقعة سوطه في الهواء وهو يصيح:

- أوه! هيّا يا أحصنتي الخمسة!

- لقد حذّرتك، يقول له جان السَّمين. إنّ ما تقوله يقرفني: أحصنتي الخمسة! يا للهراء! أنا أحذّرك من جديد، لكن للمرّة الأخيرة؛ أمّا إن عدت إلى ذلك ثانية، فسترى ما سيصدر عنّي.

- لن أعود إلى ذلك أبداً، يقول له جان النَّحيل.

لكن ما إن يبدأ النّاس يمرّون أمامه ويحيّونه بودّ برؤوسهم، حتّى يركبه شيطان الخيلاء من جديد، فتراه، رغم علمه بما قد يقترفه جان السَّمين في حقّه، يعود ثانية إلى فرقعة سوطه في الهواء وهو يصيح:

- أوه! هيّا يا أحصنتي الخمسة!

قال له جان السَّمين ذات يوم:

- انتظرْ، انتظرْ، سأجعل أحصنتك الخمسة تمشي بطريقة أسرع.

بعد ذلك أمسك بحجرٍ وقذف به بقوّة، فأصاب جبهة فرس جان النَّحيل، فسقط ميّتاً على الفور.

- يا للأسف! قال جان النَّحيل، ها أنذا قد أصبحت بلا فرس.

ثمّ بدأ يبكي.

لكنّه شابّ غير سوداويّ بطبعه، ويفهم أنّ الدّموع لا تفيد في شيء. لذلك مسح عينيه بكمّ قميصه، واستخرج سكّينه من جيبه؛ فبما أنّه لم يعد مفيداً في فرسه سوى جلده، فقد شرع في سلخه.

عندما انتهى من سلخ الفرس، نشرَ الجلدَ على حاجز كي يجفّ.

وبعد أن جفّ الجلد، وضعه في كيس، ثمّ حمل الكيس على كتفه.

كان ينوي أن يتوجّه إلى المدينة كي يبيع جلدَ فرسه.

كانت المدينة بعيدة جدّاً عن قرية جان النَّحيل. وكان عليه، كي يصل إليها، أن يعبر غابة شاسعة ومظلمة. لكنّه، عندما وصل إلى منتصف الغابة، فاجأته عاصفة، فتاهَ وأدركه اللّيل قبل أن يعثر على طريقه من جديد.

لكنّه من فرط ما مشى، وجد نفسه في طرف الغابة، فلمح مزرعة.

اقترب منها فرحاً، يحدوه أملٌ في أن يجد فيها مأوى.

كانت أغطية الشّبابيك الخشبية مغلقة من الخارج، لكنّ الضوء كان يلمع عبر شقوقها.

طرقَ جان النَّحيل الباب.

فتحت المُزارِعة الباب.

قدم جان النَّحيل طلبه بلطفٍ وبأدب.

لكنّ لطفه وأدبه لم يؤثّرا في المُزارِعة.

- واصلْ طريقك يا صديقي، قالت. زوجي غير موجود، وفي

غيابه لا يمكنني أن أستقبل أيّ غريب في البيت.

ورغم النّبرة الحزينة التي رافقت تنهيدة جان النَّحيل، فإنّ المزارعة قد أغلقت الباب في وجهه.

- هل سيكون عليّ إذن أن أقضي اللّيل في العراء؟ تساءل جان النَّحيل مع تنهيدة مديدة.

شرع جان النَّحيل يجيل بصره حوله، لأنّه كان قد قرّر ألاّ يذهب بعيداً عن المكان الّذي يوجد فيه.

رأى قريباً من المنزل، مكاناً تَكدَّس فيه الكلأ، ولاحظ أنّ بين ذلك المكان وبين المنزل، يوجد مخزنٌ سقفُه من قصب مسطّح.

- ها هو ذا سرير مهيّأ تماماً، فكّرَ جان النَّحيل وهو ينظر إلى سقف القصب؛ سأنشر جلد فرسي على السّطح وسأتمدّد عليه وسأتّخذ الكيس لحافاً ثمّ أنام أحسن ممّا ينام جان السَّمين الذي قتلَ دابّتي.

عندئذ رفع بصره إلى السماء.

- فقط، علَّ طير اللّقلق لا يأتي ليخطف عيني بمنقاره الطّويل حينما أكون مستغرقاً في النّوم، قال جان النَّحيل؛ هذا هو طلبي الوحيد.

وبالفعل، كان ثمة عشٌّ لقالقَ على المدْخنة فوق المخزن، وعلى تلك المدْخنة، كان يقف ثابتاً على قائمة واحدة، طائرُ لقلق قد يكون هو الأب أو الأمّ.

بعد أن أبدى جان النَّحيل هذه الملاحظة، صعد إلى السطح ونشر جلدَ فرسه ثمّ تمدّد عليه والْتَحف بكيسه، ثمّ شرع يتقلّب يميناً ويساراً، استدعاءً للنوم.

وفي خضمّ تقلبه، استرعى نظرَه شعاعُ ضوء.

كان مصدر شعاع الضّوء ذاك هو مصراع نافذة منفرج.

ومن انفراجة النافذة تلك، كان بإمكان جان النَّحيل أن يرى ما يدور داخل البيت.

بعد أن قالت المزارعة لجان النَّحيل ما قالته، عندما طلب منها أن يبيت في بيتها، لم يكن بإمكانه إلاّ أن يندهش ممّا يراه.

- ماذا رأى؟ ماذا رأى؟ صاح الطّفلان، قل بسرعة، بسرعة.

- رأى مائدة كبيرة، واصل جيرار، وعلى تلك المائدة، وُضعت سمكة رائعة وديك روميّ مشويّ وفطيرة وكلُّ أنواع الشَّراب الممتازة.

وكان يجلس إلى تلك المائدة زوجة المزارع وخادم كنيسة القرية التّي ينتمي إليها جان النَّحيل.

كانا بمفردهما، وكانت المُزارعة تقدّم لضيفها سمكاً، فالسّمك هو وجبته المفضّلة، ثمّ تملأ له كأسه وتدعوه إلى أن يشربَ حتّى يُطفِئ عطشه.

- انظرْ، انظرْ! قال جان النَّحيل؛ هذه حفلة على ما يبدو! ثمّ ها هي ذي المُزارعة تنتصب واقفة؛ ما الذي ستأتي به أيضاً؟ حلويّات؟ كعكات بالقشطة! يبدو أنّ خادم كنيستنا رجل محظوظ. اللّعنة!

آنذاك سمع، على الطريق، خطوات شخص يتقدّم نحو المنزل.

كان القادم هو زوج المزارعة.

لم يكن جان النَّحيل قد تعرّف عليه من قبل، لكنّه خمّن ذلك عندما رآه يتجه رأساً نحو باب المنزل ويطرقه طرقاً مزدوجاً.

لا يمكن لأحد آخر غير ربّ المنزل أن يطرق الباب بتلك الطّريقة.

كان المزارع يبدو رجلاً شجاعاً؛ لكنّه كان له هوَس غريب: لم يكن بإمكانه أن يشاهد خادم كنيسة، وجهاً لوجه، دون أن تنتابه سَوْرَةُ غضب شديدة تشبه السّعار.

أضفْ إلى ذلك أنّ خادم الكنيسة هذا - الذي هو على علم بالكراهية التي يكنّها الزّوج لخدَم الكنيسة بصفة عامّة، وله هو بالخصوص - كان قد أتى ليحيِّيَ المرأة، تحديداً لأنّه يعرف أنّ زوجها غير موجود. وقد استنتج أنّ المزارعة الطيّبة قد قدّمت له - لتشكره على نزاهته - أحسن ما تملكه من أطعمة.

والحال أنّهما عندما سمِعا طَرْقاً على الباب، وعندما عرفا أنّ تلك هي شاكلة الزّوج في الطَّرْق على الباب، انتابهما رعب شديد، ممّا حدا بالمرأة إلى أن تتوسّل إلى خادم الكنيسة أن يختبئ في صندوق كبير فارغ موجود في زاوية من زوايا الغرفة.

لم يتردّد خادم الكنيسة، وهو يرتعش بكل أطرافه، للحظة واحدة في الاستجابة لطلب المرأة. فبمجرّد أن رفعت الزّوجة غطاء الصّندوق، اقتحمه وكمنَ في قعره. آنذاك أعادت المرأة إغلاق الصّندوق.

راودتها، بشدّةٍ، فكرة أن تغلق الصّندوق بالمفتاح، لكنّ المفتاح كان قد ضاع من مدّة طويلة؛ وبما أنّ المزارعة لم تكن تعرف على وجه التّحديد في أيّ شيء يمكن لهذا الصّندوق أن يكون مفيداً فهي لم تسعَ إلى الحصول على مفتاح جديد.

اكتفت إذن بأن ألقت على الصّندوق بكل ما عثرت عليه يداها

في تلك اللّحظة، وهُرِعتْ في اتجاه المائدة، فحملت السّمكة والدّيك الرّوميّ والفطيرة والحلويّات والكعكة والقشطة، ووضعت كلّ ذلك في الفرن؛ ذلك أنّ زوجها، وأنتم تفهمون ذلك طبعاً، لو شاهد كلّ ما كان موضوعاً على المائدة، لَتساءل عن مصدر كلّ ذلك الأكل الفاخر.

- آه! قال جان النَّحيل متنهّداً، على السّطح، وهو يرى فوّهة الفرن تنفتح على مصراعيها، مستقبلةً تلك الوجبة الشهية. آه! أيّها الفرن، ما أسعدك!

سمع المُزارع، الذي كان ما يزال يطرق الباب، تلك التّنهيدة.

- هيه! هناك فوق، هل يوجد أحد؟ سأل.

- هذا أنا، أجاب جان النَّحيل.

- أنت، من؟

- جان النَّحيل.

- وماذا تفعل هناك، فوق؟

- أنا، سيّدي المُزارع، أحاول أن أنام؛ لكن يبدو أنّ الأمر ليس سهلاً، وكنت أتنهّد، تحديداً، لأنّني لم أستطع أن أنام.

- ولماذا لم تنم في مستودع الحبوب فوق البيت؟

- لأنّ زوجتكم، وهي امرأة حذرة، أجابتني عن طلبي بأنّها لا تستطيع استقبال غرباء أثناء غيابكم عن المنزل.

- آه! آه! أجاب المزارع راضياً بما سمعَ، صحيح، هذا سلوك معروف عن زوجتي كلودين السَّمينة. لكن تعال معي الآن، وستُحسن ضيافتك، أنا أعدك بذلك.

- آه، حسناً!، قال جان النَّحيل وهو يضع جلد فَرسه في الكيس ويضع الكيس على كتفه، ثمّ تزحلق عبر منحدر السّطح، وأضاف: يبدو أنّ زوجتك كلودين السَّمينة لا تسارع بفتح الباب لك.

- هي في فراشها، نائمة، المسكينة. أنا أعلم أنّ بداية نومها تكون قاسية دائماً. لكن، اسمع، ها هي ذي قادمة، أنا أسمع خطواتها.

انفتح الباب أخيراً.

- هذا أنت، يا نيكولا المسكين! صاحت زوجة المزارع وهي تقفز على عنق زوجها. هل ظللت تطرق الباب لمدّة طويلة؟

أحكمتِ الخناق على الرّجل المسكين، وهي تضغطه بقوّة إلى صدرها مقبِّلة، حتّى أنّ المزارع لم يستطع أن يجيبها إلاّ بعد لحظات.

- تبّاً! عشر دقائق أو ربع ساعة.

- ربع ساعة! أوه! يا زوجي المسكين، صاحت كلودين، قد تكون برداناً جدّاً وجائعاً. تعال إلى فراشك لتنام.

- أوه! أوه! قال نيكولا، ليس بهذه السّرعة. أنا بالأحرى أشعر بالجوع أكثر ممّا أشعر بالبرد أو بالحاجة إلى النوم. لذلك فلديّ رغبة أكيدة في أن أتعشّى قبل أن أذهب إلى فراشي. ثمّ إنّ معي شابّاً يطيب له أن يتعشّى معي. أليس كذلك يا جان النَّحيل؟

- آه! يا سيّد نيكولا، قال جان النَّحيل، لم يكن بمستطاعي أن أجرؤ على طلب مثل هذا، لكن ما دمتَ قد دعوتني، فإنّني سأتناول عشائي معك بكلّ فرح، لأنّ ذلك يعتبر تشريفاً لي.

بعد ذلك، التفت نحو زوجة المزارع، وكأنّه يراها لأوّل مرّة:

- لي الشّرف سيّدتي أن أتمنّى لك مساءً سعيداً.

- مساء سعيد، مساء سعيد، قالت زوجة المزارع، التي كانت تتمنّى في قرارة نفسها لو كان جان النَّحيل على بعد مائة فرسخ من منزلها في تلك اللّحظة، وذلك ليس لأنّها تعتقد أنّه قد يكون شاهد شيئاً ممّا دار بينها وبين خادم الكنيسة، وإنّما لأنّها كانت تخمّن أنّ زوجها إن جلس إلى المائدة برفقة جان النّحيل، فإن أحداً لن يستطيع أن يجعل أيّاً منهما يغادرها، وهو ما سيشكّل أمراً مزعجاً للغاية بالنّسبة لخادم الكنيسة المسكين، المسجون في الصندوق.

لكنّها التجأت إلى حيلة أخرى حتّى لا يظلاّ متشبّثين بالمائدة لمدّة طويلة: قررت أن لا تضع على المائدة سوى صحنٍ كبيرٍ بخضروات مسلوقة في الماء، دون أن ترفقه بسمنٍ ولا بشحمٍ؛ وهو الصّحن الذي فَضُل عن طعام سائقي العربات.

شرع المزارع، الذي كان جائعاً جدّاً، يأكل بشهيّة ظاهرة، دون أن يبدي أية شكوى من طبيعة الأكل، لأنّه لم يكن يعتقد أنّ ثمّة شيئاً آخر للأكل في المنزل، ولأنّه لم يكن يرى في صحن الخضروات المسلوقة ذاك أيّ شيء آخر غير أكل جيّد أعدّته له زوجته.

لكنّ الأمر كان مختلفاً تماماً بالنّسبة لجان النَّحيل، الّذي سبق له أن شاهد السّمكة والدّيك الرّومي المشويّ والفطيرة والحلويّات والكعكات والقشدة، والّذي يعلم أنّه يكفي فتح باب الفرن كي يتمّ العثور على كلّ ذلك.

كان جان النَّحيل قد حشر تحت المائدة الكيسَ الّذي يحوي جلد

فرسه، والّذي هو ذاهب إلى المدينة كي يبيعه. كان يضع ساقه على الكيس. وبما أنّ طبق الخضروات المسلوقة في الماء لم يكن يروق له البتة، وبما أنّه كان يفكّر في وسيلة يستطيع بها أن يخرج من الفرن كلّ تلك اللّذائِذ الموجودة بداخله، فإنّه قد ضغط بطريقة آليّة على الكيس بقدمه.

أحدث الكيس صوتاً.

- ششششت! قال المزارع.

- ماذا؟ سأل جان النَّحيل.

ساد الصّمت من جديد.

ضغط جان النَّحيل ثانية على الكيس برجله.

أحدث الكيس الصّوت نفسه، وكأنّه يئن.

انتبه المزارع إلى مصدر الصّوت.

- ما الذي تضعه في هذا الكيس؟ سأل المزارعُ جان النَّحيل.

- أوه! لا تهتمّ بذلك، قال جان النَّحيل. لديّ فيه ساحر.

- ساحر؟

- نعم.

- كيف، ساحر؟

- ساحر.

- لديك ساحر داخل الكيس؟

- ولم لا؟

- وهو الذي يئن مشتكياً.

- هو الذي يحادثني.

- وماذا يقول لك؟

- يقول لي بلغته الخاصّة أن لا آكل هذه الخضروات الفظيعة غير المصحوبة بسمنٍ ولا بشحمٍ، ويؤكد لي أنّه قد وَضَعَ في الفرن مأكولات طيّبة من أجل عشائنا.

- عجباً! قال المزارع، إنْ كان ما يقوله ساحرك حقيقياً، فإنّه سيكون رجلاً شهماً.

- اذهب لترى بنفسك.

- وإن كان يكذب؟

- إن كان يكذب، فإنّ كذبه لن يكلّفك عناءً كثيراً، لكنّ ساحري لا يكذب أبداً.

كان جان النَّحيل يتحدّث بثقة كبيرة، إلى درجة أنّ المزارع اقتنع بكلامه فتوجّه رأساً نحو الفرن.

- أطفالي الصّغار، قال جيرار، دقّت الساعة التاسعة، وأمُّكم تشير عليّ بأنّ ساعة نومكم قد أزفت.

- أوه! واصل، واصل، قال الطّفلان.

- غداً، إن قمتم بعملكم خير قيام، وإن أجدتم القراءة والكتابة، وإن أنجزتم واجباتكم، سنواصل الحكاية من حيث توقّفنا هذا المساء.

بعد ذلك، رفض جيرار أن ينصت لأيّ كلام، فوضع كفّ الطفل بول في كفّ أمّه، ثمّ نُودي على الخادمة كي تشرف على نوم الطّفلين.

وافق الطّفلان على الذّهاب إلى غرفتهما، لكنّهما لم يفعلا ذلك إلاّ بعد أن وضعا شرطهما العاجل بأن يستمعا في اليوم التالي لبقية حكاية جان

النَّحيل وجان السَّمين.

وعدَهما جيرار بأن يواصل غداً رواية الحكاية، واضعاً أصابعه على شفتيه ثمّ على جبينه، وهو ما يعدّ بالنسبة للأطفال التزاماً أقوى من أيّ التزام مكتوب.

الأمسية الثانية

في اليوم التّالي، وفي الموعد نفسه، واصل جيرار رواية الحكاية:

- توجّه المزارع رأساً إلى الفرن، وسحب غطاءه فوقف مندهشاً؛ ذلك أنّه عثر فيه على كلّ المأكولات واللّذائذ التي كانت زوجته قد خبأتها فيه.

أمّا المرأة، فلم تقوَ على أن تنبس ببنت شفة، وسارعت بأن وضعت على المائدة كلّ تلك الأشياء الطيّبة الّتي كانت في جوف الفرن، والتي شرع الآكلان في التهامها بشهيّة عالية.

كان أمراً كئيباً أن يأكلا كلّ ذلك الطّعام اللّذيذ مصحوباً بشراب سيّئ.

آنذاك وضع جان النَّحيل ساقه على الكيس، من جديد، ومن جديد أحدث الكيس صوتاً.

- طيّب، ماذا دهى كيسك من جديد، سأل المزارع، سعيداً بوجبته الباذخة التي لم تكلّفه شيئاً من ماله.

- كلّ ما في الأمر أنّ هذا السّاحر الشّهم يأبى أن يلتزم الصّمت.

- ولماذا تريده أن يلتزم الصّمت، ما دام لا يقول إلاّ أشياء طيّبة؟

تَشَجّع السّاحر، فأحدث صوته من جديد.

- ماذا يقول؟ سأل المزارع الذي لا يفهم شيئاً من تلك اللّغة.

- هو يخبرني، قال جان النَّحيل، بأنّه قد خبّأ في ركنٍ من الفرن مشروبات لذيذة كي نتناولها مع السّمك ومع الدّيك الرّومي المشويّ والحلويّات والكعكات والقشدة.

- اذهبي يا امرأة وانظري حيث قال، أمرَ المزارع مبتهجاً.

وجدت المرأة نفسها مضطرّة كي تذهب للبحث حيث أشار فأتت بالمشروبات وشرعت تصبّ للآكلَيْن. فشعرَ المزارع بالانشراح حتّى لقد أبدى رغبته في أن يمتلك بدوره ساحراً مثل السّاحر الموجود في الكيس.

- وهل يمكن لساحرِكَ أن يُظهر الشّيطان؟ سأل المزارع مرافقه على المائدة.

- آه، قال جان النَّحيل، أنت تطلب الكثير.

- سَلْه إن كان يستطيع. هيّا! قال المزارع ملحّاً.

- وأنت، ألن تخاف من رؤية الشّيطان؟

- أنا؟ ماذا تقول؟ أنا عندما أكون قد أكلتُ وشربتُ لا أعود أخشى شيئاً. قل، هل يمكن لساحرك أن يُظهر الشّيطان؟

- نعم، ساحري يستطيع أن يفعل أيّ شيء أريده. أليس كذلك؟ سأل جان النَّحيل وهو ينظر تحت المائدة، ضاغطاً بقدمه على الكيس، ممّا جعله يطلق صوته من جديد.

- بماذا أجابك؟ سأل المزارع في قمّة التوتر.

- ألم تسمع ما قاله؟

- بلى، لكنّني لم أفهم قصده.

- آه صحيح! صحيح! لقد أجاب بأنّ ذلك هو أسهل ما يستطيع القيّام به.

- هيّا إذن، وبسرعة.

- الشّيطان دميم للغاية، يا صاحبي، ممّا يجعلنا نُحسن صنعاً بأن نتفادى النظّر إليه.

- طيّب، لكنّني لست امرأة حاملاً تخشى على حملها من أن يتأثّر بما تراه.

- لا يهمّ، لا يهمّ. لكن هل هناك شيء أو شخص تكرهه أكثر ممّا تكره أيّ شيء آخر في الوجود؟

- نعم. أنا أكره خدَم الكنائس عامّة، وخادمَ كنيسة قريتنا على وجه الخصوص.

والحال أن خادم كنيسة نييدربرون هو الذي كان مختبئاً في الصندوق، كما سبق لنا أن رأينا.

- إذن، فإن الشّيطان سيتجسّد لك في شكل خادم كنيسة نييدربرون.

- ليَكنْ، لكن عليه أن لا يقترب منّي كثيراً، وإلاّ فإنّني لن أستطيع التّحكم بنفسي.

- حسناً! في هذه الحال اطلبْ من زوجتك أن تذهب لتزيح غطاء

الصّندوق.

- كلودين؟ هي لن تجرؤ على القيّام بذلك أبداً، أليس كذلك يا كلودين؟

- أوه! أجل، قالت كلودين وأسنانها تصطكّ ببعضها البعض.

- إذن، سأقوم أنا نفسي بذلك، قال جان النحيل.

- لا ترفع الغطاء كثيراً، حتّى لا يفرّ.

- أوه! اطمئن.

مدّ المزارع عنقه؛ أمّا زوجته، الملتصقة بأريكتها، فكان من يراها يظنّ أنّها آيلة إلى السقوط، من فرط شحوبها ومن قوّة ارتعاش ركبتيها.

رفع جان النَّحيل غطاء الصّندوق.

- هيه! انظرا، قال، أليس هذا الشيطانُ يشبه تمام الشّبه خادم كنيسة نييدربرون؟

- أوه! قال المزارع. إنّه لأمر مُريع!

لم يحاول الشّيطان البتّة أن يخرج من الصّندوق؛ ظلّ ملتصقاً ومتشبّثاً بقعره.

فتركَ جان النَّحيل الغطاءَ يسقط من جديد.

ثمّ شربَ الصّديقان من جديدٍ وهما يتجاذبان أطراف الحديث عن علاقة خادم الكنيسة بالشّيطان وعن علاقة الشّيطان بخادمِ الكنيسة.

- هما متساويان، قال المزارع لجان النَّحيل، وعليك أن تبيعني ساحرك.

- أوه! ذاك أمر مستحيل، قال جان النَّحيل. انظر إلى الأهميّة

العظمى التي يشكلها بالنسبة إليّ.

- اطلب مني، مقابل الكيس الذي يحوي السّاحر، كلَّ ما تشاء.

ثمّ بصوت منخفض:

- أنا رجل غنيّ؛ أنا أكثر غنىً ممّا يتصوّرون.

- أجل، لكنّني إن بعتكَ ساحري، قال جان النَّحيل، فسأصبح على الفور من الفقراء.

- وماذا لو أدّيت لك ثمناً تصبح بفضله غنيّاً؟ اسمع، سأسلّمك صاعاً كاملاً مملوءاً بالمال.

- اسمعْ، قال جان النَّحيل، بما أنّك عاملتني معاملة حسنة، وبما أنك آويتني بعد أن وجدتني نائماً في العراء، فسأقوم بما لا يمكنني أن أقوم به مع أيّ أحدٍ غيرك، سأسلّمك إيّاه. ستحصل على ساحري مقابل صاع من المال، مملوء عن آخره.

- أنا موافق.

- لكن انتظر.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أحصل على هذا الصّندوق، مع الصّاع المترع مالاً.

- بكلّ فرح، فلا شكّ أن الشّيطان ما يزال بداخله.

- اذهب لترى.

- أوه! من فضلك لا، يكفيني ما رأيت، فهو شديد الدّمامة.

بعد ذلك، سلم المزارع لجان النَّحيل صاعاً مملوءاً بالمال عن آخره، فسلّمه جان جلدَ الفرس الموجود بداخل الكيس.

ومن فرح المزارع بالصّفقة التي أجراها مع جان النَّحيل، قام بإعارة هذا الأخير عربة وحصانين كي يحمل نقوده مع الصّندوق.

- وداعاً، نيكولا، قال جان النَّحيل.

فانطلق بالعربة وبالحصانين وبالمال وبالصّندوق الّذي كان خادم الكنيسة ما يزال بداخله.

كان يوجد عند مخرج الغابة نهر شاسع وعميق؛ وعندما وصل جان النَّحيل أمام النّهر قال بصوت مرتفع:

- لقد أخطأت، في الحقيقة، عندما طلبت من نيكولا تسليمي هذا الصّندوق القديم. فهو لا يصلح لأيّ شيء، ورغم أنّه فارغ تماماً فإنّ حمله ثقيل جداً وكأنّه مملوء بالحجارة. سأرمي به إلى الماء؛ فإن بقي طافياً على صفحة النّهر واستطاع الوصول إلى بيتي فهو ذاكَ، أمّا إن غرق في النّهر، فليكنْ! الأمران عندي سيّان.

ثمّ أمسك بالصّندوق بيد واحدة، وشرع يتظاهر برفعه وكأنّه سيقذف به إلى الماء.

- لكنْ ماذا عن خادم الكنيسة، خادم الكنيسة! صاح الطّفلان، مُبْدِيَيْن بهذه المقاطعة مدى اهتمامهما بحكي جيرار.

- تماماً، تماماً، قال جيرار. كان جان النَّحيل يتصرّف بتلك الطّريقة خبثاً منه؛ كان يريد أن يرعب خادم الكنيسة.

وبالفعل، فقد استولى على خادم الكنيسة خوف شديد؛ خوفٌ كان من القوّة بحيث شرع يصرخ:

- توقّفْ، توقّفْ يا جان النَّحيل. انتظرْ قليلاً. تبّاً لك، اتركني

أخرج قبل أن تقذف بالصّندوق إلى النّهر.

- أوه! هذا جيّد، قال جان النَّحيل وهو يجلس على الصّندوق. ما دام الشّيطان ما يزال بداخل الصّندوق، فلنُغرقه، وستنتهي من على الأرض كلُّ الشُّرور.

- أنا لست شيطاناً، قال السّجين الشّقيّ صارخاً، أنا خادم كنيسة نيبدربرون. لا تغرقني يا جان النَّحيل وسأسلّمك صاعاً مترعاً مالاً.

- اكتب لي التزاماً بذلك، قال جان النَّحيل وهو يمرّر له ورقة وقلماً عبر قفل الصّندوق.

بعد خمس دقائق من ذلك، خرجت الورقة بالطّريقة نفسها التي ولجت بها الصّندوق.

- خذ، قال خادم الكنيسة.

شرع جان النَّحيل يقرأ:

- أُقرّ بأنّني مدين لجان النَّحيل بصاع مملوء مالاً.

- لقد نسيت أن تضيف «مترع عن آخره»، قال جان النَّحيل.

- أنا ألتزم بذلك، ألتزم به، قال خادم الكنيسة.

- صاع، إذن، مترع عن آخره بالمال؟

- أجل.

- سأقوم بوزنِه، ما إن أتلقّاه سالماً في منزلي.

تضمنّت الورقة تأريخ اليوم، وتحت التّأريخ التوقيع؛ كانت الورقة إذن مضبوطة.

فتح جان النَّحيل الصّندوق، فقفز خادم الكنيسة على الفور إلى

خارجه، وألقيا بالصّندوق معاً إلى النّهر.

عندما أدركت العربة الشاطئ المقابل، أصبحت الطّريق تمتدّ مباشرةً إلى غاية قرية نييدربرون.

أنزل جان النَّحيل خادم الكنيسة أمام باب منزله، ونزل هو بدَوره.

كالَ له خادم الكنيسة صاع المال المترع.

آنذاك عقد جان النَّحيل كُمَّيْ سترته ووضع فيها صاعيْ المال.

ثمّ عاد إلى بيته.

– حمداً لله! ها أنذا قد حصلت على ثمن مرتفع مقابل فرسي.

بعد ذلك أفرغ المال وسط الغرفة.

– سيؤدّي هذا إلى أن يصاب جان السَّمين بالكآبة، قال جان النَّحيل. وسيعلم أنّه قد أسدى لي خدمة جليلة بقتله فرسي. لكن، يبدو أن النّذلين المزارعَ وخادم الكنيسة كانا شحيحين أثناء ملئهما للصّاعين.

بعد ذلك نادى على طفل صغير، وأرسله إلى جان السَّمين، ليطلب منه تسليمه صاعاً فارغاً يقيس به.

– ما الذي يريد جان النَّحيل أن يَزِنَه حتّى يرسل إلي هذا الطّفل طالباً أن أعيره صاعي؟ تساءل جان السَّمين.

وكي يعرف ما الذي يريد جان النَّحيل قياسه، عمدَ إلى طلاء عمق صاعه بالقطران، حتّى يبقى ملتصقاً به بعضُ الفتات ممّا سيقيسه جان النَّحيل.

حصل الأمر تماماً كما توقّع جان السَّمين. فجان النَّحيل، الّذي لم يفكِّر بأنّ ثمّة مكراً في عملية الطّلاء، أو ربّما فكّر بذلك فعلاً، ولم يرَ مع

ذلك غضاضة في أن يُطلع جان السَّمين على ثروته الجديدة، قد أغفل النّظر في قعر الصّاع حيث التصقت ثلاث قطع نقدية جديدة من فئة ثمانية قروش لاحَظَها جان السّمين حال استعادته صاعَه.

- أوه! أوه! ما هذا؟ هل يكون جان النَّحيل قد أصبح غنيّاً إلى درجة أنْ يزن ماله بالصّاع؟ هتفَ جان السّمين، ثمّ سارع بالتّوجه إلى بيت جان النَّحيل.

كان المال ما يزال منثوراً على الأرض.

- لكن، من أين حصلت على كلّ هذا المال؟ قال جان السَّمين منذهلاً.

- إنّه ثمن جِلد حصاني الذي بعته مساء أمس، أجاب جان النَّحيل.

- أتقول صدقاً؟

- نعم، تلك هي الحقيقة!

ولم يكن جان النَّحيل يكذب. فصحيح أنّ الأمر يتعلق بمال خادم الكنيسة مختلطاً بمال المزارع، لكنّ الأمر يتعلّق، فعلاً، بالمال الذي حصل عليه من جِلد الحصان.

- يبدو أنّهم قد سدّدوا لك ثمناً غاليّاً مقابل جلد فرسك.

- جلود الأحصنة لا تقدّر بثمن. ما أجَلَّ الخدمة التي قدمتها إليّ بقتلك حصاني! لم تكن الدّابة تساوي، صدّقني، عشرة ريالات، وهي حيّة، ثمّ أصبح ثمنها، بعد أن قُتلت، أكثر من ثلاثة آلاف.

- ولمن بعتَ الجلد؟

- للمزارع الذي يسكن على مشارف الغابة. وإن كان لك شيء

تريد بيعه، فاسأل عن نيكولا.

- نعم، أجاب جان السَّمين، لديّ بالفعل شيءٌ أريد أن أبيعه إيّاه.

- أوه! قال جان النَّحيل، كم هي الفرصةُ مؤاتية! لقد أعارني عربته وفرَسَيْه، بالإضافة إلى اشترائه جِلدَ فرَسي. أنت تملك كلأً وعلفاً يمتلئ به مخزنك، فلتُطعِم الفرَسين، ثمّ فلْتَقُدِ العربةَ والحصانين لتسلّمهما لنيكولا، وكن متأكداً من أنّه سيُجازيك على ذلك.

- طيّب، قال جان السَّمين.

ثمّ أخذ العربة.

عندما وصل إلى منزله، أمسك بساطور وتوجّه رأساً إلى إسطبله، فقتل أحصنته الأربعة، ثمّ سلخها ووضع جلودها في الشّمس لتجفّ. وعندما جفّت وضعها في العربة وأخذ طريق المدينة.

صادف ذلك اليوم موعدَ السّوق.

- جلود أحصنة للبيع، جلود أحصنة للبيع، شرع جان السَّمين يصيح.

سارع نحوه الإسكافيّون والدّبّاغون.

- بكم الجلود؟ سألوه.

- صاعان من المال، مملوءان عن آخرهما، أجاب جان السَّمين.

اعتقدوا في البداية أنّ جان السَّمين لم يكن واعياً ما يقول.

لكن، وبما أنّه كان ثابتاً بشكل جيّد على قدميه، وصوته واضح لا تخالجه رعشة، تأكّدوا من أنّه كان جادّاً في ما يقول.

- هل أنت أحمق؟ قال له الإسكافيّون والدبّاغون، وهل تعتقد أنّنا

نملك نقوداً إلى درجة أن نَزِنَها بالصّاع؟

- جلود أحصنة للبيع، جلود أحصنة للبيع، واصل جان السَّمين.

كما استمرّ في إجابة كلّ من يسأله عن ثمن الجلود، قائلاً:

- صاعان مملوءان عن آخرهما بالمال، عن كلّ قطعة.

- هو يريد أن يستهزئ بنا، قال الدبّاغون.

- وبنا أيضاً، قال الإسكافيّون.

آنذاك أمسك الدبّاغون بِوزْراتهم الجلديّة، وأخذ الإسكافيّون أدواتهم، وشرعوا يكيلون ضربات قوية لجان السَّمين.

بدأ جان السَّمين يستغيث.

ومن بين الفضوليّين الذين أتوا مسرعين كي يروا ما الذي يحدث، أقبل المزارع نيكولا.

تعرّف من بين كلّ ما كان موجوداً أمامه على عربته وفرسيْه.

آنذاك تذكر أنّه كان مغفّلاً، احتال عليه من أعاره هوَ عربته وفرَسَيه:

- آه، أيّها الصّعلوك! آه أيّها النّذل! آه أيّها المحتال!

ثمّ هوى بدوره بضربات قوية، من قبضة سوطه، على جان السَّمين.

عمد جان السَّمين، من فرط قوة الضّربات التي كان يتلقّاها إلى ترك فرَسي نيكولا وعربته، مع قِطع الجلود الأربع، وفرّ خارج المدينة مطلقاً ساقيه للرّيح، لكنّه لم يستطع أن يعدو بكلّ سرعته، لأن جسده كان منهكاً من كثرة ما تلقّى من ضربات.

- الويل لك! ستؤدي الثمن غالياً يا جان النَّحيل على ما سبّبتَه لي. أُقسم لك.

أزفت السّاعة. كانت تمام التّاسعة.

- حان وقت نومكم أيّها الأطفال، قال جيرار.

- أوه! قال الطّفلان. نحن نريد أن نعرف إن كان جان السَّمين قد قتل جان النَّحيل.

- ستعرفون ذلك غداً، أيها العزيزان، لكن الآن، حان وقت نومكما.

ثمّ أمسكت الخادمة بالطّفلين وذهبت بهما إلى غرفتهما ليناما، وهما في حالة بين الضّحك والبكاء.

الأمسية الثالثة

واصل جيرار، في اليوم التّالي، وفي الوقت المعتاد، رواية حكايته:

- أنتما تتذكران، أيّها العزيزان، أنّ جان السَّمين، عندما وصل إلى بيته، كان يصيح:

- ستؤدّي الثمن غالياً يا جان النَّحيل على ما سبّبتَه لي. أُقسم لك.

- أجل، أجل، قال الطّفلان، وهما يرتعشان خوفاً من أن يقتل جان السَّمين بالفعل جان النَّحيل.

- إذن، يا طفليَّ العزيزين، واصل جيرار، فاعلَما أنّ جان السّمين حمل أكبر كيس استطاع أن يحصل عليه في بيته، ثمّ توجّه إلى بيت جان النَّحيل.

- حسناً! لقد استهزأت بي أيّها الغبيّ! استهزأتَ بي عندما جعلتَني أقتل أحصنتي الأربعة، والآن أنا مُمسِكٌ بكَ، ولن تعود إلى الإيقاع بي أبداً.

تحيّنَ جان السَّمين الفرصة، وفي لحظةِ غفلةٍ من جان النَّحيل، رمى بالكيس على رأسه، ثمّ سحبَه على جسده كلّه وعقد طرفه وحمله على ظهره وهو يصيح قائلاً:

- والآن ستسلّم روحَك إلى بارئها، لأنّني سألقي بك في النّهر.

أحسّ جان النَّحيل بخطورة الموقف، لأنّه منذ البداية علمَ أنّ جان السَّمين، عندما وضعه داخل الكيس، لم يفعل ذلك كي يمزح معه.

بعيداً عن منزل جان النَّحيل، كان نهر. توجّه جان السّمين نحو ذلك النهر، وهو يحمل الكيس على كتفيه. كان جان النّحيل، خلافاً للقبه، ثقيلاً جدّاً. مرّ جان السّمين، في طريقه نحو النّهر، بكنيسة؛ فقرّر أن يتوقّف كي يستريح. لذلك وضع الكيس قرب الباب الخارجيّ ودخل الكنيسة.

كان فعله المتهوّر ذاك ناتجاً عن عِلمه باستحالة قدرة جان النَّحيل على الخروج من الكيس، وعن كون المكان الذي وضع فيه حمْلَه لا يمرّ منه كثير من الناس.

- يا للأسف! يا للأسف! قال جان النَّحيل متنهّداً، وهو يتقلّب داخل الكيس.

لكنّه ظلّ يكرّر عبارة «يا للأسف!» دون أن يستطيع فكّ عقدة طرف الكيس.

صادف أن مرّ قرب المكان رجل يقود قطيعَ دوابّ. كان هذا الرّجل المتقدّم في السّن يهوى الصّيد. وقد قضى مرحلة شبابه بطريقة عاصفة للغاية. يقولون إنّ مهنته الأولى كانت هي الكُمُون في الأماكن الأكثر

كثافة والأكثر انزواءً من الغابة الكثيفة. أمّا عن سبب كمونه وقيامه بالرّصد، فإن الرّواة يختلفون: يقول البعض منهم إنّ غايته كانت هي صيد الأيائل والخنازير البرّية ونوعٍ معيّنٍ من الطّيور؛ أمّا آخرون فيقولون، على العكس من ذلك، إنّه كان يهاجم كلَّ ما يمرُّ أمامه، من دوابّ وإنسان، وإنّه كان يأخذ من الدّواب جلودها ومن النّاس أمتعتهم.

في الختام أدرك مرحلة من عمره قرّر خلالها أن يصبح بائع مواشٍ. لكن، مهما كانت مهنته الجديدة شريفة، فإنّه كان بإمكان أيّ شخص أن يلاحظ أنّ الرّجل كان يئنّ تحت عبء تأنيب ضميره، وأنّه كان كلّما ازداد تقدّماً في السّن، ازداد ذلك العبء ثقلاً.

والحال أنّ الثيران التي كان يقودها الرّجل اصطدمت بالكيس الذي كان جان النَّحيل يقبع في داخله، فأوقعتْه.

- يا للأسف! يا للأسف! قال جان النَّحيل، وهو يعتقد أنّ لحظة موته قد أزفت، أنا ما زلت في ريعان شبابي، وما يزال الوقت باكراً بالنسبة إليَّ كي أصعد إلى ملكوت السّموات!

- أمّا أنا، قال تاجر المواشي، فرغم أنّني بائس، فإنّني قد أصبحتُ من الكبر بحيث يبدو لي أنّني لن ألج ملكوت السّموات أبداً.

- كائناً مَنْ كنت، صاح جان النَّحيل، افتح الكيس وخذ مكاني، وفي غضون ربع ساعة، أضمن لك أنّك ستحقّق المبتغى؛ أنا أضمن لك أن تدخل ملكوت السّموات!

- آه لو كان بإمكاني أن أصدّقك، قال صاحب الدّواب.

- أنا أعدك بشرفي، قال المحبُوس، بنبرٍ تائبٍ لا يريد أن يترك شكّاً لدى سامعه.

فكَّ تاجر المواشي عقدة الكيس وساعد جان النَّحيل على مغادرته، ثمّ أخذ مكانه وهو يترجّاه أن يحكم العقدة فوق رأسه حتّى لا يستطيع أحد أن ينتبه إلى ذلك التّبادل الذي حصل بينهما.

عقد جان النَّحيل الكيس عقدة ضخمة ومحكمة.

- اعتنِ بالدّواب، صاح العجوز من داخل الكيس.

- كن مطمئنّاً، أجاب جان النَّحيل. ثمّ قاد القطيع أمامه.

وبمجرّد أن تجاوز جان النَّحيل زاوية الطريق، خرج جان السَّمين من الكنيسة فوضع الكيس على كتفيه. لم يكن وزن العجوز الجافّ يتجاوز البتّة ثلث وزن جان النَّحيل.

لكنّ جان السَّمين اعتقد أنّ توقّفه في الكنيسة هو ما جعله يسترجع قواه، فلم يشعر بثقل الحِمل.

بعد ذلك أخذ طريقه إلى النّهر رأساً، فاختار مكاناً رحْباً وعميقاً وقذف بالكيس الذي يوجد بداخله صاحب المواشي، وهو يصيح معتقِداً دائماً أنّه يخاطب جان النَّحيل:

- هذه المرّة، انتهى أمرك ولن تعود للنّيل منّي أبداً.

عندئذ أخذ طريق العودة إلى بيته، سالكاً طريقاً مختصراً يختزل المسافة بحوالي فرسخ كامل.

نتج عن ذلك أنّه رأى فجأةً، أمامه، جان النَّحيل الذي اضطرّ إلى انتهاج الطريق الرّئيس بسبب ضخامة القطيع، وهو يقود أمامه ثيرانه

وبقراته وأغنامه.

- ما الذي يعنيه هذا، صاح جان السَّمين، مندهشاً، ألم يسبق لي أن أغرقتك في النّهر؟

- بلى، لقد قذفتَ بي بالفعل في النّهر، هذا صحيح، لكن...

- لكن ماذا؟

- لكنّني بمجرّد أن لمست قعر النّهر، انفكّت العقدة، فوجدت نفسي في أروع مرْج في العالم.

- أوه! صاح جان السَّمين.

- ليس هذا كلَّ شيء، قال جان النَّحيل. فقد أمسكتْ بي من كفّي حوريّة بحرٍ وهي ترتدي لباساً أزرق وتضع على رأسها إكليلاً من الزّهور، وساعدتني على الخروج من الكيس. «هل أنت جان النَّحيل؟»، سألتْني؟، فأجبتُها: «نعم، أيّتها الآنسة، لكن اعذريني، من تكون سيادتكم؟»، فأجابت: «أنا إحدى بنات ملك الميّاه، وقد كلّفني أبي بأن أسلّمك هذا القطيع الجميل الذي يرعى مطمئنّاً هناك في قاع النّهر». نظرتُ حولي، فلم أرَ القطيع الذي أهدتني إياه ابنة ملك المياه فحسب، وإنما رأيت أيضاً أموراً أخرى كثيرة، بهرتْني بفتنتها.

- وما هي تلك الأمور؟

- في البداية رأيت أنّ قعر النّهر هو عبارة عن طريق شاسع يسافر عبره شَعْب النّهر الذي يتوجّه نحو البحر، وشَعب البحر الذي يولي وجهه شطر النّهر. لم نكن نرى سوى ذاهبين ومقبلين، راجلين وعلى صهوات بغالهم وعلى متون عرباتهم. وكانت تقوم على جانبَي الطّريق

أشجار وزهور؛ كان الذّاهبون والمقبلون يمشون على نبات تتخلّله ورود زرقاء صغيرة؛ وكانت الأسماك من كلّ الألوان - الفضيّة المذهبة، والحمراء والزّرقاء - تسبح في الماء، وهي تقوم بانزلاقات بارعة كما تفعل الطيّور في الأجواء. آه يا جان السَّمين! أنت لا تستطيع أن تتصوّر مقدار جمال ذلك الشّعب المتفرّد وتلك القطعان الزّاهية.

- لكن، إن كان كلّ شيء في النّهر بهذا الجمال الذي تتحدّث عنه، فلماذا عدتَ ولم تمكثْ هناك؟

- انتظرْ، قال جان النَّحيل، إنّ ما انصبّ عليه اهتمامي، هو خصوصاً ابنة ملك الميّاه. إذن، وبما أنّها أبدت نحوي كلّ ذلك القدر من الطّيبة، فإنّني سألتُها إن كان بإمكانها أن تصبح زوجة لي. أجابتني بأنّها تقبل بكلّ فرح أن تصبح زوجة لي، لكن، وبما أنّ أمّي وأبي ما يزالان على قيد الحياة، فهي تشترط إذنَهما قبل الزواج. كان ما قالته كلاماً معقولاً يستحقّ أن يُؤْخَذ بعين الاعتبار؛ لذلك أجبتُها بأنّني سأذهب لأطلب إذن أبويّ، فأجابتني: «إذن، وكي يصدّقك أبواك، خذ لهما هذا القطيع وقل لهما بأنّ هذه هديّة من زوجة ابنهما». آنذاك اقتدتُ القطيع متوجّهاً به إلى أبويَّ، وكي أبحث عن أوراقي للزّواج بابنة ملك المياه. لا تؤخّرني إذَن يا جان السَّمين، فعليك أن تعلم بأنّني في غاية الاستعجال. يكفي أن يُلقى فتىً أجمل منّي في النّهر لتقع ابنة ملك المياه في حبّه وتقبل بالزّواج منه. وسأخسر بذلك زفافاً جميلاً، أتفهم؟ لكن بإمكاني أيضاً أن أتّخذ زوجة لي إحدى أخواتها.

- هي لها أخوات إذن؟

- ثمانٍ؛ فهنّ في المجموع تسع أخوات على ما يبدو.

- أنت يا جان النَّحيل رجل سعيد؛ فقد وُلدتَ مباركاً، قال جان السَّمين.

تنحنح جان النَّحيل دون أن يجيب.

- هيه! قال جان السَّمين، وإنْ أُلقي بي أنا في النهر، أفتعتقد أنّ بإمكاني أن أتزوّج إحدى بنات ملك الماء؟

- أوه! أنا لا أشكّ في ذلك، قال جان النَّحيل، ما دمتَ فتىً أجمل منّي.

- إذن، فلْتُسْدِ لي خدمةً يا جان النَّحيل.

- أنا مستعدّ لخدمتك.

- بما أنّني أتقن السّباحة، فإنّني إن قفزت في الماء لوحدي، لن أستطيع، على ما أعتقد، الوصول إلى عمق النّهر.

- آه! هذا ممكن.

- ضعني إذن في كيس واقذف بي إلى النّهر.

- بكلّ فرح، لكنّك ثقيل جدّاً. أنا لن أستطيع حملك إلى غاية النّهر كما تكرّمتَ أنتَ وفعلتَ، عندما حملتَني وألقيتَ بي.

- نذهب راجليْن حتّى نصل إلى الجسر.

- لكنّ ذلك من شأنه أن يؤخّرني عن مهمّتي، قال جان النَّحيل، وهو يتظاهر بالتردّد.

- هذا صحيح، لكنّك ستكون قد أسديتَ خدمة لِصديق.

- هذا صحيح أيضاً، قال جان النَّحيل، وهذا يجعلني أقرّر القيام بما

طلبتَه منّي. أوه! لكن انتظرْ قليلاً.

- ماذا؟

- عندما ألقي بك في النّهر، لا تذهب لتوقعَ في حبّك ابنة ملك المياه التي أحببتُها أنا.

- قل لي إذن ما اسمها.

- هي تسمّى كورالين.

- إذن كن مطمئناً.

- كلمة شرف؟

- كلمة شرف.

- في هذه الحال، هيّا بنا، لكن لنقم بذلك بسرعة.

- لن أؤخّرك عن مسعاك أبداً، أجاب جان السَّمين وهو يحثّ الخطى نحو الجسر.

لكن، عندما وصلا إلى الجسر، قال جان النَّحيل:

- لكنّ هذا مستحيل.

- لماذا مستحيل؟

- لأنّني تركت الكيس في قعر النّهر، وبما أنّك تجيد السّباحة فإنك لن تصل أبداً إلى القعر، والحال أنّ هذا القعر تحديداً هو ما عليك أن تصل إليه كي تلتقي بابنة ملك المياه.

- هناك وسيلة أخرى، قال جان السَّمين.

- أية وسيلة؟

- تربط صخرة ثقيلة إلى عنقي.

- نعم، لكنّ يديك ستكونان طليقتين، وستحاول إزالة الصّخرة. أعتقد أنّ من الأحسن العودة إلى البيت والبحث عن كيس.

- تبّاً! إن ما تقوله صحيح، بالفعل.

ثمّ قال بعد لحظة:

- اسمعْ، قيّدْ يدي خلف ظهري.

- هذا صحيح، قال جان النَّحيل.

- وستحرّر لي يديَّ ابنةُ ملك المياه.

- آه! قال جان النَّحيل وهو يحرّك رأسه متنهّداً، أنتَ في الحقيقة أذكى منّي يا جان السَّمين.

- هذه الفكرة كانت تراودني دائماً، قال جان السَّمين وهو يبتسم ابتسامة غرور. هيّا، هيّا، كبّلْ يديّ خلف ظهري واربطْ صخرة ثقيلة إلى عنقي.

- أنت الذي ترجوني أن أقوم بذلك، أليس كذلك؟

- أنا مؤمن تماماً بأنّني أنا من يطلب منك القيام بذلك.

- ولن تحاول إيقاع كورالين في حبّك؟

- سأعمل على تفادي ذلك، قال جان السَّمين، مُرفقاً كلامه ببسمة استهزاء.

- إذن، وما دام ما تطلبه منّي يناسبك، يا جان السَّمين المسكين، فإنّني لن أرفض لك أيّ طلب.

بعد ذلك قام بتقييد يديه خلف ظهره وربطَ إلى عنقه صخرةً ثقيلة. وعندما انتهى من ذلك، قام جان السَّمين من تلقاء نفسه بالصّعود فوق

حاجز الجسر.

- والآن، ادفعْ بي إلى النّهر، قال جان السَّمين.

- أنت تريد ذلك؟

- نعم.

- إذن رحلة سعيدة، قال جان النَّحيل.

ثمّ دفع بجان السَّمين الذي سقط في الماء وسط جلبة قويّة، فلم يظهر له أثر بعد ذلك، بسبب كفّيه المكبّلتين خلف ظهره والصّخرة الثقيلة المربوطة إلى عنقه.

أمّا جان النَّحيل، فقد عاد إلى بيته بقطيعه، فأصبح من الأغنياء، ولم يتزوّج من ابنة ملك المياه كورالين، وإنما من مارغريتا، أجمل فتيات القرية.

قال جيرار مخاطباً الطّفلين المنبهرَين:

- أمّا مغزى ما استمعتُما إليه، يا طفليّ الصّغيرين، فهو أن الشرّ يصيب من يريد القيام به.

والآن، اذهبا لتناما، يا صديقيّ الشابّين، ما دامت السّاعة التّاسعة قد أزفت.

وبما أن السّاعة كانت، بالفعل، تمام السّاعة التّاسعة، ومع انتهاء الحكاية، وعلى وعد الاستماع إلى حكاية أخرى في اليوم التّالي، توجّه الطّفلان إلى فراشهما دون تردّد.

مَلِك الخِلدان[1] وابنته

كانت توجد ببلاد هنغاريا قرية صغيرة جدّاً. ونظراً لصغرها، فإنّ اسمها لم يكن ماثلاً على خارطة البلاد. وكان يوجد عند مخرج هذه القرية كوخٌ تقطنه أرملة فقيرة برفقة ابنها.

كانت الأرملة تسمّى مادلين، أمّا ابنها فكان يسمّى جوزيف.

كانت كلُّ ثروتهما تتألَّف من حديقةٍ بأشجارٍ مثمرة، ومن حقلٍ يمتدّ على أطراف تلك الحديقة. كانا يشتغلان في الحديقة وفي الحقل بهمَّة، وكانا يحصلان على ما يعيشان به من بيع الثّمار والقمح. لم يكن المردود يوفِّر لهما إلاّ القليل، لكنّه لم يكن لأيٍّ منهما طموحٌ أكبر من ذلك القليل الذي خصّتهما به المشيئة الربَّانية.

كان جوزيف دائماً ابناً بارّاً بأمّه وتقيّاً؛ يُعِزّ أمّه ويهتمّ بها في شيخوختها؛ ولم يُعرف عنه أبداً أنّه قد تسبَّب لها بمشاكلَ تُذكَر.

---

(1) جمع «خُلْد» و«خَلَد»، ضرب من القواضم، تُعَدّ من الفئران، عمياء تولد بلا عيون، تعيش في أنفاق تحفرها تحت الأرض وتتغذّى من الحشرات وتتسبّب للمزروعات بأضرار كثيرة. تُجمَع بكلمة من غير لفظها على هيئة «مَناجذ»، إلاّ أنّ ابن منظور في مُعجَمه الشّهير **لسان العرب** يجمعها أيضاً على هيئة «خِلدان»، وهو ما عمِلنا به هنا.

وهكذا وصل، مع انصرام السّنين، إلى العشرين من عمره.

أضحى شابّاً وسيماً، يصل طوله إلى خمسة أقدام وأربع بوصات، شعره أشقرُ مجعَّد شبيه بخُصَل الشَّعر التي كان مُزَخرِفو الكتب في القرن السّادس عشر يضيفونها في رسومهم إلى الملائكة. كانت زرقة عينيه شبيهة بزرقة السّماء وأسنانه شديدة البياض. أمّا لون بشرته فكانت سُمرته تشي بطراوة الشّباب وعافيته.

كان دائماً سعيداً ومبتهجاً؛ فيكون يومَ الأحد، بعد صلاة ما بعد الزوال، أوّل من يلتحق بعازفي الكمنجات في انتظار أن يُعطوا انطلاقة الرّقصة؛ أمّا عندما يشرع بالرّقص، فإنّه لم يكن يغادر السّاحة إلاّ عندما يمرّر آخرُ عازفِ كمنجةٍ قوسَه، لآخر مرّة، على أوتارِ آلته.

أمّا خلال أيّام الأسبوع، فكان يصبح شخصاً آخر تماماً. لم تكن القرية تعرف شابّاً أكثر قدرة منه على العمل؛ فهو إمّا آخِذٌ في حرث حقله أو يفلَح حديقته أو يطعّم أشجاره أو يشذّب شجيرات الزّهور؛ ذلك أنّ جوزيف، بفضلِ طريقته في تدبير الوقت والفضاء، كان يملك وقتاً لكلّ شيء، ووسط أشجار الإجّاص وأشجار التّفاح، كان يُخصّص دائماً مكاناً للورود.

كانت أمّه تسعى باستمرارٍ لمساعدته؛ كانت تريد على الأقلّ أن تساعده على قلع الأعشاب من الممرّ أو من الحواشي، لكنّ جوزيف كان يشرع بالضّحك ويأخذ من يدها آلة قلع النّباتات وهو يقول:

– أمّاه، أنتِ عندما عانيتِ ووضعتِ طفلاً بديناً وطويلاً مثلي، فقد أراد الله أن تستريحي عندما يدرك هذا الطّفل العشرين من عمره.

وأنا الآن في العشرين من عمري، فاستريحي إذن. وإن كنت لا تريدين الابتعاد عنّي، فلْيكُن، اجلسي ها هنا، وستكون نظرتك مصدرَ تشجيعٍ لي.

كانت مادلين تجلس، وهي تنظر بحبٍّ إلى ابنها جوزيف، الذي يواصل عمله وهو يترنّم بأغاني جميلة تمجّد هنغاريا والملكة ماري تيريزا؛ ذلك أنّ جوزيف لم يكن ابناً بارّاً بأمّه وحسب، وإنما كان بارّاً بوطنه أيضاً.

بيد أنّ جوزيف، ذات يوم، وبطريقة مفاجئة، عِوَضَ أن يذهب إلى عمله صباحاً وهو يغنّي، وعوضَ أن يشرع بالعمل وهو يغنّي، وأن يعود إلى كوخه وهو يغنّي، وأن يأكل قطعة الخبز الجافّة السّوداء وهو يغنّي، عوضاً عن كلّ ذلك، كفّ عن الغناء، ثمّ ما عاد يذهب لشغله، ثمّ انقطع أخيراً عن الأكل.

كان يظلُّ لمدّة طويلة في الحديقة، لكنّه لم يكن يغادرها. أمّا محاولة جعله يدخل إلى الكوخ، فكانت أمراً شبه مستحيل.

كان أثناء اللّيل، بالخصوص، يمكث جالساً، لا يتحرّك، وهو يحلم تحت عريشة ملتصقة بالجدار كان هو نفسه قد أعدّها من شجرةٍ دالية. كان جوزيف قد أنشأ تلك العريشة كي يستظلّ بها أثناء عمله، كما أنّه كان يقرأ، في ظلّها، من كتاب صلواته، وهو الكتاب الوحيد الذي قرأه في حياته. كان يقوم بذلك كلّه أمام نظرات أمّه التي لا تغادره.

بدأت مادلين تتعقّب، أحياناً، ابنها جوزيف المسكين، ثمّ شرعت تراقبه باستمرار، إلى أن أصبحت مراقبتها له دائمة. كانت تترصّده

وهو يمشي في الحديقة، وتختفي خلف بعض الأشجار المثمرة الجميلة المكسوّة بالأوراق والمثقلة بالثّمار، فتراه يحلم، عيناه ثابتتان على الأرض كما لو كان ينتظر أن يخرج منها شيء ما.

آنذاك، لم تعد أمّه تتحمّل؛ بدأت تقترب منه، عيناها دامعتان وهي تسأله:

- وحقّ السماء، يا جوزيف العزيز، إن كنت مريضاً فلتُخبِرْ أمّك بذلك.

لكنّ جوزيف كان يحرّك رأسه ويفتعل ابتسامة ثمّ يجيب:

- لا، يا أمّاه، أنا في صحّة جيّدة.

لكنّه لم يكن يستطيع أن ينهي كلامه دون أن يصاحبه بتنهيدة.

وتلك التّنهيدة نفسها هي التي شجّعت مادلين على أن تسأل من جديد:

- لكن، إن لم تكن مريضاً يا ولدي، فإنّك على الأقلّ في حاجة إلى أمرٍ ما، فأنت لم تكن من قبل على هذه الحال. تكلّم، يا جوزيف العزيز، وسأقوم أنا بكلّ ما تريد، فأنا أريدك فقط أن تعود إلى ما كنت عليه من قبل من سعادة ومن انشراح.

- مستحيل، يا أمّاه، أجاب جوزيف، لقد انقضى انشراحي، وإلى الأبد. أمّا حبّكِ، فإنّه لن يستطيع، مهما يكن عظيماً، تمكيني ممّا أشتهي.

آنذاك، أخذت مادلين تبكي بمرارة، لأنّ حبّها لابنها جوزيف كان بلا حدود، وكانت مستعدّة لأن تضحّي بأيّ شيء تملكه قصد الحصول على ذلك الشّيء الذي كان هو يقول إنّ الحصول عليه مستحيل.

وأخيراً بدأت تترجّاه وتلتمس منه أن يخبرها بما يعاني منه قلبه، مُبدِيةً حزناً شديداً يفوق حزنه، ثمّ احتضنته وهي تقبّله، ممّا أدّى، في الأخير، إلى أن تخرج من فيه بضع كلمات بدا كما لو أنّها حطّمته تماماً بخروجها من بين شفتيه:

- أنا أُحبُّ يا أمّاه.

لكنّ مادلين، عندما سمعت تلك الكلمات، مسحت دموعها. جعَلتْ تنظر لابنها جوزيف بعينَي الأمّ، وهي تفكر في أنّه لا توجد في القرية فتاة واحدة لن تفرح إن طلب منها أن تتزوّجه.

- طيّب، إن لم يكن سبب حزنك إلاّ هذا، يا طفليَ العزيز، فأنت مخطئ أن تكون على هذه الحال. أخبرني فقط بتلك الفتاة السّعيدة التي تحبّها، وحتّى إن كانت بيرتا ابنة معلّم القرية أو مارغريتا ابنة القاضي، فإنّني سأذهب كي أطلبها من أبويْها.

- آه يا أمّاه، ليست ابنة معلّم القرية ولا ابنة القاضي. آه، لو كان الأمر يتعلق بمارغريتا أو بيرتا، لَمَا كنتُ على هذه الحال.

- أيّها الشّقي، قالت الأمّ المسكينة، لقد رفعت بصرك إذن إلى ما هو أعلى منك.

- للأسف، نعم، قال جوزيف.

- هل هي فتاة نبيلة، يا ولدي المسكين؟

- آه لو كان الأمر كذلك يا أمّاه!

- أتكون تحبّ بارونة؟

- أعلى، يا أمّاه.

- كونتيسة؟

- أعلى.

- دوقة؟

- أعلى، أعلى.

- أميرة؟

- أمّاه، صاح جوزيف، وهو يرتمي باكيّاً في أحضانها. أمّاه، أنا أُحبُّ ابنة ملك الخِلدان.

أطلقت مادلين صرخة، عندما سمعت ما قاله ابنها.

ثمّ قالت، عندما عادت إلى رشدها:

- أه، يا ولدي المسكين، لقد جُنِنتَ.

- لا، يا أمّاه، للأسف لست مجنوناً، قال جوزيف. آه لو كنت بالفعل قد فقدتُ عقلي لكنتُ سعيداً.

- إن شئتَ يا ولدي، قالت مادلين، نذهب إلى المدينة قصد استشارة طبيب.

- أوه، يا أمّي، لا دخل للطّبيب في الأمر، فأنا أقول لك إنّني لم أفقد عقلي، وكي أعطيك الدّليل على ذلك، سأحكي لك ما جرى.

حرّكت الأمّ رأسها متأسّفة، لأنّ هذا التّأكيد من ابنها لم يطمئنها أبداً. فهي تعلم أن أقبح أنواع الحمقى هم الذين يرفضون الاعتراف بفقدانهم لعقلهم.

أحسّ جوزيف بما يعاني منه قلب أمّه المسكينة فأشفق على حالها:

- اسمعيني، يا أماه، وسينتهي بك الأمر إلى أن تعرفي كلّ شيء.

بعد ذاك أجلس أمّه بالقرب منه وأمسك بكفّيها بين كفّيه وشرع يحكي:

- مرّ الآن شهران على الحادث، قال جوزيف، فذاتَ صباح، عندما كنت ذاهباً كي أشذّب الأشجار في الحديقة، لاحظتُ أنّ الأرض كانت محدودبة بعدد كبير من الخِلدان. وأنت تعرفين، يا أمّاه، كم أكره هذه الحيوانات بسبب الضّرر الكبير الذي تُلحقه بالحدائق؛ أخذتُ في اليوم نفسه أنصبُ لها فخاخاً، لكن، لمدّة خمسة أيّام أو ستّة، ظلّت الفخاخ منصوبة دون جدوى.

أخيراً، وذات صباح، رأيت خلداً في جُحْرِه.

- آه، صحتُ من المفاجأة، وأنا أمسك بفأسي، ستؤدّي الثّمن نيابة عن الجميع.

آنذاك حملت فأسي مستعدّاً لشطر الحيوان شطرين.

لكن، قَدِّرِي، يا أمّاه، مقدار دهشتي عندما سمعت الخُلْد يقول لي:

- لا تقتلني يا جوزيف، إنّ ما فعلتُه، قمتُ به عن جهل؛ أنا ما أزال في ريعان شبابي. أنا لم أكن أدري بأنّني أسبّب لك مشاكل عندما أعمد إلى الخروج من جوف الأرض كي أشمّ بعض الهواء الطّريّ. إن تركتني على قيد الحياة، أعدك بأنّ أيّ خُلْد لن يأتي بعد الآن ليصيب حديقتك أو أيّ أرض تملكها بسوء.

كان الحيوان قد تحدّث بصوت رقيق ملؤه التوسُّل، ممّا جعلني أشعر بقلبي يتأثّر، فأطلقت سراحه قائلاً:

- عِشْ حياتك.

- أنا أشكرك، وإن كنت تريد أن تراني ثانيةً، فتعال غداً مساءً، عندما يطلع القمر. إن أتيتَ بُحْتُ لك بسرّي.

وما إن قال الخُلْد هذه الكلمات حتّى عاد للغوص في الأرض.

كانت لديّ رغبة كبيرة في أن أطلب منه البقاء، كي أحادثه لمدّة أطول، لكنّ نوعاً من الرّعب كان مستولياً عليّ؛ ذلك أنّني لم يسبق لي أن سمعتُ بأنّ الخِلدان تتكلّم. كما أنّ الحيوان اختفى حتّى قبل أن أتجاوز حالة الرّعب التي كانت انتابتني.

في البداية راودتني، يا أمّاه، رغبة في أن أخبرك بما حدث لي، لكن، عندما راودتني هذه الرّغبة، قدَّرْتُ بأنّ عليّ أن أنتظر إلى الغد كي أحصل من الحيوان على شيء مفيد أخبركِ به. فالخلد كان قد وعدني بأن يبوح لي بأسرار. قلتُ إنّ أربعاً وعشرين ساعة لن تغيّر من الأمر شيئاً. هذا هو السّبب في أنّني أجّلت إخبارك.

توجّهتُ، في اليوم التّالي، وفي الوقت المحدّد، إلى الحديقة، فظللتُ هناك، عيناي مثبّتتان، مرّة على المكان الذي من المفروض أن يظهر منه البدر، على الأفق، ومرّة على المكان الذي اختفى عبرَه الخُلْد في الأرض.

ارتفع البدر في السّماء، لكنّ الخُلْد لم يظهر له أثر.

فكّرتُ في أنّ الحيوان قد يكون سخرَ منّي وبدأت أستعدّ للعودة إلى البيت. كنت أشعر بحزن شديد، ما ظننتُ قبل ذلك الوقت أنّ بإمكانه أن يستولي عليّ لمجرد أنّ موعداً حُدِّد لي مع خُلدٍ ولم يُحترَم. لكنّني، في تلك اللّحظة رأيت، وأنا ألقي آخر نظرة حولي، فتاة غاية في الجمال، وكأنّها تمثال ليليّ، تنتصب واقفة وسط كتلةِ ورود. كان شعرها طويلاً

وأسود مجعّداً، لكنّه مشدودٌ إلى صُدغيْها بواسطة إكليل من أوراق الذّهب. كانت عيناها سوداوين ورقيقتين وكأنّهما من مُخمل، رموشهما طويلة وحاجباهما جميلان، وكأنّهما قوسان مُتقَنان في صُنعهما. أمّا بقيّة ملابسها فكانت تتكون من تنّورة، أو بالأحرى من كسوة مشدودة عند الخصر بواسطة حزام من ذهب، بكُمّين كبيرين مفتوحين، يسمحان برؤية ذراعيها المستديرتين والبيضاوين.

أنار البدر المكتمل الصّاعد وجهها بنوره الرقيق والوديع، فسمح لي بأن أرى جمالها الفتّان.

- من أنتِ؟ سألتُ، وكيف دخلتِ الحديقة؟

- لقد خرجتُ من الأرض، لتوّي، قالت وهي تبتسم.

- خرجتِ لتوّك من الأرض؟ لكن كيف تمّ ذلك؟

- نعم، أنا الخُلْد الّذي متَّعتَه بحياته أمس، جئتُ كي أشكرك على كرمك.

ظللتُ أمامها منبهراً، وأنا أتأمّلها معتقداً أنّني أحلم.

- لقد قلت لك أمس إنّني سأبوح لك بسرّي، وأنا مستعدّة الآن للبوح به.

أصبحتُ كلِّي آذاناً، وأنا أتشوّق لسماع ما ستقوله الفتاة الحسناء.

- أنا الفتاة الوحيدة، وبالتالي الوارثة الوحيدة، لملك الخِلدان، قالت؛ وأبي في الحقيقة كائن بشريّ، لكنّ ساحراً شرّيراً حوّلنا جميعاً إلى خِلْدان وحبسنا في الأرض، حيث نعيش اليوم وكأنّنا خِلْدان حقيقيّة؛ غير أنّه مسموح لي، أنا وحدي، كلَّ مرّة يكتمل فيها البدر ويرتفع، بأن أستعيد

هيئتي الطّبيعيّة من طلوعه إلى غيابه. لكنّ أبي لم ينل هذه الحظوة؛ فهو لن يسترجع شكله الأوّل إلى غايةٍ أن يستعيده بشكل أبديّ، لأنّنا، في الأصل، عفاريت، وبالتّالي فإننا خالدون.

كنت أشعر أن قلبي يحلّق حول الفتاة الحسناء، وأنّ روحي معلّقة إلى شفتيها، وهي تتحدّث:

- أوه! قلت لها، إن كنت بالفعل تريدين أن تعترفي لي بالجميل بعد أن عفوتُ عنك ولم أقتلك، فلتخصّصي لي تلك السُّويعات القليلة التي هي لك، عند اكتمال البدر، واسمحي بقضاء هذا الوقت معي وأنت في شكلك الطّبيعيّ.

- لا تُبدِ رغبتك في ذلك، قالت الفتاة الحسناء، ذلك أنّ هذا الأمر الذي تطلبه منّي، عِوَضَ أن يكون حظوة تحظى بها، قد يصبح شرّاً مستطيراً بالنّسبة إليك. من الخطير دائماً أن يلتقي النّاس بنا، نحن الكائنات المسكينة الممسوخة. صدّقني، فأنا من أجل مصلحتك أرفض أن أعود. وداعاً. لا تعدْ أبداً إلى التّفكير بي.

آنذاك صعدَتْ إلى جُحرها الذي كان وسط الزّهور[1]، ثمّ غاصت ببطء في الأرض.

مددتُ كفّي نحوها، لكنّني لم أقبض إلاّ على الهواء. غامتِ الرؤية. ومنذ ذلك اليوم، يا أمّاه، أو بالأحرى، منذ تلك اللّيلة، لم أرَها قطّ.

هذا هو السّبب في أنّني لا أفارق الحديقة أبداً، يا أمّاه. هذا هو

---

(1) يشكّل جُحر الخُلد، أي مخبوءه، تلّة صغيرة آتية من التراب الذي يرفعه هو عندما يثقب الأرض، ولذا فهو يُدعى أيضاً تلّة الخُلد وكذلك قُبّة الخُلد.

السّبب في أنّني أقضي اللّيالي خارج الكوخ؛ ذلك أنني آمل دائماً أن أستطيع رؤيتها من جديد. وهذا هو السّبب، أخيراً، في أنّني أصبحت بهذا الحزن، لأنني لم أعد أراها؛ فأنا قد وقعت في حبّها فأصبحت مثل المجنون! لقد أحببتها يا أمّاه لروعة جمالها، رغم أنّه لم يجمعني بها سوى لقاءٍ واحد ووحيد!

أنت الآن تفهمين كيف أصبحت ألتزم الصّمت، بعد ذلك البوح الذي سمعتُه منها. وأنا أخشى أن تَعْتَبِرَ روحُكِ المؤمنة بالخالق هذا الحبَّ الغريب جريمة.

- أوه يا جوزيف! ما هذا الكلام الذي استمعتُ إليه؟ نعم، بالفعل، قالت مادلين، فإنّ حبّ خُلْدٍ يعتبر من قبيل الزّندقة، حتّى وإن تعلّق الأمر بابنة الملك. فأنت لا يمكنك أن تشتهي امرأة تصير خُلداً لستّة أسابيع، ثمّ تغدو امرأة حقيقية لليلة واحدة. ومن يدري! فربّما، عوضَ أن تكون بالفعل ما أَخْبرَتْكَ به، قد تكون مجرّد جنّية أُنثى أرسلها الشّيطان كي تُغويك.

- للأسف يا أمّاه، أجاب جوزيف، فلو كانت بالفعل كما تقولين، لكانت عادت للظّهور ثانية.

- إذن أنت قد نمتَ ورأيتَ ما حكيتَ في حلمك.

- أوه يا أمّي! لقد سبق لي أن رأيت نساء كثيرات في أحلامي، لكن لا واحدة منهنّ ظلّت حيّة في ذهني مثلما فعلتْ هذه. لا، لا، إنّها بالفعل ابنة ملك الخِلدان. إنّني أحببتُ امرأة حقيقية!

- إذن حاول أن تنساها يا طفلي الغالي، قالت مادلين. وفي جميع

الأحوال فإنّ الأمر يتعلق بفعلِ سحرٍ، ومن الجيّد العمل على طرده من ذهنك. صلِّ واشتغل، وإن أردت أن تتّخذ لك زوجة، فلْتكن من بين بنات القرية. أنت فتىً جميل يا جوزيف، ولئن كانت أسرتنا غيرَ غنيّة، إلاّ أنّ سمعتها لا تشوبها شائبة، وستعثر على زوجة حكيمة وجميلة. كن تقيّاً وذكيّاً وشِغِّيلاً مثلما كنت في الماضي، وسيكون كلّ شيء على ما يرام.

لكنّ جوزيف حرّك رأسه وهو يبتسم بحزن. كان مقتنعاً تماماً بأنّ النّصيحة التي قدّمتها له أمّه هي النّصيحة الجيّدة والوحيدة التي يجب اتّباعها، لكنّه كان يفتقر إلى القوّة كي ينسى تلك الفتاة الجميلة ذات الحزام الذّهبيّ وإكليل الورود.

أتى وقت اكتمال البدر، للمرّة الثّانية منذ أن التقى جوزيف بابنة ملك الخِلدان. وبقدرِ اقتراب اللّحظة التي كان جوزيف يأمل أن يرى فيها الفتاة التي يحبّ للمرّة الثّانية، كان يصبح أكثر ابتهاجاً وإقبالاً على العمل. غير أنّ أمه لم تكن تفارقه للحظة واحدة، منذُ أخبرَها بالأمر.

أقبل المساء الذي طالما انتظراه.

قامت مادلين بكلّ ما تستطيع كي تجعل ابنها يغادر الحديقة ويدخل الكوخ، لكنّ جوزيف صرّح لها بأنّه لن يغادر الحديقة ولو كان المقابلُ هو كلّ كنوز الدنيا.

- إذن، قالت الأمّ، فسأظلّ معك.

- ابقيْ يا أمّاه، لكن عليك أن تظلّي جانباً، فهي إن أتت، وإن رأيتِها، فإنّك ستشجّعينني على حبّي، ولن تعودي أبداً لمطالبتي بنسيانها.

عندما أقبل المساء، جلست مادلين تحت العريشة، في حين ظلّ جوزيف واقفاً على بعد ستّ خطوات منها، وهو يستند إلى جذع شجرة.

كانت مادلين تبكي وتدعو، ولا تفارق ابنها ببصرها.

وكان جوزيف يدعو ويُحْيِي الرّجاء، وبَصرُه ثابت على الأرض.

فجأةً، بدأ البدر يظهر، وهو يرتفع فوق الجبل.

وعلى الفور تشكّلت، قريباً من جوزيف، قُبّةُ خِلْدان، ثمّ أصبحت أكبر فأكبر إلى أن أضحت في شكل تلَّة صغيرة يصل ارتفاعها إلى ثماني أقدام أو عشْر.

آنذاك تحلّلت التّلة من وسطها فبدا من الأرض، عِوَضَ فتاةٍ حسناءَ، خلدٌ ضخمٌ، ممتلئ مثل ثور، وشرع يتقدّم نحو جوزيف.

أطلقت مادلين صرخة عالية، وعَدَتْ في اتّجاه جوزيف محاولةً سحبه إلى الوراء، لكنّ ابنها لم يتحرَّك أبداً، حتّى بدا وكأنّه قد أصبحت له جذور ممتدّة في الأرض.

- أمّاه، أمّاه! إنّه ملك الخِلدان، قال جوزيف، ألم تعرفيه من التّاج الذي يحمله على رأسه؟

وبالفعل، فقد كان لهذا الحيوان الضّخم تاج من ذهب على رأسه يلمع تحت شعاع القمر.

كان الخُلْد، في تلك اللّحظة، قريباً جدّاً من الأمّ وابنها؛ فانتصب ثمّ جلس على مؤخّرته بوقارٍ وأبّهة، وهو يمدّ نحو جوزيف قائمته الضّخمة، والتي بدت مثل يد آدمية مسلّحة بمخالب.

- تعال معي، قال ملك الخِلدان بصوت مكتوم ومرعب. أنا أقدّم لك ابنتي. ستكون صهري. تعال، فخطيبتك تنتظرك.

أراد أن يقود جوزيف، واضعاً قائمته على كتفه، لكنّ الأمّ احتضنت ابنها بين ذراعيها وهي تصيح بصوت رقيق ومتوسّل، في الآن نفسه:

- آه يا جوزيف! فكّر يا جوزيف بأمّك وبربّك، ولا تتبع هذا الوحش.

وبالفعل، أمسك جوزيف بكفّ أمه، مرعوباً هو نفسه من هيئة الوحش، وهو يريد أن يفرّ برفقتها.

لكنْ ما إن همّ بالاستدارة ليفرّ حتّى خرجت من الجُحْر نفسه امرأة بارعة الجمال؛ كان شعرها، مثل المرّة الأولى، يتهادى، فتلفّظت بصوت بالغ الرّقة، بهذه الكلمة الوحيدة:

- جوزيف!

توقّف جوزيف منبهراً. لم تكن ثمة وسيلة لمقاومة ذلك الصّوت وتلك النّظرة؛ فقد بدا أنّهما قد اجتمعا كي يكسرا أيّة إرادة إنسانية ممكنة. ظل جوزيف إذن بلا حراك عوض أن يفرّ.

لكنّ كلّ ذلك لم يكن كافياً؛ فابنة ملك الخِلدان لم تكن تريد فقط أن لا يفرّ جوزيف، وإنّما أرادت أن يتبعها.

آنذاك قالت ثانية بصوت أكثر رقّة من المرّة الأولى:

- تعال.

عندما سمع جوزيف هذه الكلمة، انتشل جسده من بين ذراعي أمّه، وتوجّه، كما لو بفعل قوّة لا تقاوم، كي ينقذف بين ذراعي الفتاة.

في تلك اللّحظة نفسها، اختفيا معاً.

غاص ملك الخِلدان، بدوره، في الأرض ببطء، وهو يمنع الأمّ المسكينة من أن تسير في أثر ابنها.

لم يدم الصّراع بينهما إلا لحظات وجيزة؛ فبمجرد أن اختفى جوزيف في الأرض، سقطت مادلين على العشب مغشيّاً عليها.

عندما استعادت الأمّ المسكينة رشدها، كان النّهار قد بدأ يبزغ، وكان سكّان القرية قد أخذوا يَصْحُون.

أخذت تبكي وتصرخ بصوت عالٍ. ورغم أنّ الكوخ يوجد، كما سبق لنا أن قلنا، في مقدّمة القرية، على بعد مائة خطوة من الأكواخ الأخرى، فقد شرع القرويّون الأقرب إليها يعْدون في اتجاهها ويسألونها عمّا حدث.

آنذاك حكت لهم ما رأته بأمّ عينها، فانتابتهم حالةٌ من الاندهاش.

رفضوا في البداية أن يصدقّوها، لكنّ حكْيها كان يحمل في طيّاته علاماتِ صدق، فضْلاً عن أنّ دموعها، بالخصوص، كانت دموعاً حقيقية، نابعة من مشاعر أمومة، فتسلّل الاقتناع بقولها إلى قلوب القرويّين. وعندما رأى سكان القرية الأمّ المسكينة تحفر الأرض بأظافرها حيث اختفى ابنها، وكأنّها تريد أن تستخرجه من تحت التّراب، ذهبوا للبحث عن مَجارفَ ومَعاولَ وشرعوا في حفر الأرض.

لكنّهم كانوا يحفرون بطريقة اعتباطيّة، لأنّه لم يعد ثمّة أيّ أثر لجُحْر الخِلدان.

كانوا يحاولون عبثاً أن يواسوها؛ لكنّها كانت ترفض ذلك بقوّة.

- آه يا إلهي! يا إلهي! كانت تصيح. لو فقط كان ابني قد مات؛ لو كنتَ أخذتَه يا إلهي إلى جانبك، لَكنتُ متأكّدة من أنّه قريب منك في السّماء، لكنّه الآن يحيا هنا تحت الأرض مع وحوش عمياء. لقد نسيَ ربَّه وأمّه، وربّما قد يكون تحوّل بدوره إلى حيوان خلْد.

كان ألمها قويّاً. وعوض أن تحاول الهدوء، كانت تزداد صراخاً، ممّا جعل الجيران يقولون لها:

- اصبري، نحن سنبحث في الأرض إلى أن نعثر عليه، ثمّ شرعوا، كما وعدوا بذلك، يحفرون الأرض بعمق، إلى أن انبثق الماء فمنعهم من الاستمرار في الحفر أعمق، لكنّهم لم يعثروا على أيّ شيء؛ لم يعثروا على جوزيف ولا على ملك الخِلدان ولا على ابنته.

انقضت سنة على تلك الحال: لم تَكُفَّ الأمّ المسكينة عن بكاء ابنها العزيز. أهملت الحديقة مع الحقل. وكان ممكناً أن تموت مادلين جوعاً لولا أنْ أتاها أصحاب القلوب الرّحيمة من أهل القرية بما تقتات به.

وذات مساء، كانت مادلين جالسة في حديقتها، فاستغرقها أَلَمُها الصامت، ممّا جعلها لا تنتبه لقدوم المساء.

كان البدر، تلك اللّيلة، في تمامه.

كان القمر بوجهه الشّاحب قد ارتفع في السّماء وطفق ينير الفضاء بشكل رائع.

فجأة، بدأ عشّ الخِلدان يتشكّل بالقرب من مادلين، فظهرت الأميرة الحسناء.

عندما رأتها مادلين، أخذت تصرخ:

– آه! هذه أنت أيّتها الشقيّة، هل أتيتني بولدي؟

– سترينه، أجابت الأميرة بصوتها الرّقيق، لكن، كي ترَيْه، سيكون عليك أن تذهبي معنا إلى حيث نعيش.

– إن تبعتُكِ، فهل سأراه بالتّأكيد؟ سألت الأرملة.

– بالطّبع، هيا اتبعيني.

– أوه! صاحت مادلين، في اللّحظة نفسها.

– هيّا، قالت الأميرة.

صعدت مادلين مع الأميرة إلى قبّتها، فغاصتا معاً، في الآن نفسه، في أحشاء الأرض.

فقدت المرأة المسكينة، لبضع لحظات، كلّ حسٍّ بالوجود؛ وعندما استعادت حواسّها، وجدت نفسها في قصر مبنيّ من كُتَلٍ من طين منضّد، تتحرّك فيه أعدادٌ هائلة من الخِلدان ذات الأحجام المختلفة.

كانت الأرملة ترتعش مثل أوراق شجرة، لكنّ تذكّرها لابنها جعلها تستعيد شجاعتها.

– جوزيف! صاحت، أين أنت، يا ولدي. أريد أن أراه.

آنذاك أتى الملك فسحب ستاراً يتكوّن من شقّين، فظهر جوزيف وجَرَى ليرتمي في أحضان أمّه.

في تلك اللّحظة لم تصدر عنهما معاً سوى صرخة واحدة:

– ابني!

– أمّاه!

ولم يستطع أحد منهما أن يقول أكثر من ذلك، كما لو أن أيّاً منهما لم

يكن يملك قوّةَ إضافةِ كلمة أخرى.

بعد ذلك، كانت مادلين هي التي استعادت القدرة على الكلام:

- وأخيراً، قالت له، ها أنت ذا بين أحضاني! لا شيء يستطيع أن يفصل بيننا ثانية، وستعود معي إلى هناك، فوق الأرض.

لكنّ جوزيف حرّك رأسه بحزن.

- لا! صاحت مادلين شاحبة الوجه. أعتقد أنّني سمعتك تقول لا.

- أمّاه، أجاب جوزيف بحزن، لا يمكنني أن أعود معك، وإنْ كنت أنا أريد ذلك.

- كيف! لن تستطيع العودة معي، صاحت الأمّ، ومن سيمنعك من القيام بذلك؟ أَيَكون الملك؟ لكنّني سأتوسّل إليه إلى أن يسمح لي بأخذك معي.

ثمّ ارتمت، بالفعل، جاثية عند قدمي ملك الخِلدان، وشرعت تتوسّل إليه ضامّةً كفيْها:

- سيّدي! أيّها الملك! صاحت مادلين، أعد إليّ ولدي. أنت أب وتعرف ما الذي يمكن أن يحصل لك إن انتزَع منك أحدٌ طفلَك. أوه! إن كنت لا تسمعني، وإن كنت لا ترأف بحالي، فإنّ ذلك يعني أنّ الخِلدان ليست مفتقدة للبصر فقط، وإنما هي مفتقدة للقلب أيضاً.

آنذاك أجابها الملك:

- أنت في الحقيقة تتسبّبين لي بأسىً عظيم، أيّتها المرأة المسكينة؛ ذلك أنّك مخطئة، فالخِلدان تملك قلوباً، وهي قلوبٌ أكثر حساسية من قلوب البشر، لكنّني لا أستطيع أن أترك ابنك ينصرف، لأنّه سيتزوج

غداً ابنتي.

- آه! ليَرْحمني الله! صاحت مادلين، هل كان بإمكاني يوماً أن أتصوّر أنّني كنت أُربّي طفلاً بهذا الجمال، طفلاً متشبثاً بدينه، كي يتزوّج، بعد ذلك، أميرة من الخِلدان؛ كلاّ، كلاّ، لا يمكن للأمور أن تكون على هذه الشّاكلة، أنتم ستعيدون إليّ ولدي، وسأصطحبه معي، وإلاّ فإنّني سأموت.

- اسمعي، قال الملك، يمكنك أن لا تنفصلي عن ابنك، لكن، في تلك الحال، سيكون عليك أن تظلّي معنا ها هنا.

- أوه! أنا أريد ذلك، أريده، أجابت المرأة المسكينة بلهفة، صحيح أنّه أمر مقرف أن يبقى المرء هنا، لكنّني أعتبر أيَّ مسكن مسكناً جيّداً، عندما أكون فيه برفقة ولدي جوزيف.

- أجل، ابقيْ هنا يا أمّي الغالية، قال جوزيف، فأنا بدوري لن يكون لي أيّ شيء آخر أشتهيه عندما تكونين بجانبي.

- ليَكن، قال ملك الخِلدان، لكنّ الأمر لا يمكنه أن يكون بهذه الشّاكلة.

- لماذا؟ سألت الأم.

- ثمّة شرط لبقائك معنا.

- وما هو؟

- نحن، الخِلدان، عُمْيٌ، كما ترين.

- وإذن؟ سألت مادلين المسكينة وهي ترتعش.

- وإذن، فعليك أن تفقدي بصرك لتصيري مثلنا.

- أوه! إنّه لأمر مرعب حقّاً، قالت الأمّ المسكينة، فأنا إن فقدت بصري، لن أعود قادرة على رؤية ولدي.

- بالفعل، أجاب ملك الخِلدان، لن تريه بعد ذلك أبداً، لكنّك ستظلّين بالقرب منه؛ سيحبّك ويكون بإمكانك أن تلمسيه وأن تسمعي صوته.

- يا للأسف! يا للأسف! قالت الأمّ، فأنا أريد، مع ذلك، أن أراه، لا تُفقدوني بصري، أتوسّل إليكم. إنّني لن أنظر إلاّ إليه، وإن رأيتموني أنظر لشيء آخر غيره، كنتُ مستحقّةً فقْدَ بصري.

- لا، أجاب الملك. اقبلي أو ارفضي، ليس هناك وسط بين الخيّارين: فإمّا أن نفقأ عينيك في هذه اللّحظة نفسها أو أن تعودي الآن إلى سطح الأرض، ولن تريْ ابنك بعد ذلك أبداً.

- لا، لا! صاحت المرأة الطّيبة، لا، أنا لا أستطيع. أنا لا أريد أن انفصل عن ولدي ثانيةً. لِتُفْقَأ إذن عينايَ واتركوني إلى جانب جوزيف. أنا أريد فقط أن أحتفظ بكفّه في كفي وأنتم تفقؤون عيني، حتّى لا يُختطف منّي ثانية.

- طيّب، قال الملك، طلبك مقبول.

- أتى جوزيف كي يجثو أمام أمّه، فأخذ كفّيها بين كفّيه وقبّلهما.

كانت دموع غزيرة تجري من عينيه.

عندما رأت مادلين دموع ولدها مسحت بسرعة دموعها هي وقالت:

- لا تبكِ يا جوزيف، فأنا في غاية السّعادة. هيّا.

وبالفعل شرعت تضحك عالياً كي تبرهن له على أنّها مبتهجة.

في تلك الأثناء، كان حيوانًا خلدٍ يُقَلِّبان إبرتين حمراوين في موقد، بينما كان آخران ينفخان في النّار حتّى يُضاعفا درجة حرارة الموقد.

أدارت المرأة المسكينة عينيها إلى تلك الجهة فشعرت بارتعاشة، لكنّها حادَتْ ببصرها عن الإبرتين وركّزته على جوزيف بشغف ظاهر، حتّى لقد يظنّ من يراها على تلك الحال أنّها كانت تريد أن تطبع صورة ابنها في قلبها.

- إن كنتم مستعدين، قالت، فأنا مستعدّة أيضاً.

آنذاك، قال لها الملك للمرّة الأخيرة:

- أيّتها المرأة، هل قرّرتِ بالفعل أن تفعلي ما أنت مقبلة عليه؟ فكري في الأمر مليّاً، فأنت ما زلت حرّة، ويمكنك أن تعْدِلي عمّا عزمت عليه. أنت ستعانين معاناة شديدة عندما تخترق هاتان الإبرتان شبكة عينيك.

- لا تحاول أن تغويني بالتّراجع، هيّا افعلوا ما ترونه لازماً، قالت الأمّ، فسواء أعانيتُ أم فقدتُ بصري أم بقيتُ طولَ حياتي عمياء، فإنّ بُغيتي هي أن لا أُفارق ولدي.

وبعد أن ألقت نظرة أخيرة على جوزيف، قالت بصوت يفيض حناناً:

- الآن افعلوا ما تريدونه.

ثمّ قبّلت جوزيف وهي تحتضنه باكية.

- أوه، أمّاه! أمّاه! صاح جوزيف، لا بدّ أن يجازيكِ الله على حبّك

الكبير هذا.

حينئذ اقترب حيوانًا الخلد، يحمل كلّ منهما إبرة محمرّة بقائمته، ثمّ انتصبا على قائمتيهما الخلفيّتين وشرعا يقرّبان الإبرتين ببطء من عيني مادلين.

لكن، عندما كادت الإبرتان تمسّان عينيها، دوَّى هزيم رعد عظيم، فاهتزّت الأرض بقوّة شديدة، انهار منها قصر الخِلدان.

لم تعرف مادلين ما الذي دهاها، لأن هزّة الأرض الرّهيبة تلك كانت أصابتها باندهاش كبير؛ لكنّها سرعانَ ما استعادت رشدها. كانت ممدّدة في حضن ابنها، ففتحت عينيها مرعوبة. كانت ترتعش من فرط خوفها من أن لا تعود قادرةً على رؤية ابنها، لكنّها كانت تراه.

لم تكن ترى جوزيف وحده، وإنما رأت أيضاً إلى جانبه رجلاً جميل الوجه وفارع الطّول، يلبس معطفاً أرجوانياً وعلى رأسه تاج من ذهب.

وإلى جانب ذلك الرّجل كانت تقف الأميرة الحسناء، خطيبة ابنها، كما كانت قد ظهرت لها على الأرض؛ فهذه الأميرة لم يكن بإمكانها أن تغدو أجمل، لأنّها كانت بالأصل في أجمل صورة يمكن لفتاة أن تتمنّاها.

كثير من السّادة ومن السيّدات كانوا يقفون إلى جانبهم وهم يرتدون ملابس ثمينة للغاية. كان قصر الطّين قد اختفى وعُوِّض بقصرٍ من رخام؛ كما أنّهم ما عادوا في عمق دهليز، وإنّما في مدينة جميلة تنيرها أشعّة الشّمس، وحولهم كان يسود كلّ ما هو ثمين، فضلاً عن نشاط كبير وعن ابتهاج منقطع النّظير.

- ما الذي يعنيه كلّ هذا؟ سألت مادلين، التي كانت تعتبر كلّ ما

يجري لها مجرّد حلم سعيد.

آنذاك أخذ الكلمةَ الرّجلُ الذي يلبس المعطف الأرجوانيّ وقال لها:

- أنا ملك الخِلدان؛ فقد انتقم منّي ساحر شرّير ومسَخني إلى خُلد، أنا ورعاياي، ممّا جعلنا نضطرّ لأن نعيش تحت الأرض بهذه الصّورة الدّميمة، إلى أن يقرر كائن بشريّ، حبّاً في إنسان آخر، أن يتركنا نفقأ عينيه، كي يبقى بيننا. ظللنا نتوق إلى تحرُّرنا طيلةَ قرنين من الزمان. وقد قمنا بجلب عدد كبير من الكائنات الأرضية إلى قصرنا تحت الأرض، لكن لا أحد من هذه الكائنات كان يحمل بين جوانحه حبّاً عظيماً كي يقبل بما عرضناه عليه. لقد قمتِ، أيتها المرأة، بتحريرنا، وسيكون جزاؤك في مستوى الخدمة التي قدمتها لنا. ابنك يحبّ ابنتي، وأنا أقبل أن أجعلها تقترن به وتصير زوجته، وسيخْلفني، ذات يوم، فيصير ملكاً. ليس بإمكان السّاحر الشرّير بعد الآن أن يصيبنا بسوء، لأنّه هو من سيأخذ مكاني ويسكن تحت الأرض، برفقة أطفاله الذين هم أشرار مثله.

أمّا بالنّسبة إليك، أيّتها المرأة، فإنك ستعيشين في هذا القصر بيننا، ولن نكفّ، طيلة حياتنا، عن الاعتراف لك بجميلك.

لكنّ مادلين حرّكت رأسها وهي تقول:

- سيّدي الملك، أنا لست معتادة البتّة على العيش في هذه الأبّهة ووسط هذه الفخامة؛ أنا أشكركم إذن على نواياكم الطيّبة، لكنّكم إن كنتم تريدون أن أكون سعيدة، فاتركوني أعيش فقط بالقرب من ولدي بتمكيني من كوخ صغير في حديقة، على أطراف القصر؛ وأن يكون

بإمكاني أن أرى كلّ يوم ولدي جوزيف، وأن أسعد بسعادته؛ وبذلك سأكون قد نلت أحسن الجزاء.

أمّا بالنسبة لما قمتُ به، فقد قمت به حبّاً لولدي، وإن كنتم قد انتظرتم كلّ هذا الوقت كي تتحرّروا، فذلك لأنّكم لم يسبق لكم أبداً أن التجأتم إلى أمّ.

أمّا جوزيف، فقد تزوّج الأميرة وعاش سعيداً معها، ثمّ خلَفَ أباها على العرش، فقضى عهدَ حكمِه باحثاً عن سعادة رعاياه.

ماتت أمّه وهي في الثّمانين من عمرها، في الكوخ الذي كان ملك الخِلدان قد بناه لها. ففارقت الحياة وهي تقول لجوزيف:

- أنا سعيدة للغاية لأنّني سأنتظركَ في العالَم الذي لا تفقِد الأمّهات فيه أبداً بصرهنّ، ويكون جزاؤهنّ هو أن ينعمن بالنّظر إلى أبنائهن إلى الأبد.

بياض الثّلج[1]

ذاتَ يومٍ من أيّام فصلِ شتاءٍ قديم، كان الثّلج يسقط في شكل نُدَفٍ، وكأنّ السّماء تنثر على الأرض وروداً فضّية.

وكانت ملكةٌ جالسةً في نافذة قصرها وهي تَخِيط.

كانت تلك النّافذة مصنوعة من خشب أبنوسٍ رائعِ السّواد.

وفيما كانت الملكة منشغلة بالنّظر إلى الثّلج وهو يسقط، وخزتْ إصبَعها بالإبرة.

سالت ثلاث قطرات من الدّم على الثّلج فشكّلت ثلاث لطخات حمراء.

وعندما شاهدت الملكة ذلك التّنافر بين اللّون الأرجوانيّ للدّم ولون الثّلج الأبيض، قالت:

(1) مستوحاة من حكاية معروفة للكاتبين الألمانيّين الأخوَين ياكوب غريمّ Jacob Grimm (1785--1863) وفيلهيلْم غريمّ Wilhelm Grimm (1786--1859). وفي بعض التّرجمات العربيّة لأفلام الرّسوم المتحرّكة المستوحاة من حكاية الأخوَين غريمّ المذكورة يترجم بعضهم اسم البطلة إلى «بيضاء الثّلج». ودوما نفسه يكتب اسم البطلة على هيئة Blanche de Neige، في حين أنّ التّرجمة الشّائعة بالفرنسيّة لعنوان حكاية الأخوَين غريمّ ولاسم بطلتها هي: Blanche-Neige.

- أريد أن يكون لي طفلٌ لونُ بشرته ببياض هذا الثّلج وخدّاه وشفتاه باحمرار هذا الدّم، وأن تكون عيناه وحاجباه وشعره بسواد هذا الأبنوس.

كانت ساحرة الثّلج تمرّ من هناك، في تلك اللّحظة بالذّات، وهي تلبس ثوباً من جليد، فسمعت دعوة الملكة وأقرّتها.

بعد تسعة أشهر من ذلك، ولدت الملكة فتاة بشرتها ببياض الثّلج وشفتاها وخدّاها باحمرار الدّم، وعيناها وحاجباها وشعرها بسواد خشب الأبنوس.

لكنّ الملكة لم يسعفها الوقت إلاّ كي تُقبّل ابنتها، فماتت وهي تقول إنّها تشتهي أن يكون اسم طفلتها هو «بياض الثلج».

بعد عام من موت الملكة، تزوّج الملك من امرأة ثانية.

كانت الزّوجة الجديدة بارعةَ الجمال، لكنّها كانت شديدةَ الاعتزاز بنفسها، وبقدر ما كانت أمّ بياض الثلج متواضعة ورقيقة، كانت زوجة الملك الجديدة شديدةَ الغرور.

لم تكن الملكة الجديدة تتحمّل أن توجد على الأرض امرأة أخرى تعادلها في جمالها.

كان لها وصيفة ساحرة؛ وذات يوم سلّمتها تلك السّاحرة مرآة كانت لها قدرات خارقة.

عندما كانت الملكة تنظر في المرآة وتقول: «أيّتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟»، كانت المرآة الصّغيرة تجيب: «أيّتها الملكة الفاتنة، أنت أجملهنّ».

فكانت المكلة المغرورة تشعر بالرّضا، لأنّها كانت تعرف أنّ المرآة لا تقول إلاّ الحقيقة.

غير أنّ بياض الثّلج كانت تكبر، من يوم لآخر، وتصبح أجمل فأجمل؛ إلى درجة أنّها كانت قد أصبحت، وهي في العاشرة من عمرها، جميلة مثل يومٍ مشرق؛ بل أضحت حتّى أجمل من الملكة.

والحال أنّ الملكة، عندما سألت المرآة ذات يوم: «أيّتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأةٍ في البلد؟»، أجابتها: «إنّها بياض الثّلج»، عوضَ أن تقول كما في العادة: «هي أنت».

اضطربت الملكة اضطراباً شديداً: أضحت مُخضَرّة الوجه من الغيرة، ممّا جعلها تفقد بعض جمالها.

ومنذ تلك اللّحظة، أصبحت الملكة، كلّما التقت ببياض الثّلج، يضطرب قلبها في صدرها لفرط ما كانت تكرهها.

بيد أنّ الغرور والغيرة، تينك النبتتين السيّئتين اللّتين تترعرعان في الرّوح، تستمرّان في نموّهما في قلب الإنسان كما ينمو نبات الشّيلم في الحقول؛ لذلك لم تعد الملكة تشعر بالرّاحة لا في اللّيل ولا في النّهار، فاستقدمت، ذات صباح، صيّاداً وقالت له:

- خذ هذه الفتاة إلى الغابة، ولا تجعلني أراها بعد الآن أبداً أمام ناظريّ. اقتلها وجئني بقلبها كدليلٍ على موتها. سأسلّمه للكلاب لتأكله، فلطالما أكلت كلاب الغيرة قلبي أنا.

- والملك؟ سأل الصيّاد.

- الملك الآن مع الجيش، وسأكتب له كي أخبره بأنّ بياض الثّلج قد

ماتت. هو لن يلحّ في السّؤال.

أطاع الصيّاد الملكة فأخذ الفتاة إلى الغابة. لكنّه عندما أخرج سكّينه كي يقتل بياض الثّلج، وعندما تحقّقت هذه الأخيرة من خطر الموت المحدق بها، جثت على ركبتيها وشرعت تبكي وهي تقول:

- آه! أيّها الصياد العزيز، أرجوك لا تقتلني؛ وسأنطلق في الغابة بعيداً بعيداً، بحيث لا يعود أحد يعتقد أنّني ما زلت على قيد الحياة، ولن أعود أبداً إلى البيت.

كانت بياض الثّلج غاية في الجمال، ممّا جعل الصيّاد يشفق على حالها.

- هيّا، اذهبي، اجري في الغابة، أيّتها الطّفلة المسكينة، قال الصّياد.

كان الصّياد، وهو يتلفّظ بتلك الكلمات، يقول في سرّه:

- توجد في الغابة حيوانات مفترسة متعدّدة، وسرعان ما ستفترس بياض الثّلج.

غير أنّ الصّياد أحس بأنّ ثقلاً كبيراً أُزيح عن قلبه.

في تلك اللّحظة ظهر إيَّل صغير فأطلق الصّياد في أثره سهماً أرداه قتيلاً، فبقر بطنه واستخلص قلبه وحمله إلى الملكة على أنّه قلب بياض الثّلج.

قدَّمت الملكةُ القلب، وهي تعتقد أنّه قلب بياض الثّلج، إلى كلابها كي تأكله، تماماً كما كانت قالت للصّياد.

أمّا بالنسبة للطّفلة المسكينة، فقد ظلت وحيدة في الغابة، كما وعدت الصّياد بذلك: شرعت تعدو وتعدو بقدر ما تحتمله قواها.

لكنّ الشّوك كان يَنْزاح من طريقها، والحيوانات الضّارية ظلت تنظر

إليها وهي تعدو دون أن تصيبها بمكروه.

وعندما حلّ المساء، لمحت منزلاً صغيراً. كان الوقت مناسباً تماماً بالنسبة إليها، لأنّ قدميها ما عادتا قادرتين على التّحمل، من فرط ما جرت.

شربت الفتاة الصّغيرة من ماءِ عينٍ مستعمِلةً راحتيْ كفّيها، ثمّ ولجت البيت كي تستريح.

لم يكن الباب مقفلاً.

كان كلّ شيء صغيراً في ذلك البيت، لكنّ كلّ ما فيه كان نظيفاً جدّاً. كان فيه مائدة صغيرة مبسوطٌ عليها غطاؤها، وعلى الغطاء سبعة صحون صغيرة.

ولكلّ صحن ملعقة صغيرة وسكّين صغيرة وشوكة صغيرة وكوب صغير. وكانت مثبتةً في الجدار سبعةُ أسرّة بأغطية بيضاء مثل الثّلج.

كانت الفتاة الهاربة تشعر بجوع شديد، فجلست إلى المائدة وأكلت من صحنٍ بعضَ الخضروات وشيئاً من الخبز، وشربت قطرات من كوب. فهي لم تكن تريد أن تأكل كلّ شيء ولا أن تشرب كلّ ما في الكأس؛ ولو كانت أرادت أن تأكل وأن تشرب بمقدار جوعها وظمئها لالتهمتْ كلّ ما كان موجوداً على المائدة.

ثمّ عمدت إلى النّوم على أحد الأسرّة، لأنّها كانت تشعر بتعب شديد. لكنّ أيّاً من الأسرّة السّتّة الأولى لم يكن على مقاسها: فإمّا أن يكون السّرير قصيراً للغاية أو ضيّقاً جدّاً.

وحده السّرير السّابع كان على مقاسها تماماً.

تمدّدت عليه وسلّمت أمرها لله ونامت.

وعندما أقبل اللّيل، عاد السّادة السّبعة إلى بيتهم.

كانوا سبعة أقزام يشتغلون بالبحث عن المعادن في الجبل.

أشعلوا سبعة مصابيح، فلاحظوا أنّ شخصاً غريباً قد ولج منزلهم.

فأمور البيت كلّها ما عادت بالتّرتيب نفسه الذي تركوها عليه قبل انصرافهم في الصّباح.

قال أوّلهم:

- من ذا الذي جلس على مقعدي؟

وقال الثّاني:

- من ذا الذي أكل في صحني؟

وقال الثّالث:

- من ذا الذي قضمَ خبزي؟

وقال الرّابع:

- من ذا الذي أكل قِسْطِي من الخضروات؟

وقال الخامس:

- من ذا الذي استعمل شوكتي؟

وقال السّادس:

- من ذا الذي استعمل سكّيني؟

وقال السّابع:

- من شرب من كأسي؟

آنذاك أجال القزم الأوّل بصره حوله، فانتبه إلى أنّ شخصاً ينام في

سرير القزم السّابع الذي كان أطوَلَهم.

- انظر! قال لرفيقه، من هذا الذي ينام في سريرك؟

سارع جميع الأقزام نحو السّرير وكلّ واحد منهم يقول:

- حتّى سريري أنا حاولوا النّوم فيه.

غير أنّ القزم السّابع نادى على باقي الأقزام وهو ينظر إلى بياض الثّلج نائمة في سريره.

انبهر الأقزام السّبعة بجمال الفتاة وهم ينظرون إليها على ضوء مصابيحهم السّبعة، فصاحوا قائلين:

- أوه! يا إلهي! كم هي جميلة هذه الفتاة!

شعروا بفرح وهم ينظرون إليها، إلى درجة أنّهم تركوها نائمة عوضَ أن يوقظوها.

نام القزم الذي نامت بياض الثّلج في سريره على حزمة من نبات السّرخس موضوعة على الأرض.

وصباح اليوم التّالي، استيقظت بياض الثّلج، فارتعبت عندما رأت الأقزام السّبعة متزاحمين في البيت الصّغير.

اقتربوا منها قائلين:

- ما اسمك؟

- اسمي بياض الثّلج، أجابت الفتاة الصّغيرة.

- وكيف أتيتِ إلى بيتنا؟ سألها الأقزام من جديد.

فحكت لهم كيف أرادت زوجة أبيها قتلها، لكنّ الصّياد استجاب لرجائها فلم يقتلها، وكيف عثرت على البيت الصّغير وولجته، وأنّها

كانتْ متعبة وجائعة، فأكلتْ ونامت.

آنذاك قال لها الأقزام السّبعة:

- إن أردت أن تشتغلي خادمة في بيتنا، تطبخين وتُعدِّين لنا أسِرّتنا وتغسلين ملابسنا وتخيطينها، وتعتنين بنظافة بيتنا، فستكونين في مأمن من أية حاجة.

- أقوم بذلك بكلّ سرور، أجابت بياض الثّلج.

هكذا، ورغم أنّها ابنة ملك وملكة، مكثت لدى الأقزام تقوم بشؤون بيتهم وترتّب أشياءه على أحسن وجه.

كان الأقزام كلّ صباح يتوجّهون إلى الجبل للبحث عن مناجم الذّهب والفضّة والنّحاس.

وعندما يعودون مساءً يجدون أكلهم مهيّأً فتقدّمه لهم بياض الثّلج.

كانت الفتاة إذن تظلّ اليوم كلّه وحيدة. وكان الأقزام، الذين بدأوا يحبّونها وكأنّها ابنتهم الصّغيرة، يقولون لها، في غالب الأحيان، عندما يهمّون بالتوجّه إلى الجبل:

- لا تتركي أحداً يدخل البيت، يا بياض الثّلج؛ احذري زوجة أبيك، فهي ستعلم، يوماً، بأنّك ما تزالين على قيد الحياة، وستطاردك إلى غاية بيتنا هذا.

وبالفعل، فإنّ الملكة ظنّت أنّها قد تخلّصت من بياض الثّلج إلى الأبد، فَمَكَثَت على تلك الحال لسنتين تقريباً، دون أن تستشير مرآتها. وخلال تينك السنتين، كانت الطّفلة قد أضحت شابّة، وبدأ جمالها يزداد يوماً بعد يوم، وهي تعيش هانئة، بل أكثر من ذلك، سعيدة في بيت الأقزام.

لكن، أخيراً، استولى على الملكة ذاتَ يومٍ قلقٌ غامضٌ فوقفت أمام المرآة وقالت:

- أيّتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟

فأجابت المرآة:

- أيّتها الملكة الجميلة، أنت أجمل النّساء في كلّ مدن المملكة، لكنّ بياض الثّلج، الموجودة بالجبل، في بيت الأقزام، أجمل منك ألف مرّة.

استولى رعب شديد على الملكة؛ فهي كانت تعلم علم اليقين أنّ المرآة لا يمكنها أبداً أن تكذب؛ فتأكّدت من أنّ الصّياد قد خدعها ما دامت بياض الثّلج ما زالت على قيد الحياة.

آنذاك شرعت تفكّر في طريقة تقتل بها بياض الثّلج؛ فهي متأكّدة من أنّ غَيرَتَها لن تتركها ترتاح لحظة واحدة، ما دامت ليست أجمل نساء البلد.

فكّرت إذن في أن تغيّر ملامحها وأن تَتَقَنَّع في صورة بائعة متجوّلة عجوز.

وهكذا غيّرت من ملامحها وتقنّعت فأصبح متعذّراً التعرّف عليها.

توجّهت نحو جبل الأقزام السّبعة ووصلت إلى البيت الصّغير فطرقت الباب وهي تقول:

- ملابس جميلة للبيع... وبأثمان رخيصة!

أطلّت بياض الثّلج من النّافذة، لأنّها كانت قد اعتادت على إقفال الباب من الدّاخل، وقالت:

- صباح الخير، أيّتها السيّدة الطّيبة! ما الذي تبيعينه؟

- بضاعة جيّدة، يا ابنتي. خيوط أحذية جميلة، وأحزمة رائعة تليق بخصرك ومُخْمَل ممتاز.

- آه! يمكنني أن أُدخل هذه البائعة المتجوّلة الطّيبة، فكّرت بياض الثّلج.

ثمّ أزاحت مزلاج الباب.

دخلت المرأة العجوز وأرَت بياض الثّلج بضاعتها فاشترت منها ما تصنع به عقداً.

- آه! يا طفلتي كم أنت جميلة! لكنّك ستزدادين جمالاً عندما ترتدين العقد. دعيني إذن أربطه لك خلف عنقك، كي أحظى بالنظر إلى جمالك وأنت تلبسينه.

لم تشكّ بياض الثّلج في شيء، فوقفت أمامها كي تربط شريط المُخمل إلى عنقها. لكنّ العجوز ضغطت الشّريط بقوّة، إلى درجة أنّ بياض الثّلج لم تستطع حتّى أن تطلق صرخة، فسقطت وكأنّها ميّتة.

اعتقدت الملكة أنّ الفتاة قد ماتت بالفعل.

- آه! قالت، كنتِ بالفعل الأجمل، لكنّك الآن ما عدتِ كذلك.

ثمّ خرجت مُبدِيةً حيويّة بالغة.

عندما أقبل المساء، عاد الأقزام السّبعة إلى بيتهم، فأصيبوا بذعر شديد عندما وجدوا عزيزتهم بياض الثّلج مخنوقة وملقاة على الأرض وكأنّها ميتة.

لاحظوا منذ البداية أنّ شريط المخمل الأسود هو الذي يخنقها، فقطعوه وشرعت بياض الثّلج تتنفس، ثمّ بدأت تعود لرشدها رويداً

رويداً.

آنذاك قال لها الأقزام السّبعة:

- لم تكن البائعة المتجوّلة سوى الملكة زوجة أبيك. خذي حذرك إذن، ما دمتِ قد تعرّضتِ لما تعرّضت له، ولا تتركي أحداً يلج البيت عندما نكون نحن غائبين.

عندما عادت الملكة الشرّيرة إلى قصرها، ظلّت لمدّة من الزّمن هانئة معتبرة نفسها أجمل نساء البلد، ما دامت بياض الثّلج قد فارقت الحياة.

غير أنّها توجّهت، ذات صباحٍ، بغنجٍ، نحو مرآتها وسألتها، لا لأنّها تشكّ في شيء، وإنّما على سبيل العادة لا غير:

- أيّتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟

فأجابتها المرآة:

- أيّتها الملكة الجميلة، أنت أجمل النّساء في كلّ مدن المملكة، لكنّ بياض الثّلج، الموجودة بالجبل، في بيت الأقزام، أجمل منك عشرة آلاف مرّة.

عندما سمعت الملكة كلام المرآة، صرخت صرخة عالية فرَّ منها كلُّ دم جسدها نحو قلبها.

كانت الملكة، بالفعل، تشعر برعب شديد، لأنّها متأكّدة من أنّ بياض الثّلج كانت ما تزال على قيد الحياة.

- آه! عليَّ الآن أن أفكّر في طريقة أقضي بها إلى الأبد على غريمتي في الجمال.

وبما أنّ الملكة كانت علِيمَة بالسِّحر، فقد أعدّت مشطاً مسموماً.

بعد ذلك تنكّرت من جديد في شكل امرأة عجوز أخرى وغادرت المدينة فأدركت الجبل ووصلت إلى البيت الصّغير فطرقت بابه وهي تصيح:

- بضاعة جيّدة للبيع، وبثمن رخيص!

أطلّت بياض الثّلج من النّافذة وقالت:

- واصلي طريقك أيتها المرأة الطيّبة، فأنا لا يمكنني أن أفتح لك الباب.

- لكن بإمكانك، على الأقلّ، أن تنظري، قالت العجوز.

ثمّ أخرجت المشط الذي كان يلمع وكأنّه من ذهب، فرفعته أمام بياض الثّلج.

- أوه! قالت الفتاة، كم سيبدو شعري أكثر سواداً لو مشّطته بهذا المشط الذهبيّ!

لم يدم الجدال طويلاً بين بياض الثّلج والمرأة العجوز حول الثّمن.

عندما اتّفقتا، قالت العجوز:

- والآن، اتركيني أدخل كي أمشط لك بالطّريقة التي يمشّطون بها في المدينة التي أتيت أنا منها.

تركت بياضُ الثّلج المسكينة العجوزَ تدخل، دون أن ترتاب أو تحتاط من أيّ شيء. لكن ما إن وضعت التّاجرة الزّائفة المشط في شعر الفتاة حتّى تحقق لها مبتغاها، إذ سقطت بياض الثّلج مغشيّاً عليها.

- آمل الآن، قالت الملكة الشرّيرة وهي تغادر المنزل، يا منتهى الجمال، أن تكوني قد توفّيتِ بالفعل!

لحسن حظ بياض الثّلج، كان الحادث قد وقع عندما اقترب المساء. فبعد خروج الملكة الشرّيرة بحوالى عشر دقائق، عاد الأقزام السّبعة إلى بيتهم.

- عندما رأوا بياض الثّلج ملقاة على الأرض، راودهم الشّك من جديد في أنّ زوجة أب بياض الثّلج قد تكون هي السّبب. رأوا في شعرها مشطاً ذهبياً لم يسبق لهم أن رأوه عندها، فسارعوا إلى انتزاعه.

وبمجرّد سحب المشط من شعر بياض الثّلج، بدأت تعود بالتّدريج إلى وعيها، ثمّ حكت لأصدقائها الأقزام السّبعة ما وقع لها مع البائعة العجوز.

عندئذ أكّدوا عليها أكثر من المرّات السابقة ضرورةَ أن تحتاط وألاّ تفتح الباب لأحد في غيابهم.

بعد حوالى خمسة عشر يوماً من الحادثة التي حكيناها لتوّنا، وقفت الملكة من جديد أمام مرآتها وسألتها:

- أيتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟

فأجابت المرآة:

- أيّتها الملكة الجميلة، أنت أجمل النّساء في كلّ مدن المملكة، لكنّ بياض الثّلج، الموجودة بالجبل، في بيت الأقزام، أجمل منك مائة ألف مرّة.

بدأت الملكة، عندما سمعت كلام المرآة، ترتعش من الغضب.

- أوه! هذه المرّة، على بياض الثّلج أن تموت، ولو كلّفني ذلك حياتي.

بعد ذلك أغلقت على نفسها في غرفة معزولة، لا يدخلها أحد، وهي

الغرفة التي كانت تتّخذها مُختبراً تُعدّ فيه سمومها. ثمّ صنعت تفّاحة مُكْتَنِزَةً رائعة في مظهرها: بيضاء من جهة وحمراء من الجهة الثّانية. لم يكن لون بياض الثّلج أكثر بياضاً من التفّاحة، كما أن التّفاحة كانت أكثر احمراراً من خدّيها.

لكنّ أيَّ شخص يأكل ولو قطعة صغيرة من التّفاحة، يموت وهو يبتلعها.

عندما انتهت الملكة من صنْع التّفاحة، تنكّرت في إِهابِ امرأة قرويّة وغادرت المدينة في اتجاه الجبل إلى أن وصلت أمام بيت الأقزام الصّغير.

طرقت الباب.

أطلّت بياض الثّلج من النّافذة وقالت:

- أوه! هذه المرّة لن أفتح الباب؛ لقد حَظَرَ عليَّ الأقزام السّبعة، بقوّة، فتح باب بيتهم في غيابهم. وعلى أيّ حال، فأنا نفسي قد عُوقبت عقاباً شديداً على فتحي للباب من قبل.

- طيّب! قالت المرأة القرويّة، إنّني لا أريد سوى أن أقدّم لك هذه التّفاحة التي جنيتُها من أجلك يا بياض الثّلج.

- أنا لا أريدها، فهي ربّما تكون مسمومة.

- آه! من هذه النّاحية، سترين بنفسك عكسَ ما تقولين، قالت المرأة القرويّة.

آنذاك أخرجت سكّينها وقسمت التفاحة نصفين.

- خذي، سآكل أنا النّصف الأبيض، وتأكلين أنت النّصف الأحمر.

لكنّ التّفاحة كانت قد صُنِعَتْ بحذق شديد، بحيث يكون النّصف

الأحمر فقط هو المسموم.

كانت بياض الثلج تسترق النّظر إلى التّفاحة، وعندما رأت المرأة القروية تأكل الجهة البيضاء منها، لم تستطع مقاومة رغبتها، فمدّت يدها وأخذت الجزء الأحمر من التّفاحة.

لكنّها بمجرد أن قضمت منه سقطت على الأرض ميّتة.

أطلّت المرأة القروية من النّافذة، وعندما رأت بياض الثّلج ملقاة على الأرض لا تتنفّس، شملتها بنظرة قاسية وقالت:

- يا بياض الثّلج، أيّتها الحمراء مثل الدّم والسّوداء مثل خشب الأبنوس، لن يعود الأقزام السّبعة إلى إيقاظك أبداً بعد الآن.

وعندما عادت إلى قصرها، استشارت مرآتها، سائلة:

- أيّتها المرآة الصّغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟

فأجابت المرآة:

- أيتها الملكة الجميلة، أنت أجمل النساء ليس في البلد فقط وإنّما في الدّنيا كلّها.

فارتاح قلبها الغيور، بالقدر الذي يستطيع قلبٌ غيورٌ أن يرتاح.

عندما عاد الأقزام السّبعة في نهاية النّهار، ووجدوا بياض الثّلج مرمية على الأرض، ولاحظوا أنّها هذه المرّة لا تتنفّس، حملوها ونزعوا عنها ثيابها فغسلوها بالماء وبالشّراب ومشّطوا شعرها وألبسوها كسوتها البيضاء ثمّ مدّدوها على السّرير وشرعوا يبكونها لثلاثة أيّام.

بعد ذلك فكّروا في دفنها؛ لكنّهم، عندما لاحظوا أنّها ما تزال محتفظة بطراوتها مثل أيّ إنسان حيّ، وأنّها ما تزال متمتّعة بألوانها الوردية

الزّاهية، قالوا لبعضهم البعض:

- لا يمكننا أن نضع في بطن الأرض كنزَ جمالٍ مثل هذا.

ثمّ توجّهوا عند بعض صُنّاع الزّجاج من أصدقائهم، وهم أقزام مثلهم، فطلبوا منهم أن يصنعوا لهم نعشاً من زجاج شفّاف مثل مثْوى قدّيس؛ ثمّ وضعوا الفتاة بداخله، على فراش من ورود، وكتبوا بحروفٍ من ذهبٍ اسمَها وسجّلوا منزلتها بوصفها ابنة الملك.

بعد أن فعلوا كلّ ذلك، حملوا النّعش إلى أعلى قمّةِ الجبل ووضعوه ثمّ مكث أحدُهم بجانبه يحرسه.

عندئذ أخذت الضّواري نفسها تقترب من نعش بياض الثّلج وهي تبكيها.

كان أوّل حيوان يقترب من النّعش هو البومة، أمّا الثّاني فكان هو الغراب، وكان الحيوان الثّالث هو الحمامة.

ظلّت بياض الثّلج في النّعش ثلاث سنوات دون أن يتحلّل جسدها البتّة.

ذبلت الورود التي كان جسدها موضوعاً عليها؛ لكنّ بياض الثّلج ظلت على طراوتها وكأنّها وردة خالدة.

عند نهاية السّنة الثانية، سمع القزم الذي كان الدَّور دَوره في حراسة النّعش - لأنّهم كانوا يتناوبون على تلك المهمّة - سمع أصواتَ بوقٍ عالية ونباحَ كلاب.

إنّه الابن الوحيد لعاهلِ مملكة مجاورة، خرج إلى الجبل كي يصطاد، فقادته حماسة الصّيد إلى ما وراء حدود مملكته، فوصلَ إلى غابة الأقزام.

رأى النّعشَ؛ وبداخل النّعش بياض الثّلج الجميلة؛ وعلى النّعش ما كتبه الأقزام.

عندئذ قال للقزم الذي يحرس النّعش:

- دعني آخذ هذا النّعش، وسأسلّمك كلّ ما تريد.

لكنّ القزم أجابه:

- لن أقبل بذلك لا أنا ولا إخوتي السّتة، حتّى ولو كان المقابلُ كلَّ ذهب الدنيا.

- إذن أعطني النّعش هديّةً، قال ابن الملك؛ فأنا أشعر أنني قد لا أتزوّج أبداً، ما دامت بياض الثّلج قد فارقت الحياة. أنا أريد أن آخذها إلى قصري كي أُبْدِيَ نحوها ما يليق بها من احترام وتشريف وكأنّها حبيبتي.

- إذن عدْ غداً. سأستشير إخوتي وأستطلع رأيهم فيما قلت.

استشار القزم إخوته السّتة، فأبدوا عطفاً على الأمير العاشق؛ لذلك، عندما أتى في اليوم التّالي خاطبه القزم قائلاً:

- خذ بياض الثّلج، فهي لك.

وضع الأمير النّعش على أكتاف خُدّامه، ورافقهم على صهوة جواده، فأخذوا طريق مملكته وهو لا يفارق بياض الثّلج ببصره.

لكن، أثناء سير الموكب، حصل أن تعثّر الخادمان اللّذان كانا يسيران في المقدّمة، بعدما ارتطَما بجذع شجرة، فارتجّت بياض الثّلج ولفظت قطعة التفاح التي كانت قد قضمتْها. لحسن حظّها لم يكن الوقت قد أسعفها كي تبلعها.

وبمجرّد خروج قطعة التّفاح من فم بياض الثّلج، فتحت الفتاة عينيها من جديد ودفعت بجبهتها غطاء النّعش وانتصبت واقفة.

كانت بياض الثّلج قد عادت إلى الحياة.

صدرت عن الأمير صرخةُ ابتهاج.

عندما سمعت بياضُ الثّلج تلك الصّرخة، استطلعتْ ما حولها وصرختْ:

- آه يا إلهي! أين أنا الآن؟

- أنتِ بالقرب منّي! صاح ابن الملك في ذروة فرحه.

ثمّ حكى لها ما وقع، وأضاف:

- أنا أحبّك يا بياض الثّلج أكثر ممّا أحبّ أيّ شيء آخر في الوجود؛ تعالي معي إلى قصر والدي، وستصبحين زوجة لي.

كان الأمير في الثّامنة عشرة من عمره، وكان أجمل فتىً في الدّنيا، مثلما كانت بياض الثّلج أجمل فتاة في الكون. لذلك، لم يجد الأمير صعوبة في أن يجعل بياض الثّلج تقع في حبّه.

وصلت بياض الثّلج إلى قصر الأمير، وبما أنّها كانت فتاة كاملة، فإنّ الملك استقبلها معتبراً إيّاها ابنة له.

وبعد شهر من ذلك، أقيم حفل زفاف باذخ.

عندما تم الزّواج بين الأميرين، أراد الزّوج أن يعلن الحرب على الملكة الشرّيرة التي طالما لاحقتْ بشرورها بياضَ الثّلج، لكنّ هذه الأخيرة قالت:

- إن كانت زوجة أبي تستحقّ العقاب، فإن الله هو الذي سينزله بها

وليس أنا.

لم يتأخّر العقاب: اجتاح الجُدَريُّ الولايات التي تحكمها الملكة الشرّيرة، فأصيبت بالعدوى.

لم تمت الملكة الشرّيرة من إصابتها بالجدريّ، لكنّ وجهها شُوِّه منه.

بيد أن أيّاً من أتباعها لم يجرؤ على إخبارها بالمأساة التي حدثت لها.

وعندما بدأت تستطيع أن تتحرّك من مكانها، كان أوّل شيء قامت به هو أنّها انجرّت نحو مرآتها.

- أيّتها المرآة الصغيرة المعلّقة إلى الجدار، من أجمل امرأة في البلد؟

- كنتِ، منذ مدّة، أجمل النّساء، لكنّكِ اليوم أقبحهنّ.

عندما سمعت الملكة تلك الكلمات المرعبة، نظرت إلى نفسها في المرآة، فوجدت أنّها بالفعل دميمة جدّاً، ممّا جعلها تطلق صرخة وتسقط أرضاً على ظهرها.

سارع الخدم نحوها، فحملوها وأرادوا إعادتها إلى وعيها، لكنّها كانت قد فارقت الحياة.

بقي الملك العجوز وحيداً.

لم يتأسّف على فقد زوجته لأنّها كانت قد أحالت حياته حياة تعيسة.

غير أنّ المقربين منه كانوا يسمعونه، بين الفينة والأخرى، يتنهّد ويقول:

- لمن سأترك مملكتي الجميلة؟ آه لو لم تكن ابنتي بياض الثّلج قد توفّيت!

تناهى إلى سمع بياض الثّلج ما حدث في قصر أبيها، وتحسّره الشديد

على فقدها.

آنذاك توجّهت نحو مملكة أبيها مصحوبة بزوجها الأمير. ظلّت مع زوجها على باب الملك العجوز، في انتظار الإذن لهما بالدّخول، لأنّ الخدم كانوا ذهبوا لإخباره أنّ الأميرةَ زوجةَ الأمير جاره، الجميلة جدّاً، تريد مقابلته. ومن مكانها خلف الباب سمِعت العجوز يقول:

- آه لو كانت ابنتي المسكينة بياض الثّلج ما تزال على قيد الحياة! إذن لَمَا كان بإمكان أيّة أميرة أخرى أن تقول «أنا أجمل أميرات الدنيا».

لم تكن بياض الثّلج في حاجة لسماع أكثر من ذلك، فاندفعت نحو غرفة الملك العجوز وهي تصيح:

- آه يا أبَتِ! بياض الثّلج لم تفارق الحياة، وها هي ذي بين يديك! قبِّلْ يا أبَتِ الطَّيب ابنتَك!

ورغم أنّ الملك العجوز لم يكن رأى بياض الثّلج منذ أربع سنوات، فإنّه قد تعرّف عليها فوراً؛ فصاح بنبرٍ طفِقت تبكي منه الملائكة ابتهاجاً:

- ابنتي الحبيبة! ابنتي العزيزة! ابنتي بياض الثّلج...

وفي اليوم التّالي، قام الملك، الذي كان متعَباً من كثرة ما حَكَمَ، بتسليم الولايات التي يحكمها إلى صهره. فجمع الأمير الشابّ، عندما توفّي أبوه، ولاياته وولايات أبي زوجته في مملكة واحدة، ممّا يعني أنّه سيترك، عندما يموت، لابنه الذي سيُرزَقه من بياض الثّلج مملكةً من أجمل ممالك الدّنيا.

تيني المغرورة

كانت تيني أصغر كائن يمكن للعين أن تراه. لذلك سُمِّيَت تيني. وهو اسم يعني، في الحقيقة: «الصّغرى». كان من الصّعب إدخال إبهام الكفّ في حذائها لصغره، كما أن فستانها كان أعجوبة حقيقيّة. كان ممكناً لدمية من شمع، بالحجم المعتاد، أن تبدو أكبر منها، فكانت أمّها تصنع لها جواربها بنفسها، لأنّه لم يكن ممكناً لأيّ خيّاط أن يخيط أشياء بهذا الحجم الصغير جدّاً. ها أنتم ترون، إذن، أنّه كان مناسباً للغاية أن تُدعى تيني، حتّى لَقَد كان اسمها الحقيقيّ يُنسى تماماً. أمّا بالنّسبة إليّ، فإنّني لم أعرف أبداً اسمها الأصليّ. وهذا الجهل، على أيّ حال، ليس له أيّ تأثير على ما نحن بصدده، فالحكاية التي سنرويها ستتحدّث عن طبعها، ولا علاقة لها البتّة باسمها. كما أنّ اسمها وحكايتها متعارضان تماماً؛ ذلك أنّها إن كان اسمها يدلّ على الصِّغر، فإنّ إعجابها بنفسها، في المقابل، كان كبيراً للغاية. وهذا العيب، كان في الأصل ناتجاً عن سلوك أمّها التي كانت تقضي وقتاً طويلاً في تزيين الكائن الصّغير، المسكينةِ تيني.

كانت تيني، بمجرّد أن ترتدي ملابسها، تشرع في التّجول طولاً وعرضاً، أمام الأكواخ القريبة من كوخهم، كي تنال إطراء الجيران الذين لم يكونوا يبخلون، عن حسن نيّة، بأن يقولوا:

- أوه! ها هي ذي بنت جميلة بالفعل! ما أجمل عينيها! وما أروع شعرها! إنّها بالفعل مثال ممتاز للجمال!

كانت تيني تحمل كلامهم ذاك كلّه على محمل الجدّ، فبدأ غرورها يتضاعف إلى أن اتّخذ مظهراً مثيراً للشّفقة.

غير أنّ تيني لم تكتفِ، مع ذلك، بهذا الثّناء وبعباراتِ ثناءٍ أخرى كثيرة، فقرّرت، ذات صباح جميل، أن تعمَد إلى تقدير جمالها بنفسها. وبما أنّها لم تكن تملك مرآة في بيتها، فقد توجّهت إلى عين قريبة وبدأت تنظر إلى وجهها على صفحة مائها الشّفاف.

ولأنّها ظلّت لبرهة منبهرةً بالصّورة المنعكسة على الماء، فقد ارتعشت عندما سمعت صوتاً يصيح في اتّجاهها:

- صباح الخير أيّتها المغرورة الكبيرة!

رفعت بصرها فرأت على الشاطئ الآخر امرأةً جميلة ذات جناحين عجيبَين، مصحوبة بقزم صغير مرعب. كانا معاً يضحكان مستهزئيْن بها.

واصلت المرأة قائلة، بعد أن استطاعت السّيطرة على ضحكها:

- لا شكّ أنّك تجدين صورةَ وجهك في الماء جميلة، أليس كذلك؟ وربما تكونين أيضاً مندهشة من جمال شكلك، لكنك، أيّتها الصّغيرة، تدوسين بقدميكِ الصّغيرتين أشياء هي أجمل وأكمل منك بكثير. إن

استمرَرْتِ كلَّ حياتك في أن تكوني مغرورة بنفسك إلى هذه الدّرجة، فاعلمي أنّك لن تكوني سعيدة، وستصبحين أضحوكة للجميع. وأنا أريد، على أيّ حال، أن أقدّم لك درساً يمكن أن يكون له تأثير ملموس عليك، فيشفيكِ ممّا أنت فيه: سأهديك جناحين يساعدانك على البحث عن الحقيقة. الجناحان لن يمكثا لديك سوى وقتٍ قصير، لكنّهما سيمكّنانك من أن تستنتجي بنفسك أنّ عبادة الذّات ليست أمراً ملائماً، وذلك من خلال مشاهدتك لها عند الآخرين.

ارتعشت تيني وهي تشعر بأنّ جناحين كانا آخذَين في النّموّ على كتفيها ويحملانها من الأرض. ورغم أنّها قد ارتعبت، في البداية، من سرعتهما، فإنّها سرعان ما بدأت تستلذُّ بذلك الإحساس الجديد والرّائع بأن تجد نفسها محلّقة في الفضاء. بعد ذلك أطبقت الجناحين ونزلت وسط أيكة جميلة من الورود البرية، قريباً من بومة ضخمة ضلّت طريقها، في غالب الظّن، عندما أدركها ضوء النّهار.

- من أنت؟ سألت البومة بصوتها المبحوح، وهي تحاول أن تميِّز ملامح تيني، رغم أشعة الشّمس التي كانت تَبهرها.

- أنا فتاة صغيرة، يا سيّدتي.

- يا لَرحمة السّماء! أنت إذن مجرّد فتاة صغيرة؟ قالت البومة. كنت أعتقد أنّك طائر. لكن كيف تكونين فتاةً وأنتِ تملكين جناحين؟

- نعم سيّدتي، أنا أملك جناحين، قالت تيني بتواضع، بعد أن لاحظت أنّ البومة اعتبرت كونها فتاة صغيرة أمراً بلا قيمة، لقد سلّمتني ساحرة طيّبة هذين الجناحين كي أستطيع مشاهدة العالم.

- آه! آه! آه! قالت البومة ضاحكة، أن تشاهدي العالم! لكن في أيّ شيء سيفيدك أن تشاهدي العالم؟ أنظري إليّ، فأنا أقضي كلّ حياتي تقريباً في تجويف شجرة لا أبْرَحُهُ، لكنّني أُعتبَر، مع ذلك، أكثر الحيوانات حكمة.

- هل ما تقولينه صحيح يا سيّدتي؟ سألت تيني بلهفة؛ وعليه فهلاّ تفضّلتِ بأن تعلّميني علمَكِ.

- طيّب! قالت البومة وهي تغلق عينيها، وكأنّها تريد أن تبحث عن عِلمها داخل رأسها. لا أدري، فأنا لا أريد أن أصبح معلّمةَ مدرسة، غير أنّ بإمكاني أن أقول لك بسهولة شيئاً واحداً أعرفه، وهو أنّني حكيمة بالفعل، لأن العالم أجمع يعتقد ذلك؛ وأنا بدوري أعتقده، ما دام الناس الأكثر فهماً يسلّمونني لواء الحكمة؛ هكذا إذن، كُوني مقتنعة بذلك، أنت أيضاً، وواصلي طريقك، بينما سأقوم أنا الآن بمجهودٍ كي أعثر على جُحري.

تلفظت بتلك الكلمات وحلّقت في الهواء، أكثر قوّة من السّابق، وشرعت تطلق ضحكات على مزحتها التي قالتها لتوّها.

- يا له من حيوان غبيّ ومغرور! قالت تيني وهي تنظر إلى البومة تبتعد في الفضاء ضاربةً بجناحيها؛ لم أستطع أن أتعلّم منها أيّ شيء ذا قيمة.

وإذ كانت تيني تحلّق فوق غابة مجاورة، فإنّها قد فوجئت لرؤية حيوان كنْغر عملاق يقفز قفزات طويلة اعتماداً على ذيله، فتابعتْ مسيرَته بانتباه بالغ.

وفجأة، خرج طير لقلق كبير أزرق اللّون من مكان رطب مليء بالقصب، فاقترب من الكنْغر.

- أوه! أوه! ها أنت ذا إذن، أيّها السيّد القفّاز، قال طير اللّقلق. كم هو عظيم ذيلك! لماذا لا تتباهى به عوضَ أن تستعمله مكان السّاق؟ وهذان الشيئان الصّغيران البائسان اللّذان أراهما هنا، هل هما بالفعل قائمتاك الأماميّتان؟ أنا أتحدث عن هاتين القطعتين الصّغيرتين المعلّقتين أمامك.

- يا لك من طير متهوّر! عقّب الكنْغر بنبر مُحْتَقِر، هل تنوي أن تنتقد كمالَ شكلي وجمالَه، المتفوّق في كلّ مكوناته وعلى كلّ الحيوانات؟ ذيلي رائع، وهو وحده، يعتبر أعجوبة، وقائمتاي الأماميّتان الجميلتان منسجمتان تماماً مع الدّور المنوط بهما. عدْ يا أغبى الحيوانات إلى برْكتك التي تجيد الاختفاء فيها، وأظهر لكلّ العيون هاتين القصبتين اللّتين تدعوهما قائمتين، واللتين كلّما حلّقت في الفضاء بطريقة مثيرة للسّخرية، أبانتا إلى أيّ قدر أنتَ قبيح. إن عثرتَ على ما يكفي من ماء، هنا في الجوار، فاذهب لتنظر فيه إلى أطرافك الهزيلة وغير المتناسبة، ثمّ أَبْدِ احمرارك إن استطعت، عبر ريشك، وأنت تعترف بالفرق الشّاسع الموجود بينك وبين كائن مكتمل مثلي.

ودون أن ينتظر تعقيب طير اللّقلق، أصدر صرخة متوحشة وقفز يعدو داخل الغابة.

- جيّد! قالت تيني عندما انطلق طير اللّقلق محلّقاً بدوره، ها هو ذا أمر ملائم من الجانبين. هما معاً قادران على إبراز محاسنهما وعلى احتقار

أحدهما الآخر.

بعد ذلك حلّقت تيني ونزلت قريباً من جذع شجرة كبيرة ذات أغصان ممتدّة. رأت على أحد تلك الأغصان سنجاباً ضخماً معلّقاً، يستدفئ بالشّمس وهو يكسر حبّة جوز.

- أريد أن أعرف إن كان يتكلّم، قالت تيني؛ أنا متأكّدة من أنّه يتكلم لأنّه يبدو كثير الفطنة.

ما كادت تيني تُجيل في ذهنها تلك الفكرة حتّى رأت، قريباً منها، كوباياً[1] غريباً في مظهره، يخرج من دغل، وهو ينْخر ويمشي محُاذِراً.

كفّ السنجاب عن تكسيرِ حبّات الجوز، ورمى الكوباي بالقشور وهو ينادي عليه بصوت عالٍ:

- هيه! أنت! أيّها الكائن الصّغير المثير للضّحك، إلى أين أنت ذاهب؟ ما اسمك؟ اسمح لي أن أسألك، دون أن أجرحك، وبتعاطف كبير معك، كيف حال ذيلك؟

أجال الكوباي بصرَه حوله باندهاشٍ، باحثاً عن المكان الذي يختبئ فيه ذلك السَّائِل المهذّب. استطاع أخيراً أن يلمح السّنجاب فقال له بتواضع كبير:

- أنا في الحقيقة، يا سيّدي العزيز، لا أذكر أنني قد سبق لي أن انزعجت من شكل ذيلي.

---

(1) الكوباي: حيوان صغير يتغذّى أساساً على العشب ويأكل الفاكهة والخضار، يُدعى خطأً الخنزير الهنديّ لكثرته في بلدان الهنود الحمر سابقاً، كوبا بخاصّة، وهو في الحقيقة من القواضم، شبيه بالفأر، ومن الحيوانات المنزلية بامتياز، يربّى لفروه النّاعم وطبعه الأليف، وقد شاع استخدامه في التجارب الطبيّة.

– ما الذي تقصده بكلامك هذا؟ سأل السّنجاب بتبجُّح؛ ثمّ قفز إلى الأرض وأتى لينظر إلى الكوباي المندهش عن قرب.

– ما أريد أن أقوله، عقّب الكوباي الذي لم يُبدِ أيّ خجل من ذيله، هو أنّني لو كان لي ذيل طويل وثقيل مثل ذيلك لكنت منزعجاً جدّاً؛ ويمكنني حتّى أن أُضيف أنّني كنت سأعتبره، حسب وجهة نظري في رؤية الأمور، مصدرَ خطر حقيقيّ ومحْدِق؛ ذلك أنّك، يا كاسر الجوز الغبيّ، كنت ستكون في مأمن من أيّ خطر لو لم تكن، بسبب حبّك المفرط لنفسك، تُكثِر من تحريك ذيلك حولك دون انقطاع، ممّا يجعل فعلك ذاك يصبح إشارة تنبِّه الصّياد إليك؛ فيصير ذيلك بذلك كارثة منذرة بنهايتك. كان بإمكان حياتك أن تكون أطول لو لم يكن لك هذا الذّيل الطويل. هكذا إذن، فأنا أتمنّى لك مساءً سعيداً وقدراً أقلّ من الغرور.

بعد ذلك اختفى الكوباي في الأرض، أمّا السّنجاب فقد عاد بقفزة إلى الشّجرة حتّى يختفي بين أغصانها.

حلّقت تيني بعيداً، وهي تستعيد مستلذَّةً جوابَ الكوباي، الذي يبدو، مع ذلك، من مظهره، شديد الغباء. بعد ذلك بقليل، مرّت قربها فراشة بديعة. خفّفت الفراشة من سرعتها عندما رأت المظهر الغريب لتيني، وأتت لتقف بالقرب من المكان الذي حطّت فيه على الأرض.

– يومك سعيد، عزيزتي، قالت الفراشة بأدب؛ أقسم لك بشرفي أنّك قد أربكتِني في البداية. لقد ظننتك فراشة من معارفي، لكنني تخلّيتُ عن فكرتي تلك بعد أن رأيت ساقيك العظيمتين وشكلَك

العامّ العجيب. وعلى أيّ حال، فأنا، رغم شكلك غير الجذّاب، سعيدة بمعرفتك. وهكذا يمكننا أن نتحادث فيما بيننا، لكن احذري من وطئي بقدميك الكبيرتين.

كانت تيني، التي أشعرها ما قالته الفراشة بكثيرٍ من الزّهو، على وشك أن تجيب، لكنّها رأت حلزوناً يمشي ببطء مقترباً من المكان الذي توجد فيه برفقة الفراشة.

- يا لَلسّماء! صاحت الفراشة، ها هو ذا شيء مرعب! يا له من مخلوق مسكين! يا له من مصير! أن تزحف، إلى الأبد، على الأرض، وأنت تحمل على ظهرك هذه القوقعة الفظيعة!

- من تَرْثِينَ بهذه الطّريقة، أيّتها المازحة الصّغيرة؟ سأل الحلزون. هل يحقّ لك أنت أن تسُبّي كائناً مثلي، لأنّ لك على ظهرك كلّ تلك الألوان الفاقعة؟ لكنّك تنسين أنّك كنت أمس فقط مجرّد شيء مشوّه، أكثر قبحاً من أيّ شيء في الوجود أستطيع في هذه اللّحظة أن أتذكّره. أنت تجرئين على الحديث عن الشّفقة، أنت الكائن الذي لا يستطيع أن يعيش سوى حياةٍ قصيرة جدّاً، لكنها تعتبر، مع ذلك، حياة طويلة بالنّسبة لكائن مثلك لا يصلح لشيء! أنت، أيّتها المنبوذة التي لا تملكين سكناً يُمْكنك أن تعتبريه مسكنك، ما دمت تسكنين هنا وهناك، وحيثما اتّفق! أنت تجرئين على توجيه الكلام إلى صاحب سكن مثلي، يحمل سكنه معه حيثما حلّ وارتحل؟ هيا، هيا، واصلي سرقتك للزّهور التي تُعرب عن قصورِ نظرٍ كبيرٍ ما دامت تستقبلك وتستضيفك!

- أيّها المخلوق الوضيع، عقّبت الفراشة! إنّني سألطخ جناحي

بالبقاء بالقرب منك، ما دمت مشمولة بلعابك القذر.

بعد أن تلفّظت الفراشة بهذه الكلمات، وبعد أن استعرضت ألوان جناحيها الزّاهية، ارتفعت في الهواء محلّقةً في اتّجاه مكان مشمس.

- أوه! أوه! قالت تيني وهي ترتفع في الهواء محلّقةً بدورها، يبدو لي أنّ الغرور هنا قد تلقّى درساً جيّداً.

سرعان ما احتدمت الشّمس، بعد ذلك، فوجدت تيني نفسها واقفة على رمال حارقة، حيث لمحت سلحفاة سوداء ضخمة ممدّدة. كانت السّلحفاة هامدة حتّى ظنّتها تيني حجراً أسود ضخماً؛ لكنّ حركة ضعيفة من رأس السّلحفاة جعلت تيني تفهم أنّها حيّة. وبينما ظلّت تيني واقفة وهي تتأملها، رأت ظلاً هائلاً يغطّيها. رفعت بصرها فعلمت أنّ مصدر الظّل هو زرافة ضخمة قادمة نحوهما.

- ماذا أيّتها الجميلة الصّغيرة! قالت الزّرافة، هل أنت مشغولة بالنّظر إلى هذا الكائن البائس الذي كان بإمكانه، في الحقيقة، أن يكون مجرّد حجر! ألا ترين كيف يشبه الحجر؟ أنا لا أعتقد أنّه قد تحرّك من مكانه لما يزيد عن شهر. يا له من حزمة مسكينة بلا أحاسيس!

وواصلت الزّرافة، وهي تحرّك عنقها الطّويل ببالغ الزّهو:

- كان من المفروض أن تتمّ المطالبة بأن يُخلق الجميع على الحُسن نفسه الذي أتمتّع به أنا. وعلى أيّ حال فإنّ من المستحيل العناد ومواصلة رثاء مخلوق مغضوب عليه إلى هذه الدّرجة، مثل هذا الموجود أمامنا، والذي يبدو أنّه قد تمّ القذف به على الرّمال دون أن تكون له سيقان تحمله إلى مكان آخر.

حركت السّلحفاة رأسها ورفعت بصرها ثمّ قالت للزّرافة بصوت بطيء وهادئ:

- أنت مجرّد حيوان مَعِيب وبلا جدوى، رغم طول قائمتيك وامتداد عنقك! إنّه لمن المحزن بالفعل أن نستمع إلى حيوان لا يعيش إلاّ لفترة قصيرة، يتحدّث عن تفوّقه! صحيح أنّ قوائمي قصيرة، لكنّني أستطيع، بسبب قصرها ذاك، أن أجمعها وأن أضعها في مأمن، حتّى لا يستطيع أحد أن يطأ أصابعي. أمّا عنقي فهو طويل بما يكفي كي يسمح لي بمشاهدة ما يوجد خارج بابي، لكنّه مع ذلك قصير بما يكفي حتّى أستطيع إدخال رأسي عندما أشعر بدنوّ الخطر. أمّا حياتي فهي طويلة إلى درجة أنّني أستطيع أن أتذكّر بوضوح أنّني قد عايشت عشرة أجيالٍ أو اثنيْ عشر جيلاً من عائلتك، أصبحت عظامهم الآن مُبيضَّة وهي ملقاة في الصّحراء. وعليه، فلْتحملك قائمتاك الطويلتان بعيداً عنّي حتّى لا ينزعج بصري من رؤية غرورك.

وبما أنّ المسافات الطّويلةَ لم تعد تقلق تيني، منذ أن أصبح لها جناحان، فإنّها قد حلّقت في الهواء متّجهة نحو جزء آخر من العالم، حيث الهواء أكثر طراوة. حطّت على صخور بالقرب من بَطْرِيقٍ يتأمّل بسعادةٍ الأمواجَ المزبدة وهي تتكسّر على الصّخور قرب ساقيْه.

- ما أنعش هذا الهواء! قالت تيني.

- وهو هواء منشّط أيضاً، عقّب البطريق.

وكي يثبت ما قاله لتوّه شرع يضرب بجناحيه الصّغيرَين.

- يعدّ هذا المكان، واصل البطريق قائلاً، الأنقى والأروع في العالم

برمّته.

- أصحيح؟ سألت تيني، وهي لا تعرف ما تقول.

- لا تُضيعي وقتك يا ابنتي، صاح نسر من فوق تلّة تقع في مكان وعر؛ لا تضيعي وقتك في رفقة سيّئة كهذه؛ فلهذا الكائن الذي هو نصف طائر ونصف سمكة حديثٌ لا يُحتَمل ويجعل السّامع يشعر في فمه بملوحة الماء. هو يُعتبر عاراً على كلّ عائلة الطّيور؛ فهو، أوّلاً، يمشي واقفاً مثل الإنسان، وهو، ثانياً، لا يملك جناحين، رغم ادّعاءاته؛ أمّا أنا، مثلاً، فأُعتبر ملك الطّيور، ويمكنني أن أُجري معك حديثاً بطريقة ملَكيّة. حلّقي إذن وتعالي إلي كي أُشرِّفك ببعض اللّحظات، تُجرين خلالها حديثاً معي.

- ابقيْ حيث أنت، يا ابنتي، قال البطريق مخاطباً تيني، فأنا بإمكاني أن أكون متواضعاً فلا أدّعي لنفسي فضلاً، كما يمكن لملك الطّيور هذا أن يلاحظ بطريقة ليست ملَكِيّة إلاّ بالنّزر اليسير. لكنّني، بعد هذا وذاك، مستقيم ونزيه، بينما يُعتبَر هو مجرّد سالبٍ وسارق، ممّا يجعله يلطّخ لقب الملكيّة الذي يحمله. إنّه يعدو خلف الطّرائد دون أن يشعر بتأنيبٍ للضمير، كما أنّه يلطّخ نفسه بدم الأبرياء ويستلذّ ارتكاب فظاعات من كلّ نوع.

- أتجرؤ على قول ذلك، يا طيراً هو أقرب إلى السّمك منه إلى الطيور، صاح النّسر وهو يقوم بمجهود كبير كي يمسك بالبطريق بين مخالبه. لكنّ البطريق الذي كان يعرف طباع النّسر الحاقدة، سرعان ما اختفى تحت موج البحر. ظل النّسر محلّقاً فوق الموج وهو يدور فوق

الماء دوراتٍ شاسعة، آملاً في أن يستطيع الانتقام من غريمه، لكنّ البطريق لم يعد إلى الظّهور، فوجد النّسر الغاضب نفسه مضطرّاً للعودة إلى عشّه دون أن ينتقم من البطريق الذي سبّه ومسّ، من وجهة نظره، بهيبته الملكيّة.

ارتعشت تيني وهي تسمع صراخ النّسر الإمبراطوريّ، ففرّت وحلقت بعيداً في الفضاء، إلى أن نزلت على جزء من الأرض قرب وادٍ تحفّه الورود، حيث هامت عيناها منبهرة بعدد لا يحصى من الأزهار التي تعطّر الأجواء حولها بعبق سائغ. عندئذ رأت زنبقةً عابقةً بالعطر، شكلُها مذهّب وعلى قمّتها دائرة بيضاء مثل الثّلج؛ شرعت تتأمّل باندهاش كبير شكلَها الرّائع وهيئتها التي تذكّر بهيئةِ ملكة. وعندما اقتربت أكثر من الزنبقة، لاحظت قطرات ماء تنزلق على ورقاتها وهي تلمع مثل جواهر، قبل أن تسقط على الأرض.

- اقتربي يا ابنتي، قالت الزنبقة بنبرٍ فخورٍ ومتعالٍ، فأنا لست أخجل أبداً، وإنّما خُلِقتُ كي يحبّني الناس: فمن قدَري أن أكون مصدَر سعادة بالنّسبة لمن يتأمّلونني.

اقتربت تيني من الزنبقة وهي تحاول بكثير من الاستحياء أن تشمّ رائحة الوردة الرّائعة، لكنّها سرعان ما عادت القهقرى مسرعة، لأنّها لم تشمّ سوى رائحة عطنة وغير سائغة، لم تستطع التخلّص منها إلاّ بجنْيها وشمّها باقةً من ورد البنفسج القريب منها.

- شكراً يا ابنتي، قالت زهور البنفسج، على وضعك لنا في صدرك، دون أن نكون، نحن، بحاجة لأن نمدح أنفسنا. ابقيْ هكذا على الدوام؛

لا تحتقري أبداً المتواضعين عندما تكونين برفقة الكبار والمتعالين. أمعني النّظر في هذه الزنبقة التي تعرف كيف تفرض نفسها، فمظهرها الخارجيّ يثير انتباهنا ورغبتنا، لكنّها تفتقر إلى أيّة قيمة حقيقية يمكنها بفضلها أن تجعل الانطباع الذي نأخذه عنها أوّل مرّة يبقى انطباعاً دائماً. إنّنا نأخذ في تلافيها بمجرّد أن نعرفها عن قرب. إنّ تلك الجواهر اللاّمعة المتدحرجة على أوراقها وكأنّها قطرات من ماء الورد، ليست، في حقيقة أمرها، سوى دموعٍ تسفحها هي على بشاعتها. إنّ المظهر المثير الذي ليس له أيّة قيمة حقيقية، لَيُعدُّ هِبة بلا جدوى، لا تفيد في تحصيل التّقدير أو ضمان السّعادة.

احتضنت تيني زهور البنفسج كي تشكرها على هذا الدّرس القيّم الذي قدّمته لها، ثمّ واصلت طريقها الذي قادها إلى حديقة معدّة بطريقة رائعة، حيث وجدت قطّاً فاتناً يستريح في هدوء، وهو مُقْعٍ على سطيحة تفضي إلى ممرّ.

- أيّها القط! أيّها القط! قالت تيني وهي تقترب من الحيوان الجميل النّائم، نهارك سعيد.

- أوه! نهارك سعيد، كيف حالك؟ عقّب القطّ. أنا في الحقيقة لم أرك، لأنّني كنتُ نصف نائم، فأنا قد قضّيتُ جزءاً من اللّيل في سهرة مع الفئران.

- صحيح! قالت تيني، وهل كانت السّهرة مسلّية؟

- كانت كذلك بالنسبة إليّ، قال الحيوان بخبث وهو يغمز بعينه، لكنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للفئران.

- آه! أنا أفهم أيّها القطّ، قالت تيني.

- هل ناديت عليّ؟، قال أرنب يافع، منتبه، وهو يطلّ من تحت أوراق نبتة.

- أنتَ قطّ! قال القطّ وهو يلقي عليه بنظرة محتقرة، أنتَ قطّ!

- نعم، فهم ينادونني بالقطّ في الأوساط المتميزة، أجاب الأرنب بجفاف.

- أنت مجرّد أفّاق ومغامر قرويّ، عقَّب القطّ. فأنت لا تملك ولو ميزة واحدة من ميزات النوع السنّوريّ. أين ذنَبك، يا صديقي؟ أنت قطّ! في الحقيقة....

- ذنَب؟ هذا ما كان ينقص إذن! قال الأرنب. ولأيّ شيء سيصلح الذّنَب؟ لكن أنظر جيداً إلى أذنيّ الرائعتين؛ أرِني أنت أذنيك، من فضلك.

لم يُجِرِ القطّ جواباً، لكنّه بدأ يفرك أنفه بقائمته.

- أنتِ تجرؤ على أن تحادثني، أنا! واصل الأرنب، أنا الذي يبحث عني الأشخاص الأكثر حظوة في الجوار؛ أنا الذي أزيّن غالبيّة موائدهم! أنا أعيش في أراضيَّ الخاصّة، مثل أيّ شخص ذي قيمة في البلد، أمّا أنت، أيّها التّابع الذّليل، يا ذا الأذنين القصيرتين والذّيل الطّويل، فإنّك لا تعيش إلاّ على الفئران وعلى ما تستطيع أن تصطاده، كما أنّك، بعد موتك، لا تكون صالحاً لأن تُعدّ بك أية أكلة معروفة. ها! ها! ها! أنت أيّها القطّ، في الحقيقة، لست سوى فخّ لاصطياد الجرذان. عندما تلفّظ الأرنب بتلك الكلمات، ضرب الأرض بقوائمه وابتعد

متقافزاً. وشوَش القطّ لنفسه:

- يا له من حيوان!

- كراو! كراو! صاحت ضفدعة، قريباً من تيني.

شرعت تيني تبحث عنها فوجدتها جاثية فوق أكمة وهي تستدفئ في الشّمس. وبينما كانت تيني تتفحّص الضّفدعة، أخرَجَتْ سمكة ذات عينين براقتين وزعانف فضيّة أنفَها من الماء، ثمّ خاطبت الضّفدعة الضّخمة بهذه الكلمات:

- بحق السّماء، كُفَّ أنت، أيّها الحيوان الغبيّ، عن جلبتك. إن الضّجيج القويّ الذي تحدثه يمنع صغاري من النّوم.

- يا له من هراء! قالت الضّفدعة وهي تلعب بفقاعة دون أن تلتفت إلى السّمكة. إنّك إن واصلت تصديع رأسي بموضوع صغارك، فإنّني سأطردك من مستنقعي.

- مستنقعك! أهو مستنقعك أيتها الزّاحفة! قالت السّمكة المزهوّة بنفسها؛ لماذا إذن لا تضمّينه إلى أملاكك، إن كان مستنقعك بالفعل؟ لا، لا! لا يمكنك أن تستمرّي في هذا المستنقع لمدّة أطول، فماؤه أطهر من أن تكوني أنت فيه، أنت الوحش القذر.

- لا تغضَبي هكذا أيّتها السّمكة الشّجاعة، أجابت الضّفدعة؛ فلو كنتِ كائناً سويّاً كما يجب، لكنت خرجت من الماء وأتيت كي نتبادل الحديث؛ لكنك لا تملكين أيّ شيء تستندين عليه، وأنا أشفق على حالك. أنت كائن غير تام، وبالنّتيجة، فأنت لا تستحقّين أن يهتمّ بك كائن يوجد على أرضه الخاصّة به مثلي. أنا أسمح لك بأن تقولي إنّ

المستنقع في ملْكك، لأنّني لا أحتاجه إلاّ كي أغتسل.

فاختفت السّمكة، دون أن تعمد إلى الرّد على ما تفوّهت به الضّفدعة.

واصلت تيني تحليقها الذي قادها إلى شاطئ البحر من جديد، حيث اندهشت للحظة من ظهور سرطانِ بحرٍ ضخم، يمشي مسرعاً، وكأنّه مشغول بقضية هامّة؛ لكنّ حاجزاً غير منتظر اعترضَ إحدى أرجُلهِ فانقلب على ظهره. وعندما كان ينتصب رأى أنّ رِجله كانت قد اصطدمت بمحار أتى به المد البحري إلى الشّاطئ.

- أنت يا أغبى أنواع السّمك! صاح سرطان البحر في ذروة غضبه، ألم يكن بإمكانك أن تتنحّى جانباً عندما رأيتني قادماً؟ إنني أحتجّ، فقد كنت أنت السّبب في الجرح القاسي الذي أصاب أحد مخالبي.

انفرج المحار ببطء كي يجيب قائلاً:

- من أنت سيّدي، من فضلك؟

- ألا ترى أنّك أمام سرطانِ بحرٍ رائع؟ عقّبَ.

- آه، نعم. أنا أراك، قال المحار، أنت إذن محارٌ من جنسنا!

- من جنسكم! علّق سرطان البحر باستخفاف. من جنسكم! أوَ تضع نفسك في مستواي أنا؟ أنا المخلوق الفاتن، المزيّن بالمخالب، والمالك لعينين يريان بوضوحٍ ولِدرع جيّد البناء؛ أنا الكائن الخارج عن العادة والذي أُعتبر الأكثر بروزاً ضمن عائلات المحّار الكبيرة. أنا أجد نفسي، في نهاية المطاف، موضوعاً جنباً إلى جنب مع نوع مثلك، شبيه بعلبة أو بصخرة! كائن يتقاذفه البحر يميناً وشمالاً، دون أن تكون له

القدرة حتّى على أن يهتديَ بنفسه! كائن ليس، في نهاية المطاف، سوى قطعة من الحجر مربوطة إلى قطعة أخرى!

- ها! ها! ها! صوّت المحّار وهو ينفجر ضحكاً. أيّها المخلوق المغرور والغبيّ، إنّني لا أستطيع في واقع الأمر أن أمنع نفسي من السّخرية منك. فأنت، رغم كلّ محاسنك، إنّما تمشي إلى الجانب ولا تقدر أبداً على المشي قدماً كما تفعل كلّ المخلوقات. ها! ها! ها! صوّت المحّار من جديد ضاحكاً، وهو يغلق قوقعته مستمرّاً في ضحكه.

حينئذ غطس سرطان البحر في الماء دون أن يضيف كلمة واحدة.

ابتعدت تيني عن الماء وحلّقت في اتجاه الحقول، حيث وجدت نفسها على الفور برفقة جرادة جميلة، عيناها المذهّبتان تلمعان وسط النّبات.

- كيف حالك يا حبيبتي؟ قالت الجرادة، أنا سعيدة بأن أراك، لأنّ خُلداً غبيّاً يوجد هنا بالقرب منّي وهو يزعجني جدّاً.

كانت الجرادة، أثناء حديثها، تشير إلى أنفِ خُلْدٍ، يبدو مدبّباً تحت تلّة من التّراب كانت هيَ قد نبشتْها.

- أترين، واصلت الجرادة متحدّثةً عن الخُلْد، فهو عوضَ أن يكون مرتدياً مثلي حلّة الحقول الخضراء، وأن يكون لونه مذهّباً زاهياً، ها هو يعيش فقيراً تحت الأرض، جاهلاً بكلّ شيء. فهو انطلاقاً ممّا سبق ليس إلاّ رمزاً للعبوس وللكآبة.

- لو كان الفستان الزّاهي والمذهّب أمراً ذا قيمة بالفعل، لكنتُ قلتُ إنّكِ شيءٌ غالي الثمن، قال الخُلْد، لكنّكِ ما دمتِ لا تفعلين أيّ

شيء آخر غير أن تقضي وقتكِ في الثّرثرة، فإنّني لا يمكنني أن أخصّك بالإطراء الذي تشتهين. كما أنّني أجد نفسي مضطرّاً، بطبيعة الحال، لأن أعترف بأنّني أحسن منك، لأنّني آكل الحشرات الطفيليّة التي تأكل القمح في الحقول وتحطّم النّبات الذي يأويك؛ إلى درجة أنّني أكون، رغم كوني مدفوناً تحت الأرض، شديد الاستجابة عندما يتعلق الأمر بمصالح الآخرين؛ ويجب، نتيجة لذلك، أن أنال التّقدير الذي أستحقّه على ما أقدّمه من خدمات للغَير.

– ها هي ذي الاستقامة تهزِم الغرور، من جديد! فكّرت تيني وهي تحلّق بعيداً عن هذين الخصمين.

– إلى أين تتوجّهين بكلّ هذه السّرعة؟ سأل طير قُرقُف أزرق اللّون وهو يهتزّ على جذع شجرة.

– أنا مسرعة كي أرى أكبر قدر من الأشياء أستطيع رؤيته، أجابت تيني، فمن المفروض أن أفقد الجناحين عند مقدم المغيب.

– لقد سقطا لتوّهما، قال الطّائر، وقد عملت أنا على تجنيبك السّقوط.

كانت تيني، أثناء حديث الطائر، في غاية الاندهاش وهي ترى جناحيها مُلقيَيْن على الأرض.

– شكراً لك أيّها الطائر الطّيب الصّغير! قالت تيني بنبر حزين. لكن، كيف سيمكنني الآن أن أعود إلى بيتي بعد أن فقدتُ جناحي؟

– كوني شجاعة، قال الطّائر. إنّ السّاحرة الصّغيرة التي سلّمتك الجناحين ستحميك. واصلي طريقك إذن وكوني مطمئنّة.

قال الطائر تلك الكلمات وطار محلّقاً في الفضاء.

اقتربت من الطّفلة الموشكة على البكاء نعامةٌ ضخمةٌ وهي تهتزّ في مشيتها، عارضةً بزهوٍ ظاهرٍ ريشاً رائعاً، وقالت:

- أيّتها الفتاة الصّغيرة، ربّما كان بإمكانك أن تقرّري مَن هو الأجمل؛ أنا أم هذا الطّائر القبيح المعلّق على الشّجرة التي ترينها هناك؟

- طير قبيح؟ أأنا كذلك بالفعل؟ قال طائر طوقان متفرّد، وهو يفرقع بمنقاره الذي يبدو معادلاً في كبره لكلّ جسده. أنا، في الحقيقة، لا أستطيع العثور على طائرٍ واحدٍ يكون أكثر غفلةً من النّعامة التي يغطّي جسدَها ريشٌ وافر للغاية، بينما قائمتاها عاريتان كلّية. يصلح جناحاها، بجمالهما الأخّاذ، طُعماً للأعداء الذين يسعون إلى تدميرها، لكنّهما يفتقدان للقوّة كي يحملاها بعيداً عن الخطر. إنّ منقاري وحده، في الحقيقة، لَأَجدى بكثير من شخصية النّعامة كلّها.

- وإذن، فليكن القرارُ قرارَ الطّفلة الصّغيرة، قالت النّعامة.

كانت تيني تحبّ النّعامة الجميلة، كما أنّها كانت تجد صعوبة بالغة في منع نفسها من الضّحك في وجه طائر الطّوقان الغريب، لكنّها استطاعت، في نهاية المطاف، أن تتشجّع وتقول:

- أجدك أيّتها النّعامة الأجمل؛ أجدك أجمل بكثير.

أحسّ طائر الطّوقان بأنّه مظلوم فحلّق بعيداً. أمّا النّعامة التي أسعدها قرارُ الطّفلة، فقد التفتت نحو تيني في قمّة الانفعال وقالت:

- إلى أين ستذهبين أيّتها الصغيرة الجميلة؟

- أوه! سأقطع مسافةَ أميالٍ كثيرة، بعيداً، بعيداً! قالت، وأخشى

ما أخشاه هو ألاّ أعود لرؤية بيتي من جديد أبداً، فأنا قد أكثرت من التّحليق، من هذه الجهة إلى تلك!

- اصعدي على ظهري، قالت النّعامة التي انحنت كي تستطيع تيني الاستقرار بين جناحيها. وبمجرّد أن أحسّت أنّ الطّفلة قد اعتدلت على ظهرها، بدأت مسيرتها، مسرعة مثل الريح، عبر الهضاب والوديان والرّمال إلى أن وجدت نفسها على شاطئ البحر. هناك توقفت النعامة عاجزة عن مواصلة رحلتها برفقة محميّتها الصّغيرة.

- والآن، ما الذي عليَّ أن أقوم به أيتها النّعامة الطّيبة؟ قالت تيني.

- انتظري قليلاً، قالت النّعامة، فها هو ذا قادمٌ محارٌ رائع. أنا متأكّدة من أنّه سيساعدك على عبور البحر.

ظلّ المحار يرقص فوق الموج إلى أن لامس رمال السّاحل.

- ادخلي أيتها الطّفلة الصّغيرة، وسأنقلك إلى الجهة الأخرى من الماء، حتّى أوصلك إلى بيتك سالمة، فقد أمرتني السّاحرة الطّيبة بأن أقوم بذلك.

لم تتردّد تيني للحظة واحدة. صعدت إلى المحار الذي حملها بسلاسة وسط الأمواج المُرْغية، وقبل أن تغيب الشّمس، نزلت قريباً جدّاً من بيتها.

وعندما أخذت تمشي، يقودها النّور الذي يلمع في نافذة كوخها، شرَعت تفكّر في أن السّاحرة كانت طيّبة للغاية عندما أرادت أن تعلّمها كم هو سهلٌ أن نرى مساوئ الآخرين، بينما يجعلنا حبّنا لذواتنا نعتقد أنّنا كاملون.

شباب بييرو

أطفالي الأعزّاء

إن ألحّ آباؤكم على قراءة هذه الحكاية، أخبروهم بأنّها كُتِبَتْ لكم أنتم وليس لهم؛ قولوا لهم إنّ الحكايات الخاصّة بهم هي: **الملكة مارغو وأموري والفرسان الثّلاثة والسيّدة مونسورو ومونتي كريستو وكونتيسة شارني والضّمير وراعي أشبورن**[1].

أمّا إن أصررتم على معرفة من كتبَ هذه الحكاية، باعتبار أنّ الأطفال في سنّكم يكونون فضوليين ويحبّون أن يعرفوا كلّ شيء، فإنّني سأقول لكم إنّ الكاتب هو شخص يُدعى أراميس[2]، وهو قسّيس أنيق وجذّاب، كان قبل ذلك فارساً.

وإن شئتم أن تعرفوا قصّة أراميس، فإنّني سأقول لكم إنّكم ما زلتم

---

(1) جميع الآثار الأدبيّة المذكورة هي من روايات ألكساندر دوما التّاريخيّة ورواياته في مغامرات الفرسان، يعرّف النّاشئة بها وكأنّه يدعوهم، في شيء من الدّعابة، إلى أن يكونوا من قرّائها في المستقبل.

(2) هو أحد الأبطال الأربعة في رواية ألكساندر دوما الشّهيرة **الفرسان الثلاثة** *Les Trois Mousquetaires*، يقدّمه هنا على سبيل الدّعابة باعتباره مؤلّف الحكاية الرّاهنة.

أصغرَ من أن يُحسن بكم أن تقرأوها.

وإن سألتم، أخيراً، لمن كتب أراميس حكايته هذه، فإنّني سأجيبكم بأنّه قد كتبها من أجل أطفال السيّدة لونغفيل، الذين كانوا أمراء صغاراً ووسيمين، متحدّرين عن الرّجل الوسيم دونوا الذي قد تكونون ربما سمعتم كلاماً عنه، خلال أزمنة القلاقل التي ندعو الله أن لا يريكم مثيلاً لها، والتي أطلقوا عليها اسم «أزمنة المقلاع»[1].

والآن، يا أطفالي الأعزّاء، علَّ أراميس يسلّيكم كما سبق له أن سلّى آباءكم وأمّهاتكم عندما كان يخطّط ويحبّ ويقاتل ضمن مجموعة أصدقائه الثّلاثة، أتوس وبورتوس ودارتانيان[2].

عَشاء الحطّابَين

كان يا ما كان، يا أطفالي الأعزّاء، كان، في جانبٍ من بلاد بوهيميا، حطّاب متقدّم في السّنّ وزوجته، يعيشان في كوخ متواضع في عمق الغابة.

لم يكونا يملكان من ثروة سوى ما أعطاه الله إلى النّاس الفقراء، من حبٍّ للعمل ومن ذراعين قويّتين لإتقان ذلك العمل.

كانت تُسمَع، كلّ يوم، منذ الصّباح وإلى غاية المساء، ضربات فأس قويّة تُصدي بعيداً في الغابة، وأغانٍ سعيدة تصاحب ضربات الفأس؛

(1) فترة اضطرابات سياسيّة عرفتها فرنسا في السّنوات بين 1648 و1653، بباعث من سياسة ماليّة وضرائبيّة شديدة الإجحاف.

(2) هم، إلى جانب أراميس الذي سبق ذِكره، الأبطال الثلاثة الآخرون في رواية الفرسان الثلاثة.

كان ذلك كلّه يصدر عن الحطّاب وهو يشتغل.

وعندما كان يقبل اللّيل، كان الحطّاب يجمع ما حطبه خلال النّهار ويعود مقوّس الظّهر تحت حمله، نحو كوخه حيث يجد، قرب نار متّقدة، شريكته الطّيبة تبتسم له عبر أبخرة وجبة المساء، ممّا كان يسعده ويُبهج قلبه.

كان الحطاب قد قضى أعواماً طويلة على تلك الحال. لكنّه لم يعد، ذات مساء، إلى الكوخ في الوقت الذي اعتاد العودة فيه.

حصل ذلك خلال شهر ديسمبر/ كانون الأوّل، ممّا يعني أنّ طريق الغابة كانت مكسوة بالثّلوج، والرّياح التي كانت تهبّ بعنف كانت تحمل في طريقها كتلاً كبيرة بيضاء تنتزعها من الأشجار، فتبدو لامعةً وهي تعدو في اللّيل. كانت تبدو، يا أطفالي، وكأنّها أشباح ضخمة بيضاء - شبيهة بما يحدث في حكاياتكم المفضّلة - تعدو في الفضاء نحو موعدها الذي يكون في منتصف اللّيل.

شعرت العجوز مارغُريت - هذا هو اسم زوجة الحطّاب - كما تتصوّرون أنتم بالتأكيد، بقلق شديد.

بدأت تخرج باستمرار إلى عتبة الكوخ وهي تُصيخ السّمع وتنظر إلى الطّريق بملء عينيها؛ لكنّها لم تكن تسمع أيّ شيء آخر غير الرّياح القوية التي تعصف بالأشجار، ولا ترى غير الثّلج الذي يشعّ بياضه بعيداً على الطّريق.

عندئذ كانت ترجع قرب الموقد فتتهالك على كرسيّ خشبيّ، قلبها مترع بالمشاعر، فتسيل دموعها من عينيها.

وعندما كانت تصبح على تلك الحال من الحزن، كان كلّ ما بداخل الكوخ يصبح حزيناً بدوره. فالنّار التي عادةً ما تكون متأجّجة وملتهبة في الموقد، كانت تشرع تنطفئ بالتّدريج وتخبو تحت الرّماد. والقِدْر التي كانت قبلَ قليلٍ تهْدر، تشرع، حينئذ، تبكي بدموع من حساء.

كانت قد انقضت ساعتان طويلتان عندما سمعت العجوز، فجأة، لحنَ أغنيةٍ رتيبةٍ على بُعد خطوات من الكوخ. ارتعشت مارغُريت وهي تستمع إلى هذه الإشارة التي طالما اعتُبرت إخطاراً بعودة زوجها، فانطلقت بسرعة نحو الباب إلى أن أصبحت قرب زوجها، فارتمت في أحضانه.

- مساء الخير، يا مارغُريت الطّيبة، مساء الخير، قال الحطّاب؛ لقد تأخّرتُ قليلاً، لكنّك ستكونين سعيدة عندما ترين ما الذي أتيت به.

عندما تلفّظ بتلك الكلمات وضع على المائدة، بمرأى من العجوز المشدوهة، مهداً جميلاً مصنوعاً من السّوْحر، وبداخله طفل صغير ممدّد، ذو إهاب لطيف وشكل رقيق، ممّا كان يجعل الرّوح تبتهج لمجرّد رؤيته.

كان يرتدي قميصاً أبيض طويلاً، يشبه كُمّاه المعلّقان ساقَي حمامة مثنيّتين. وكانت ساقاه تبدوان في جوربين أبيضين مثل القميص، وكأنّهما ساقا غزال، في حين أنّ حذاءه كان مزيّناً بخيوطٍ معقودة في شكلِ ورداتٍ، وعقُبه أحمر اللّون. وكان عنقه محاطاً بقماش من قطن مطرّز بدقّة، كما أنّه كان يعتمر قبّعة من اللّبد بيضاء تغطّي أذنيه بكثيرٍ من الغنج.

لم يسبق لذاكرة الحطّاب أن اختزنت صورة طفلٍ بمثلِ ذلك البهاء؛ غير أنّ ما كان يفتن السيّدة مارغُريت بشدّة هو لون الطّفل الصّغير، الذي كان شديد البياض، إلى درجة أنّه كان بالإمكان القول إنّ رأسه قد نُحِتَ من مرمر أبيض.

- باسم القدّيسين! صاحت المرأة الطّيبة وهي تجمع كفّيها. كم هو شاحبٌ وممتقع!

- ليس هذا بغريب، قال الحطّاب. فهو قد قضى ثمانية أيّام وسط الثّلج قبل أن أعثر عليه.

- باسم القدّيسة العذراء! ثمانية أيّام وسط الثّلج، ولا تخبرني بذلك على الفور. لقد تجمّد الصّغير المسكين!

ودون أن تضيف العجوز كلمة واحدة أخرى، حملت المهد ووضعته إلى جانب الموقد ثمّ ألقت في النّار بقطعة كاملة من الخشب.

ارتعشت القِدر التي لم تكن تنتظر إلاّ ما قامت به العجوز، وشرعت تغلي بطريقة ضاجّة، ممّا جعل الطّفل الصّغير، الذي أثارته الرّائحة المنبعثة من القِدر، يستيقظ منتفضاً. اعتدل في مهده وشمّ الهواء من حوله مرّات عديدة متوالية، ثمّ مرّر لسانه النّحيل على حافة شفتيه، فانقذف خارج المهد وهو يطلق صرخة ابتهاج صغيرة. حصل ذلك أمام الأنظار المندهشة للعجوز مارغُريت وللحطّاب العجوز، اللّذين لم يكن بإمكانهما أن يصدّقا ما يريانه.

كان الطفل، يا صغاري الأعزّاء، قد علم بوجود عشاء العجوزين المسكينَين.

سارع، في طرفة عين، نحو القِدر وأغطس فيها ملعقة خشبيّة كبيرة، ثمّ سحبها وحملها إلى فمه ممتلئة وساخنة. لكن، هوب! ما إن لمست شفتاه الملعقة حتّى ألقى بها أرضاً وشرع يقفز عبر الغرفة، وهو يقوم بتكشيرات غريبة من جهة، وتدعو إلى الشّفقة، من جهة ثانية، ممّا جعل الحطّاب وزوجته يشعران بقلق كبير، وهما لا يعرفان إن كان عليهما أن يضحكا ممّا يريانه أم أن يبكيا.

كان صديقنا الأكول قد أحرق شفتيه.

لكن، ومع ذلك، فإنّ أمراً ما كان يُشعر العجوزين الطّيبين ببعض الاطمئنان؛ ذلك أن الطّفل الصّغير لم يكن قد تجمّد حقّاً، رغم أنّه ظلّ شديد البياض مثل الثّلج.

وعندما كان الطّفل على تلك الحال من الهياج داخل الكوخ، كانت العجوز مارغُريت تقوم بكلّ الاستعدادات لتقديم العشاء: وضعت القِدر على المائدة، في حين كان الحطّاب قد شمّر عن ساعديه مستعدّاً لتوزيع الحساء. عندئذ أتى عفريتنا الصّغير، الذي كان يتابع كلّ ما يحدث داخل الكوخ بطرف عينيه، كي يجلس على غطاء المائدة، فاحتوى القِدر بساقيه الصّغيرتين، وشرع يتناول ما فيها بملء فيه، بينما تشي سيماء وجهه بأنّه يشعر بانشراح كبير. عندما شاهد الحطّاب وزوجته أنّ الطّفل في كامل عافيته، عجزا عن التّحكم في نفسَيهما.

أخذا يضحكان؛ لكنّ ضحكهما كان قويّاً، وهما لم يأخذا حذرهما، فلم يمسكا بجانبيهما، كما كان ينبغي لهما أن يفعلا في حالة مثل هذه، ممّا جعلهما، يا أطفالي الأعزّاء، يسقطان على ظهرهما ويتدحرجان هنا

وهناك على أرضيّة الكوخ.

وعندما عادا إلى الاعتدال في مكانهما، بعد ربع ساعة من ذلك، كانت القِدْر قد أضحت فارغةً تماماً، أمّا الطّفل فكان ينام نوماً ملائكيّاً في مهده.

- ما ألطفه! قالت العجوز مارغُريت التي كانت ما تزال تضحك.

- لكنّه أكل عشاءنا! قال الحطّاب الذي كان وجهه قد عاد إلى جدّيته.

بعد ذلك ذهب العجوزان الطّيبان، اللّذان لم يتناولا شيئاً منذ الصباح، إلى فراشهما كي يناما.

ما يمكن أن ينتج عن العثور على طفل

استيقظت العجوز مارغُريت، في اليوم التّالي، باكراً، كي تذهب إلى النّساء الثّرثارات في الضّيعة المجاورة وتحكي لهنّ قصّة الطّفل الصّغير. حكت العجوز قصّة الطّفل بطريقة جذّابة ممّا جعل أذرع المستمعات إليها تسقط من الدّهشة، وراحت النّساء المستمعات يتبارين في الصّراخ عند سماعهنّ الحكاية.

بعد ذلك بلحظات قصيرة، كانت كلّ الألسن آخذة في العمل. ورغم أنّ الفجر لم يكن قد بدا بعدُ على الأفق، فإنّ الخبر كان قد انتشر على مدار عشرة أميالٍ.

غير أن الخبر، وكما يحدث عادةً، كان قد اتّخذ في طريقه نحو الانتشار أبعاداً مُرعبة: لم يكن الأمر قد عاد مقتصراً، كما كان الشّأن في البداية،

على طفل صغير أكل كلّ عشاء العجوزين المسكينين اللّذين استضافاه؛ وإنّما أصبح الأمر يتعلّق بدبّ أبيض ضخم اقتحم كوخ الحطّابين وافترسهما بطريقة وحشية.

وأبعد من ذلك قليلاً، أي في المدينة التي هي عاصمة المملكة، كان الخبر قد أصبح أكثر من ذلك: فالدّب الأبيض الذي افترس العجوزين حوّلته حكاياتهم إلى وحشٍ ضخمٍ، شبيهٍ بجبل، افترسَ في لقمة واحدة عشرين عائلة كاملة من عائلات الحطّابين، مع فؤوسهم.

ولذا فإنّ سكّان المدينة عزفوا عن الإطلال برؤوسهم من نوافذ منازلهم، كما جرت العادة، ليتنشقّوا نسيم الصّباح؛ فهم قد ظلّوا في بيوتهم متشبّثين بأسرّتهم، رؤوسهم تحت الأغطية، لا يجرؤون حتّى على التّنفس بطريقة مسموعة، من فرط شعورهم بالخوف.

غير أنّ مَن أحدث كلّ ذلك الرّعب ليس سوى طفل صغير؛ ممّا يعني، يا أصدقائي الأعزّاء، أنّ عليكم دائماً أن تنظروا إلى الأمور عن قربٍ، قبل أن ترتعبوا منها.

بيد أنّ ملك بوهيميا كان يستعدّ، خلال ذلك اليوم، لعبور المدينة في موكب فخم، كي يفتتح، كما جرت العادة، الدّورة الجديدة لبرلمانه؛ وهو ما يعني، ببساطة، يا أطفالي الصّغار، أنّه كان على صاحب الجلالة أن يردّد كلاماً يمدح فيه شعبه، طمعاً في تلقّي هدايا ثمينة.

كانت الظّروف خطيرة للغاية؛ ذلك أنّ الملك كان سيطالب بأداء ضرائب جديدة فُرِضَت على الشّعب بطريقة عبثيّة. لكنّنا إن تركنا طابعها العبثيّ جانباً، فإنّها كانت ستؤدّي إلى تحصيل عدد معتبر من

الملايين.

لكنّه كان سيطالب أيضاً ببعض العطايا، بعضها من أجل الابنة الوحيدة للملك، والتي كان عمرها يصل، آنئذٍ، إلى خمسة عشر عاماً، وبعضها الآخر من أجل الأمراء والأميرات الذين لم يكونوا قد ولدوا بعد، لكنّ الملك والملكة لم يكونا قد يئسا بعد من إنجابهم ذات يوم.

بذل الملك، منذ عدّة أشهر، صباحَ مساءَ، جهوداً جبّارة ومضنية، وهو محبوس في مكتبه، عيناه محدقتان في الأرض، كي يحفظ عن ظهر قلب الخطاب الشّهير الذي أعدّه له، بهذه المناسبة، السيّد ألبيرتي رونارذينو، وزيره الأعظم. لكنّه لم يستطع أن يحتفظ في ذهنه من الخطاب ولو بجملة واحدة.

- ما العمل؟ قال الملك، ذات مساء، وهو يتهاوى على عرشه، أنفاسه متلاحقة من جرّاء المجهود المضني الذي بذله.

- سيّدي، ليس هناك ما هو أسهل من ذلك، أجاب السيّد رونارذينو الذي ولج الغرفة لتوّه...!

وبجرّة قلم واحدة اختزل الوزير الأعظم رونارذينو الخطابَ إلى النّصف، لكنّه، بالمقابل، ضاعفَ، لتعويض ما اختزله، رقم الضّرائب والعطايا.

وعليه، فقد خرج الملك من قصره، مصحوباً بموكب كبير، ومشى على وقع الخطوات القصيرة لبغلته نحو المكان الذي ستنعقد فيه الجلسة الملكيّة.

كانت الملكة على يمينه وهي ممددّة كلية في هودج يحمله اثنان

وثلاثون من العبيد السّود الأكثر قوّة من بين جميع أندادهم.

أمّا على يساره، فكانت تمشي، ممتطيةً فرساً أغبسَ اللّون، زَهرةُ اللوز، وارثةُ المملكة وأجمل أميرة تعيش على وجه الأرض.

وفي الصّف الخلفيّ، كانت توجد شخصية سامية، تلبس ملابس شرقية فاخرة، لكنّها دميمة إلى درجة إشعار من يراها بالخوف؛ كانت تلك الشّخصية محدّبة وركبتاها تكادان تكونان متلاصقتين، وشعر لحيتها وحاجبيها ورأسها شقرته حادّة، ممّا كان يصبح معه مستحيلاً النظرُ إليها دون إغماض العينين بين الفينة والأخرى. اسم هذه الشّخصية السّامية هو آزور، وهو محارب كبير، لا يكفّ عن مقاتلة جيرانه. ولأسباب سياسيّة جعله ملك بوهيميا، بالأمس، يخطب ابنته زهرة اللّوز. وقد أراد هذا ذلك الرّجل الدّميم أن يحضر تلك المناسبة كي ينتزع، بما يوحي به من رعب، تصويتاً عاجلاً على العطايا التي تخصّ خطيبته.

وكان يمشي إلى جانبه السيّد روناردينو وهو يبتسم خلسةً تحت لحيته، مفكّراً في الضّرائب الضّخمة التي سيُسحق تحت ثقلها شعبُ بوهيميا الطّيب. وكلُّ ذلك بفضل تدبيره هو.

لم يكن الموكب قد قطع بعدُ مائة خطوة، عندما ارتسمت المفاجأة على الوجوه. كانت الحوانيت مغلقة والأزقّة خالية تماماً من المارّة.

وقد تضاعفت المفاجأة عندما أتى نذيرٌ يخبر بأنّ قاعة البرلمان خالية.

- بحقّ حذْبتي[1]! ما الذي يعنيه كلّ هذا؟ صاح الأمير آزور الذي لمح وجه زهرة اللّوز وهو يشع ببهجةٍ عند سماعها لهذا النبأ. أتراهم

(1) يمين ساخر يعرب عن غطرسة صاحبه، التي نرى على امتداد الحكاية أمثلة أخرى عليها.

يحاولون تضليلي؟

- بالفعل، ما الذي يعنيه كلّ هذا، يا سيّد روناردينو، سأل الملك، ولماذا لا أرى شعبي ها هنا، على جنبات الطّريق التي أمرّ منها، وهو يصيح كما جرت العادة بذلك: «عاش الملك!»

لم يعرف الوزير الأعظم، الذي لم يكن حدثُ اليوم قد تناهى إلى سمعه بعد، بما يردّ، فصفعه الأمير آزور على خدّه وهو يغلي من الغضب.

رأى الأمير الشّرير، مرّة ثانية، زهرة اللّوز تبتسم تحت نقابها، فحصل لديه اليقين بأنّهم كانوا بالفعل يضلّلونه.

- هذه المزحة، يا ملك بوهيميا، صاح الأمير آزور وهو يضغط أسنانه، ستكلّفك غالياً؛ قال ذلك ثمّ همز فرسه وانطلق في عدْو سريع.

أصبحت كلّ الوجوه ممتقعة، عند سماع تلك الكلمات التي تعني من بين ما تعنيه إعلان حرب، باستثناء وجه روناردينو الذي أصبح أحمر اللّون.

بعد ذلك ساد اضطراب عامّ. فرّ الملك وحاشيته إلى القصر بحثاً عن أسلحتهم، أمّا العبيد الاثنان والثلاثون فقد تركوا على الفور هودج الملكة كي يكون عدْوهم سريعاً.

لكن، ولحسن الحظّ، فإنّ صاحبة الجلالة، التي كانت تظن أنّها تحضُر الاحتفال الملكيّ، كانت تغطّ في نوم عميق.

لنلخّص الآن الأحداث التي جرت.

مملكة مترامية الأطراف تعيش في اضطراب، وزواج لم يكتمل، وإعلان حرب، وملكة عظيمة متروكة في هودجها على قارعة الطّريق؛

كلّ ذلك حصل لأن حطّاباً مسكيناً كان قد عثر في اللّيلة السّابقة على طفل صغير في عمق الغابة.

هكذا ترون، يا أطفالي الصّغار، أن أمراً صغيراً يمكن أن يلقي بأثره على مصير ممالك كبيرة!

الاحتفال ببيرو

كان للمشهد الذي حكيناه لتوّنا أثر بالغ على ذهن الملك، ممّا جعله، بمجرّد عودته إلى قصْره، يلبس بذلته الحربيّة التي علاها الصّدأ، لأنّه لم يرتدِها منذ آخرِ حرب. ثمّ شرَعَ في إجراء تمرينات في المُسايَفة ضدّ «مانيكانِ»[1] فارسٍ بلباسٍ شرقيّ، يمثّل الأمير آزور.

طعن بسيفه بطنَ أمير «المانيكان» أكثر من مائة مرّة، وفي لحظة راودته فكرةُ أنْ يستقدم إليه السيّد بامبولينو، عمدةَ المدينة، كي يعرف منه ما الذي يحصل لشعبه.

بعد زيارةِ منزلِ العمدة بامبولينو وتفتيشٍ دقيقٍ لأدنى ركنٍ فيه، عثروا عليه، أخيراً، تحت حُزَم التّبن في عمق مخزن البيت، وهو لا يرتدي سوى قميصٍ قصيرٍ لا يكاد يُرى. ومخافة أن يتمّ افتراسه، كان الرجل المسكين قد وضع في عنقه عِقداً جلدياً، تنتصب عليه إبر حادّة، شبيهاً بما اعتاد الرعاة أن يضعوه في أعناق كلابهم كي يجبروا الذّئاب على عدم الاقتراب منها.

(1) تمثال خشبيّ، كتماثيل النّساء الخشبيّة في مخازن الأزياء، يصوّر فارساً ويُستخدَم في تمارين المُسايَفة.

وعندما استُقدِم العُمدة أمام عرش الملك، لم يستطع، بسبب ارتعاشه الشّديد من البرد، إلاّ بصعوبة أن يسرد حكاية الوحش وأفعاله الشّنيعة.

عندما انتشر خبر الوحش في القصر، خرجت كلّ الحاشية إلى السّاحة، إلاّ أنّ الملك الذي كان يشعر برغبة في القتال، قرّر في اللّحظة ذاتها أن يتوجّه لمطاردة الوحش، رغم تحفّظات السيّد رونارديو الذي ادّعى أنّ من الأجدى الالتجاء إلى السبُل الدبلوماسيّة، وذلك بأن يُقَدَّم للوحش، قصدَ تغذيته، يوماً بعد يوم، عددٌ مناسب من الرعايا.

- فليكنْ! قال الملك؛ لكن عليك، أيّها السيّد رونارديو، بوصفك الوزير الأعظم، أن تفكّر بعمقٍ، لأنك ستكون مكلّفاً بالمفاوضات.

فكّر سعادة الوزير، لكنّه لم يلحّ على فكرته.

انطلق الملك، إذن، في حملة على رأس حاشيته، محفوفاً بأكبر عدد ممكن من الحرّاس.

كانت زهرة اللّوز شديدة الشّغف بالصّيد، ولذلك انضمّت إلى الموكب، وسارت في ركابه متمايلة على فرسها الأبيض، الذي كان يندفع في الحملة بنشاطٍ، فرحاً وفخوراً بأن تكون على صهوته أميرة بكلّ ذلك الحُسن.

أمّا بالنّسبة للملكة التي لم ينتبه أحد لغيابها منذ الصّباح، بسبب خطورة الأوضاع، فإنّها كانت نائمة في عرض الطّريق داخل هودجها.

سار الموكب لساعات طويلة دون أن يجد في طريقه أيّ أثر لكائنات حيّة. وفجأة خرجت، كما لو بفعل السِّحر، امرأة عجوز مسكينة ثيابها رثّة، من وسط الأدغال التي تحفّ بالطريق.

تقدّمت مستندة إلى عكازة كبيرة بيضاء، إلى أن أصبحت قُدّام الملك، فمدّت كفّها نحوه قائلة بصوت منكسر:

- صدَقة، أيّها السيّد الطّيب، صدقة من فضلك. فأنا جائعة جدّاً وأشعر ببرد شديد.

- تراجعي أيّتها المشعوذة، واذهبي إلى حال سبيلك! صاح السيّد رونارديو. هيّا، عودي إلى الوراء وإلاّ ألقيت عليك القبض ورميت بك في السّجن.

لكنّ مظهر العجوز كان من البؤس بحيث أشفق الملك على حالها فرمى نحوها بصُرّته المليئة بالذّهب.

زهرة اللّوز، بدورها، دسّت في كف المرأة المسكينة، دون أن ينتبه إليها أحد، عقداً رائعاً من اللؤلؤ فكّته من عنقها.

- خذي هذا، أيّتها السيّدة الطّيبة، قالت لها بصوت خافت، وتعالي لزيارتي غداً في القصر.

لكن، ما إن نطقت زهرة اللّوز بتلك الكلمات حتّى اختفت العجوز المتسوّلة، فعثر الملك - وهو أمر غريب للغاية - على صرّته المليئة بالذّهب في جيبه، كما أن عقد اللّؤلؤ كان يلمع بشكل رائع على الجيّد الجميل لزهرة اللّوز.

وحده السيّد رونارديو بحث في كلّ ثيابه، ولم يعثر على صرّته التي هو متأكّد، مع ذلك، من أنّه كان قد حملها معه، قبل أن يخرج.

وأبعد من هناك بمائة خطوة، التقت فرقة الملك براعٍ شابّ يعزف مطمئناً على نايه وهو يحرس أغنامه المسكينة التي كانت تجد صعوبة

كبيرة في العثور على قليل من العشب تحت الثّلوج.

- هيه! أنت أيّها الصّديق! صاح الملك، هل يمكنك أن تدلّنا على الجهة التي يوجد فيها الوحش المفترس الذي نحن بصدد مطاردته؟

- سيّدي، قال الرّاعي وهو ينحني باحترام أمام الملك بلطفٍ وبرقّة يصعب أن ننتظرهما من شابّ يعيش في تلك الظّروف البائسة، لقد أخطأتم يا صاحب الجلالة، كما أخطأ كثيرون آخرون غيركم؛ إنّ الحيوان المفترس الذي سمعتم عنه ليس البتّة حيواناً مفترساً، إنّه طفل صغير بريء تماماً، عثر عليه حطّاب عجوز بالأمس في الغابة التي ترونها هناك، هناك، خلف الأكمة.

عندئذ شرع يصف للملك ذلك الطّفل الصّغير، فحدّثه عن بياض بشرته الذي يفوق بياض أيّ شيء أبيض آخر في الكون، ممّا جعل الملك، وهو مناصر كبير للنزعة الطّبيعيّة، يتصوّر على الفور مشروعاً يتعلّق بوضع هذه الظّاهرة الصّغيرة في قمقم من كحول، قصدَ الحفاظ عليها.

- نحن نرغب، أنا وابنتي زهرة اللّوز، قال الملك بجدّية، في أن نرى كائناً بهذه الرّوعة. فهلاّ تفضّلت، يا صديقي الصّغير، بأن تكون دليلاً لنا؟

- أنا تحت أمر جلالتكم، أجاب الرّاعي الشابّ الذي كان قد أصبح أحمر مثل حبّة كرز، وهو يسمع اسم زهرة اللّوز.

انطلقت القافلة تمشي تحت قيادة الدّليل الشابّ، الذي كان يعرف كلّ ممرّات الغابة. وبما أنّه قد قاد القافلة عبر طريق مختصر، فإنّهم قد

وصلوا، بعد ساعة من المشي، إلى كوخ الحطّاب.

ترجّل الملك من على بغلته وطرق الباب.

- من الطّارق؟ سأل صوت صغير سائغُ الرّنين، وهو يتقدّم نحو الباب.

- هذا أنا، الملك.

عندما نطق الملك بتلك الكلمات انفتح الباب من تلقاء نفسه، مثل باب مغارة علي بابا الشّهيرة، فبدا الطّفل الصّغير على العتبة وهو يحمل في يده قبّعة اللّبد البيضاء.

لا شكّ أنّكم، يا أطفالي الأعزّاء، كنتم ستتفادون تماماً أن تجدوا أنفسكم هكذا وجهاً لوجه مع أحد كبار ملوك الدّنيا. أنا أتصوّر أن بعضاً منكم، لو وجد نفسه في الوضعيّة نفسها، لَسارع إلى الاختباء في ركن من البيت وهو يخفي وجهه بكفّيه معاً، مع جعْل أصابعه تنفرج قليلاً حتّى يتمكّن من أن يرى إن كان الملوك قد خُلقوا على نفس الشّاكلة التي خُلق عليها باقي البشر؛ لكنّ الطّفل الصّغير الواقف على العتبة، لم يقم بأيّ شيء من ذلك؛ تقدّم برقّة متناهية نحو صاحب الجلالة، ووضع ركبته على الأرض ثمّ قبّلَ باحترام بالغ هُدبَ معطفه. أنا، في الحقيقة، لا أعرف أين تعلّم الطّفل الصّغير كلّ ذلك. عندئذ التفت نحو زهرة اللّوز وحيّاها برقّة كبيرة وهو يقدّم لها كفّه الصّغيرة البيضاء كي يساعدها في النّزول من على فرسها.

بعد ذلك، ودون أن يعير اهتماماً للسيّد رونارْدينو، الذي كان ينتظر أن يعامله الطّفل بالطّريقة اللّبقة نفسها التي عامل بها الملك وابنته زهرة

اللّوز، دعا الملكَ والأميرة، بحركة لطيفة، إلى الجلوس.

أمّا الحطّاب وزوجته، اللّذان كانا قد جلسا إلى المائدة كي يتناولا عشاءهما، قبل الوقت المعتاد بساعتين، فقد ظلاّ منبهرين وهما يريان كلّ تلك الشّخصيات الكبيرة، فشرع قلباهما يخفقان بسرعة وبقوّة.

– أيّها الزوجان الطيّبان، قال الملك، سأجعل منكما شخصين غنيّين، بل غنيّين جداً، إن مكّنتماني من أمرين: أن تسلّماني، أوّلاً، هذا الطّفل الصّغير الذي أريد أن أجعله قريباً جداً منّي، وأن تقدّما لي، بعد ذلك، هذا الطّعام الذي يصعد بخاره، والذي يبدو لذيذاً، فأنا قد ركبت بغلتي طيلة النّهار، ممّا يجعلني أشعر بجوع مؤلم.

كان الحطّاب وزوجته حائرين تماماً، ممّا جعلهما يفشلان في العثور على كلمات يردّان بها على طلب الملك.

– سيّدي، قال الطّفل الصّغير، يمكنكم أن تأمروني كما تشاؤون، فأنا في خدمتكم ومستعدّ لأن أذهب معكم حيث تريدون. أنا أحبّ فقط من جلالتكم أن تتفضّلوا بالسّماح لي بأن آخذ معي هذين الشّخصين الطّيبين اللّذين عثرا علي وآوياني، واللّذين أحبّهما حبّاً شديداً وكأنهما أبواي الحقيقيّان. أمّا بالنّسبة لهذا الطّعام فهو لكم. وبعد هذا أجرؤ على أن أطلب منكم أن تسمحوا لي، رغم أنني صغيرٌ بعدُ، بأن أكون ساقيَكم في قصركم.

– أنا موافق، قال الملك وهو يربّت بلطفٍ على خدّ الطّفل الصّغير؛ أنت طفل موهوب، وسأرى لاحقاً ما الذي يمكنني أن أصنعه بك.

عندئذ أخذ الملك وزهرة اللّوز مكانَي الحطّاب وزوجته، اللّذين

لم يفهما شيئاً وهما يريان ملكاً يأتي من مدينة بعيدة كي يأكل حساءهما البائس.

صاحَب الطّعامَ جوٌّ رائق، ممّا جعل الملك يتنازل ويتلفّظ ببضع كلمات طيّبة، صفّق الطّفل الصّغير لسماعها.

بعد تناول العشاء، بدأت الاستعدادات للانطلاق نحو القصر قبل أن ينزل الظّلام. ركب الحطّاب وزوجته، بصعوبة بالغة، خلف السيّد رونار دينو، على بغلته، إذْ أراد الملك بذلك أن يشرّفهما. أمّا الطّفل الصّغير فقد قفز فوق حمار هرِم كان ذهب للإتيان به من الإسطبل. وعندما رأى الحمار كلّ أولئك البشر، شرع ينهق بكلّ قوته، معبّراً بذلك عن سعادته بأن يكون ضمن كلّ هذه الرّفقة اللاّمعة. أمّا الرّاعي الشابّ، فقد وجد صعوبة، في البداية، في أن يَثْبُت خلف الضّابط الكبير المكلّف بحرس الملك.

انطلقوا في طريقهم، صامتين، لأنّهم لاحظوا أنّ ملكهم قد استغرق في تأمّلات عميقة. كان، بالفعل، شارعاً في البحث عن اسم للطّفل الصّغير، لكنّه، وكالعادة، لم يعثر على شيء.

والآن، سنترك القافلة تواصل سيرها، كي نحكي واقعة صغيرة جدّاً حدثت في القصر أثناء غيّاب الملك.

فالعبيد السّود الذين كانوا قد فرّوا أثناء المشادّة الكلامية بين الملك والأمير آزور، سرعان ما رأوا أنّ السيّد رونار دينو سيستمتع بشنقهم إن وصله خبر فرارهم. لذلك عادوا نحو الهودج فرفعوه محاذرين وحملوه إلى القصر. وهناك، وضعوا الملكة برفقٍ على سريرها الموشّى بالذّهب،

وانسحبوا إلى غرفتهم وهم يشعرون بأنّهم قد تخفّفوا من حمل ثقيل.

والحال، يا أطفالي الصّغار، أنّ الملكة كانت مولعة بتربية الطّيور. كانت تملك منها كلّ الأنواع المستقدمة من كلّ البلدان. كان أولئك السّجناء الرّائعون يأخذون في الرّفرفة داخل أقفاصهم الذّهبية، فيُظهِرون بلعبهم ذاك آلافَ الألوان التي يعكسها ريشهم. عندئذ كان يبدو للرّائي وكأن تلك الطّيور جمهَرة من الزّهور ومن الأحجار الكريمة. كان أمر تلك الطّيور الجميلة، بزقزقتها وبحركاتها الحيوية، يصبح شبيهاً بحفل موسيقيّ رائق يهفو له قلب أيّ مولع بالموسيقى.

غير أنّ الطّير الذي كانت الملكة تفضّله على غيره، وهو أمر مدهش بالفعل، أدهشني أنا بدوري، لم يكن طيراً بنغاليّاً جميلاً ولا طيراً من طيور الجنّة، ولا من تلك الطّيور الهادئة ذات الصّدر الأحمر؛ وإنّما هو طير دوريّ أوربيّ قبيح، مُنتَمٍ إلى تلك الأنواع المعروفة بسرقتها للحبوب والتي تعيش في الأرياف على حساب الفلاّحين الفقراء. ورغم أنّ الملكة كانت تعامله معاملة جيّدة، وتسامحه على التصرّفات الغريبة التي كان يسمح لنفسه باقترافها أحياناً، فإنّ ذلك الجاحد الصّغير لم يكن يأسف على أيّ شيء ممّا يقوم به، بل كان، على العكس من ذلك، متشبّثاً بحرّيته، وغالباً ما كان يشرع ينْقر، بغضبٍ، الزّجاجَ الذي كان يحول بينه وبين تلك الحرية. وإذ كانت الملكة مستعجلة وهي تحاول اللّحاق بموكب الملك، صباحاً، لتصاحبه في جولته، فإنّها قد نسيت أن تغلق النّافذة، فلم يُضِع طيرُ الدّوري تلك الفرصة المؤاتية، وحلّق بعيداً في السّماء.

آه كم كان حزن الملكة شديداً عندما أفاقت ولم تعثر على طيرها

المفضّل! بدأت تبحث عنه في كلّ مكان من غرفتها، لكنّها عندما رأت النّافذة مفتوحة، فهمت كلّ شيء.

توجّهت إلى النّافذة وبدأت تناديه بالأوصاف الأشدّ رقّة، لكنّ الهارب كان يسمعها ويتجنّب تماماً أن يجيبها، أنا متأكّد من ذلك.

ظلّت تنادي على طيرها المفضّل بييرو (وهذا هو الاسم الذي كانت منحتْه إيّاه) طيلة ساعة كاملة. بعد ذلك سمعت الباب يُفتَح مع فرقعة قوية، ودخل الملك.

- بييرو! بييرو! صاح الملك وهو يتقافز فرحاً، هذا بالضّبط هو الاسم الذي كنت أبحث عنه.

- يا للأسف! لقد فقدتُه، قالت الملكة وهي تفكّر دائماً في دُوريّها الضّائع.

- بالعكس، أنت التي عثرت عليه، عقّب الملك.

هزّت المكلة كتفيها وهي تعتقد أنّ الملك قد فقد عقله.

هكذا، إذن، يا أطفالي الأعزّاء أُطلق اسم بييرو على بطلنا.

«في ضوء القمر، يا صديقي بييرو»[1]

(1) في هذا العنوان الفرعيّ وفي ثلاثة عناوين فرعيّة لاحقة يوظّف الكاتب على التّوالي أبيات مطلع أغنية للأطفال شاعت في فرنسا ابتداءً من القرن الثّامن عشر، وما زالت تُغنّى للصّغار في يومنا هذا. ونصّ المطلع هو التالي: «في ضوء القمر/ يا صديقي بييرو// أعِرْني ريشتَك/ لأكتبَ كلمة// انطفأت شمعتي/ وما عادَ لي من نور// بحقّ الربّ/ افتحْ لِيَ الباب». ولم يحافظ ألكساندر دوما على ترتيب الأبيات، كما أنّه يُفيد منها في مجرى الحكاية.

مرّ شهر كامل على تلك الأحداث التي حكيناها لتوّنا.

كان بييرو يكبر بطريقة عجيبة يستحيل علي أن أفسّرها لكم؛ كان يكبر في رمشة عين وبسرعة فائقة، إلى درجة أنّ الملك، الذي كان منبهراً بتلك الظّاهرة الخارقة للعادة، كان يقضي ساعات متعدّدة من كلّ يوم، ثابتاً على عرشه، وهو ينظر إلى بييرو يكبر. كان بطلنا قد عرف كيف يسْتَدِرّ، بمهارة فائقة، رعاية الملك والملكة، ممّا جعله يُعَيَّن ساقياً أعظمَ للقصر، وهي وظيفة يصعب القيّام بها، لكنّه استطاع أن يشْغَلها باقتدار شديد وبمهارة لا مثيل لها. لم يسبق لأجواء القصر أن كانت بذلك الابتهاج، كما أنّ وجهَي الملك والملكة لم يسبق لهما أن كانا بذلك الإشراق، ممّا جعلهما يظلاّن يتبادلان التّهنئة، طيلة اليوم.

وحده محيّا السيّد رونارديزو المُصفرّ، كان قد ازداد امتقاعاً من غيرته من طريقة ترقية الملك والملكة لصديقنا بييرو، فبدأ يكرهه من كلّ قلبه.

أمّا الرّاعي الشابّ الذي رأيناه من قبل يدلّ موكبَ الملك على منزل الطّفل الصّغير، فقد عُين مروِّضاً للخيول، وفي كلّ مكان كان يُسمَع حديثٌ عن أناقة ملبسه وعن دماثة أخلاقه. وكان عندما تمرّ زهرة اللّوز أمام قاعة الحرس الكبيرة، في طريقها إلى جناح إقامة أمّها، كان يبدو في أحسن أحواله، فتراه سعيداً وهو يقدم لها التحيّة، ممّا كان يجعل الأميرة، وهي تمرّ، تردّها على المروّض اللّبق، بأحسن منها.

والحال، ما دام هذا الرّاعي الشابّ مدعوّاً كي يلعب دوراً في هذه الحكاية، فإنّ من المناسب إخباركم، يا أطفالي الصّغار، بأنّ اسمه كان هو قلْب الذّهب.

أمّا الحطّاب وزوجته، فكانا قد عُيّنا مراقبَين لحدائق القصر؛ كما كانا يحظيان، بفضل بيرو، وكلّ يوم، في المنزل الجميل الذي خُصّص لهما، بحصّة من وجبات الملك.

في تلك الأثناء، كان الأمير الشرّير آزور، يبحث عن وسيلة لإفساد متعة الملك، ممّا جعل هذا الأخير يوفِد له وفداً ممتازاً محمَّلاً بهدايا ثمينة، كي يخبره باستعداده، من جديد، للموافقة على زواجه من ابنته زهرة اللّوز. لكنّ الأمير، الذي كان دائماً في حالة غضبٍ يعكسه الشَّعَر المنتصب على ذقنه ورأسه وحاجبيه، وضع الهدايا في خزينة كنوزه ثمّ قتل أعضاء الوفد. وبعد اقترافه لهذه الفعلة الشّنيعة، كتب إلى الملك رسالة بخطّ يده يخبره فيها بأنّه سيشنّ على مملكته، خلال فصل الرّبيع المقبل، حربَ إبادةٍ شعواء، وأنّه لن يهدأ له بالٌ إلاّ بعد أن يقضيَ عليه وعلى أسرته وعلى شعبه كلّه، ويسحقهم سَحقاً.

وعندما تبدّدت المخاوف الأولى التي أثارها هذا التّهديد، بدأ الملك يفكّر في الوسائل التي ستمكّنه من الدّفاع عن مملكته. جمعَ، في اللّحظة نفسها، كلّ فنّاني مملكته وجعلهم يرسمون على جدران المدينة صوَراً للوحوش وللحيوانات الكاسرة التي اعتبرها قادرةً على أن تُلقي بالرّعب في قلوب الأعداء. رسموا أسوداً ودِبَبَة وفهوداً ولبؤات ذوات مخالب طويلة، وهي تفتح أفواهها واسعة إلى درجة أنّه أصبح بالإمكان رؤية أحشائها بوضوح، من أقصاها إلى أقصاها. كما رسموا تماسيح لم تجد مبرّراً لإظهار أسنانها المدبّبة، فشرعت تتجوّل وهي تُفرج فكّيها، وأفاعيَ ملأت انثناءاتُها الجدران كلّها، وهي تبدو وكأنّها منزعجة من

أذيالها، وفيلةً تمشي متبخترة، كي تعرض قوّتها، وهي تحمل على ظهورها جبالاً كاملة. كان الأمر يبدو وكأنّه معْرض للوحوش لم يسبق لأحد أن شاهد مثيلاً له، لكنّه كان ذا مظهر رهيب، إلى درجة أن المواطنين لم يعودوا يجرؤون على دخول المدينة ولا على الخروج منها، مخافة أن تفترسهم تلك الضّواري.

عندما انتهى الملك من هذا العمل الاستراتيجيّ الهامّ للغاية، استعرض جيوشه، ثمّ شوهد وهو يمشي بزهو في مقدمة جيش مكوّن من مائتي رجل من المشاة ومن خمسين من الخيّالة. كان الملك، وهو على رأس قوّة بكلّ تلك الأهمّية، يعتقد أنّه قادر على فتح العالم برمّته، فمكث ينتظر، واثقاً بنفسه، قدوم الأمير آزور.

غير أنّ بيرو، الذي كان قائماً على خدمة مائدة الملك، بوصفه ساقياً أعظم للقصر، كان يسمح لنفسهَ، بين اللّحظة واللّحظة، بأن يتأمّل بإعجابٍ صامتٍ القسماتِ الرّقيقةَ الصّافيةَ لزهرة اللّوز. كان بيرو يشعر من تأمّله للأميرة بلذّة كبرى، إلى درجة أنّه شعرَ، ذات مساء، بشيء ما يتحرّك برفقٍ في صدره، وكأنّه عصفور صغير يستفيق داخل قفصه. وفجأة شرع قلبه يدقّ بسرعة، ثمّ بقوّة، ممّا اضطرّه إلى حمل كفّه إلى صدره وإصدار تنهيدة.

- هكذا، هكذا، هكذا! صاح بيرو وهو ينوّع في نبره، كما يفعل عادةً أيّ شخص حائر أو وهو يصبح أكثر حيرة. وبعد أن أصدر تلك التّنهيدة، انسحب غارقاً في تفكيره، فظلّ هائماً طيلة اللّيلة في ضوء القمر، وهو يروح ويجيء في حدائق القصر.

أنا لا أعرف، يا أطفالي، أية فكرة حمقاء كانت تجول في ذهنه، لكنّه عملَ، منذ صباح اليوم التّالي، على إحاطة زهرة اللّوز باهتمامه الكبير، فشرع يضع كلّ يوم، أمامها على مائدة الطّعام، باقة ورد رائعة وطازجة، يجنيها من منابت القصر، ولم يعد يكفّ عن استراق النّظر إلى الأميرة الشابّة، دون أن تنتبه هي إلى ذلك. لم يعد يعي ما يقوم به، فبدأ يرتكب، أثناء أدائه لعمله، زلّة تلو الأخرى: فمرّةً يترك علبة الفلفل تسقط في حساء السيّد روناردينو، ومرّةً يحمل صحن الوزير الأعظم من أمامه قبل أن يكون قد أكمَل أكله. لا بل أفرغَ ذاتَ يومٍ على ظهر صاحب السّعادة محتوى الإبريق وهو يتظاهر بأنّه يصبّ للملك، كما ألقى في يومٍ آخرَ على شعر روناردينو المستعار، في لحظة التّحلية، كعكة عظيمة ملتهبة، ممّا أضحكَ كثيراً صاحب الجلالة، فعملَ الخدم، لفكّ خناق الوزير الاعظم، على فسخ عقدة المنديل الذي كان يُربط إلى عنقه، كما جرت العادة بذلك.

- اضحكوا، اضحكوا، دمدم السيّد روناردينو بصوت خافت. سنرى من سيضحك في الأخير.

بعد هذا التّهديد، نفض شعره المستعار وتظاهر بالضّحك مثل الآخرين، لكنّ ضحكته كانت، كما تتصوّرون أنتم بالتّأكيد، مجرّد ضحكة صفراء.

أقيم، بعد ذلك ببضعة أيّام، حفل راقص بالقصر. وكي يجعل الملك رعاياه يهتمّون بصراعه مع الأمير آزور، استدعى كلّ السلطات المدنية والعسكرية بالبلد.

لم يكن قد سبق لأحد أن رأى تجمّعاً بذلك الإشعاع. لبس الملك والملكة، من أجل المناسبة، معطفين ثمينين من فرو القاقُم، مرصّعيْن بشعارات ذهبية، كما وضعا على تاجيهما الملكيّين جوهرتين ضخمتين تلمعان مثل نجمتين، لكنّهما كانتا ثقيلتين إلى درجة أنّ جلالة الملك وجلالة الملكة، لم يكن بإمكانهما تحريك رأسيهما الغائصين بين كتفيهما.

أصبح الحفل ساحراً بالفعل عندما بدأت الرّقصات، على الأضواء المتقاطعة للثريّات وللشّمعدانات؛ كانت رقصاتٍ ملكيةً مغمورة بالذّهب وبالورود وبالأحجار الكريمة؛ هي رقصات بوهيميا اللاّمعة بالمواهب وبالرّقة وبالرّشاقة.

أمّا بييرو، فكان أثناء ذلك يبدو وكأنّه أعجوبة حقيقية. وكثيراً ما كان الملك والملكة، بعد أن يشتدّ بهما الإعجاب، يضعان تاجيهما على الأريكة كي يصفّقا له وهما متخفّفان من ثقليهما.

كما أن أمراً آخر حصل، أثناء ذلك الحفل، عندما أتى بييرو كي يرقص مع زهرة اللّوز؛ كان عليكم، يا أطفاليَ الأعزّاء، أن تشاهدوا كيف كان يستعمل ذراعيه وساقيه وكلّ قلبه. كيف كان يذرع قاعة الرّقص كلّها بخطواته الواسعة، ثمّ يعود، بعد ذلك، وهو يتقافز مثل عصفور. كان عليكم أن تروه وهو يستدير حول نفسه بخفّة كبيرة وبرشاقة، فيشرع جسده كلّه يتقنّع، شيئاً فشيئاً، بشفّ خفيف سرعان ما يتحوّل إلى بخار أبيض، غير واضح، متحرّك على ما يبدو. لا يعود بييرو إنساناً وإنّما يصبح سحابة. غير أنّه ما كان يكاد يتوقّف عن الحركة حتّى تنقشع السّحابة ويعود الرّجل إلى شكله العاديّ.

استمتع جميع الحاضرين استمتاعاً كبيراً بلحظة التّرفيه تلك. ولم يكن الملك يكفّ عن الصّياح، عندما يختفي بييرو أو يعود إلى الظّهور، بصوت يكون مرّةً قلقاً وأخرى سعيداً: «آه! اختفى بييرو!»، «آه! ها هو ذا بييرو!».

بعد أن حقّق بطلنا كلّ ذلك النّجاح، رأى أن يتوّج استداراته حول نفسه بقفزة قويّة، لكنّه، في حمأة تمريناته الصّاخبة تلك، أراد القدَر أن تصطدم ساقه بساق السيّد روناردينو، وها هو ذا الوزير الأعظم مطروح بطوله على أرضية الغرفة، بينما كانت لمّة شعره المستعار، التي انقذفت أبعد منه بحوالى عشرين خطوة، تنفضُ، وهي تدور حول محورها، قدْراً هائلاً من مسحوق أبيض اجتاح القاعة.

انتصب الرّجل المسكين واقفاً، في قمّة غضبه، وعدا رأساً في اتّجاه شعره المستعار فعدّله على رأسه ثمّ أمسك ببييرو من صدريته:

– أيّها المُخادِع!، قال له بصوت مترع غضباً، ممّا جعله يحدث صفيراً بين أسنانه، ستؤدّي غالياً ثمن ما اقترفتَه.

– كيف؟ هذا أنت إذن؟ قال بييرو بنبر ساخر.

– آه! أنت تدّعي أنّك مفاجأ، عقّب روناردينو. ألا تكون تريد، ربّما، أن تقنعني بأنّك لم تقم بما قمت به عمداً؟

– أوه، عقّب بييرو، كلاّ، في الحقيقة، فإذا ما زعمتُ ذلك فسأكون أكذب.

– أيّها الوقح.

– تكلّمْ بصوت منخفض، يا صاحب السّعادة، فالملك ينظر إليك،

وقد ينتبه إلى أنك تضع شعرك المستعار مقلوباً.

وكي يتأكد روناردينو ممّا قاله بييرو، حمل كفّه، آليّاً، إلى رأسه.

– هيّا، قال بييرو وهو يتراجع خطوة إلى الوراء، لا تعمد إلى إثارة كلّ هذا الغبار. أنت تريد مبارزة، أليس كذلك؟

– مبارزة حتّى الموت!

– طيّب، ما كان عليك إذن أن تدير عينيك في مؤقيهما بهذه الطريقة كي تبلغني أمراً بهذه البساطة. أين الموعِد؟

– بملتقى طرق الغابة الخضراء.

– جيّد! ومتى؟

– غداً صباحاً في السّاعة الثامنة.

– ستجدني هناك في انتظارك، يا سيّد روناردينو.

وبقفزة عالية، أتى بييرو ليقف قريباً من الباب حيث كان يوجد قلب الذّهب. وما كاد بييرو يقف بجانب مروّض الخيول، حتّى أطلق هذا الأخير على ساقه الطّرف الحديديّ لحربةٍ كانت في يده، لأنّه كان قد رآه يرقص مع زهرة اللّوز، فغضب منه غضباً شديداً.

– هيّا، اقفز يا بييرو! قال له قلب الذّهب بصوت خافت، فقفز بييرو وهو يطلق صرخة ألم دوّتْ في القاعة كلّها.

اندلعت موجة تصفيقات عالية بسبب المأثرة الجديدة هذه. أمّا الملك والملكة فقد انقلبا على عرشهما ضاحكين ففقد تاجاهما توازنهما على رأسيهما، وطفقا يتدحرجان مثل طوْقين على أرضية قاعة الرّقص الكبرى.

ولحسن الحظّ، كان الخدم واقفين بالقرب من الملك والملكة، فعَدوا في أعقاب التّاجين. دعوهم يفعلون يا أبنائي الأعزّاء، فتلك مهنتهم.

بعد الرّقص، أتى دور الموسيقى. تمّ الاستماع في البداية إلى مقطوعات موسيقية أوبرالية عزفها أمهَر عازفي بوهيميا، وهو الأمر الذي لم يمنع الملكة من أن تقرص، مرّات متعددة، الملكَ الذي كان ينسى نفسه وهو على عرشه.

وبعد أن كُرِّم أساتذة الموسيقى الكبار الذين قدّموا تلك المعزوفات بما يليق بهم، انتصبت زهرة اللّوز واقفة وشرعت تغنّي من تلقاء نفسها، ودون أن يطلب أحد منها أن تغنّي. كان أمراً رائعاً أن يتمّ الاستماع، في تلك السّاعة، إلى ذلك الصّوت الطّري والصّافي، والذي كان يؤدي تارةً صوت طير الدُّخلة وطوراً صوت العندليب، فيبدو أحياناً حزيناً فيُبكي المستمعين، وتارةً ينفجر بألف نغمة سعيدة تشرع تلمع في الأجواء مثل سهامٍ ناريّة.

تأثّر الجميع بصوتها، فبدأت الملكة تبكي، كما أنّ قلب الذّهب كان يبكي بدوره، حربتُه في يده، وكأنّه طفل صغير. أمّا الملك، وكي يخفي تأثّره، فقد شرع يتمخّط بصوت مرتفع، إلى درجة أصبح معها من الضّروريّ العمل، في اليوم التّالي، على ترميم قِباب القصر.

وعندما عاد الهدوء ليسود من جديد، وشوَش الملك في أذن الملكة:

- أنا أتوق الآن إلى الاستماع إلى أغنية صغيرة.

- أتظنّ ذلك يا سيّدي؟ أن تستمع إلى أغنية صغيرة!

- لا يمكن لأيّ شيء آخر غيرها أن يسلّيني، وأنتِ على علم بذلك.

- لكن، سيّدي...

- أريد الاستماع إلى أغنية صغيرة، أتسمعينني؟ أنا في حاجة إليها، وإلاّ لغضبتُ.

- اهدأ، سيّدي، عقّبت الملكة التي كانت تعامل الملك وكأنّها تعامل طفلاً مدلّلاً.

ثمّ التفتت نحو حلقة هواة الغناء:

- أيّها السّادة، الملك يريد منكم أن تغنّوا له أغنية صغيرة.

تبادل هواة الغناء النّظرات مشدوهين، لكن لم يتحرّك أحد منهم.

كان الملك قد بدأ يفقد صبره، عندما شرع بييرو يتقدّم وهو يزيح الجموع من طريقه إلى أن أصبح أمام العرش.

- سيّدي، قال وهو يقدم للملك تحيّة ملؤها التّوقير، لقد لحّنت بالأمس أغنية صغيرة عنوانها هو «في ضوء القمر»؛ أتحبّون أن تستمعوا إليها؟

- أريد أن أستمع إليها، أجاب الملك، وعلى الفور.

عندما سمع بييرو جواب الملك أمسك بقيثارة وأمال رأسه على كتفه ثمّ شرع يعزف ويغنّي.

لا يمكنني، يا أطفالي الصّغار، أن أصف لكم مقدار الحماسة التي أحدثتْها الأغنية في قاعة الرّقص الكبرى. جعلَ الملك يضرب برجله على الأرضيّة، مع إيقاع الأغنية، وهو جالس على عرشه، بينما بدأ كلّ الحاضرين يصفّقون بأكفّهم مثل أفراد جوقة متناغمين.

استأثرت تلك الأغنية بكلّ الأحاديث التي دارت خلال تلك

الأمسية. أمّا موسيقيّو بوهيميا الماهرون، فقد انصرفوا الواحد تلو الآخر، قاصدين وضع تلاحين رائعة، تكون عبارة عن تنويعات على اللّحن نفسه الذي سمعوه من بييرو؛ وهي تنويعات ستعرفونها وتتعلّمونها، بالتأكيد، ذات يوم، يا أبنائي الطّيبين.

عندما حلّ منتصف اللّيل، انصرف الملك والملكة إلى جناحهما، كي يخلدا إلى النّوم، لكنّهما لم يستطيعا فانتصبا معاً قاعدَيْن وطفِقا يغنّيان بملء حنجرتيهما اللّحن اللّيليّ الشّهير. ظلاّ على تلك الحال إلى ساعة متأخّرة من اللّيل.

السّمكة الحمراء الصّغيرة

خلال اليوم التّالي، وعندما دقّت السّاعة السّابعة في كلّ ساعات المدينة، كان السيّد روناردينو آخذاً سلفاً في التجوّل ذهاباً وجيئة في المكان الذي واعد بييرو على اللّقاء فيه، وهو مفترق طرق الغابة الخضراء. كان مصحوباً بجنرال هرِم شوّهته الحروب، فلم يبق له سوى عين واحدة وذراع واحدة وساق واحدة وإلى ذلك فهي لم تسلم بكاملها؛ غير أن كلّ ذلك لم يكن يمنعه من أن يكون مرحاً، فيفتل أطراف شاربه ويقف مزهوّاً بقامته عندما تمرّ امرأة جميلة بالقرب منه.

كان الصّديقان قد شرعا يتجوّلان منذ ساعتين. وفي لحظة توقّف الجنرال كي ينظر إلى ساعته.

- اللّعنة! صاح الجنرال. السّاعة الآن التاسعة! ألن يأتي فتاك

الأمهق[1] أخيراً؟ يحدوني، مع ذلك، فضولٌ لأعرفَ إن كانت تجري في عروقه دماءٌ أم دقيق قمح.

- ستعرف ذلك بعد حين، قال الوزير الأعظم وهو يصرّ أسنانه، فأنا أراه هناك مقبلاً... ثمّ ضغط بتشنّجٍ على قبيعةِ سيفه.

وبالفعل، كان بييرو قادماً بصحبة مساعد طبّاخ يحمل تحت وزرته سفّودين للشّواء أخذهما، ذلك الصّباح، من مطبخ الملك. كان السّفودان من الطّول بحيث كانا ينجرّان على بعد عشر خطوات خلفه.

وبعد أن تبادلوا التحيّة المعتادة، أجرى الشّاهدان قرعة اختيار سلاح المبارزة.

- القفا! قال الجنرال، وهو يقذف في الهواء بقطعة نقدية.

- الوجه! أنا الرّابح، قال مساعد الطبّاخ على الفور، وهو يضع في جيبه، دون أن يعيَ ذلك، القطعة النقدية العائدة إلى الجنرال العجوز. نحن سنختار الأسلحة.

بعد ذلك أخذ السّفودين فمدّ أحدهما لروناردينو والثّاني لبييرو.

وقف البطلان متواجهَين، وبدأت المعركة.

تقدّم الوزير الأعظم، الذي كان يعتبر من أمهر ممارسي المسايفة، رأساً نحو خصمه، فوجّه له طعنتين متواليتين إلى صدره. لكنّ الغريب هو أنّ السفود اهتزّ كما تهتزّ مطرقة عندما تهوي على سندان، وانبعثت شرارات من تحت صدريّة بييرو.

---

(1) إشارة إلى بشَرة بييرو، ونتذكّر أنّها بيضاء جدّاً. والأمهق هو من يفتقر، بباعث من مرض وراثيّ معروف، إلى الألوان في العينين والشّعر والجِلد.

توقّف رونارديتو عن الطّعن بسفّوده، باديةً عليه علامات الحيرة.

اغتنم بييرو الوقت الذي توقّف خلاله رونارديتو عن الطّعن، فوجّه له ركلة قوية على ساقه.

فوجئ رونارديتو من جديد، فقفز:

- اللّعنة! صاح وهو يغلي من الغضب، ثمّ انقذف من جديد على بييرو الذي شرع يتراجع، دون أن يكفّ، مع ذلك، عن توجيه ضربات لخصمه.

كان رونارديتو المسكين مثخناً بجراحه، لكنّ بييرو بدوره كان معرّضاً لخطر محدق؛ ذلك أنّه أثناء عودته القهقرى، تفادياً لضربات رونارديتو، وجد نفسه محاصَراً، ظهره إلى شجرة، فلم يدرِ كيف يتخلّص من مطاردة رونارديتو.

- ها أنذا قد أمسكت بك! قال الوزير الأعظم، الذي رأى أنّ الطّريق أصبحت مسدودة في وجه خصمه، فراح يحدوه أمل ماكر في أن يثبّته في الشجرة، كما يتمّ تثبيت فراشة في كتاب أعشاب.

- خذ! صاح رونارديتو، وهو يهوي على بييرو بضربة سفّود استجمع فيها كلّ غضبه.

لكنّ بييرو، الذي فطن لنيّة رونارديتو، قفز من فوق رأسه متفادياً الطّعنة، فانغرس السّفود في قلب الشجرة.

شرع رونارديتو يحاول، بهمّة، أن يستخلصه من الشجرة، لكنّ بييرو لم يمنحه الفرصة، وجعل يوجّه له بعنفٍ ضرباتٍ متواليةً من الخلف.

- عفوك! عفوك! صاح أخيراً روناردينو الشّقيّ، فأنا على وشك أن أموت! وعندما كفّ بييرو عن الضّرب، سقط على الأرض.

كفّ بييرو عن توجيه ضربات إلى روناردينو، ومدّ نحوه كفّه، مثل أيّ خصم كريم، فانتصب واقفاً وسط ضحكات عالية للشّاهدَين.

- اللّعنة! صاح الجنرال العجوز، كم تحمّلتَ من الضّربات ياصديقي المسكين! ستقضي على الأقلّ خمسة عشر يوماً دون أن تستطيع الجلوس على مؤخّرتك، وهو أمر مقلق بالنّسبة لرجل ينتمي إلى ديوان الملك مثلك!

- أمّا أنا، قال مساعد الطّباخ، فسأسبقكم إلى القصر كي أُعدّ للوزير الأعظم ضمّادات.

وبعد مُزَح أخرى مماثلة كثيرة، أخذوا جميعهم، كلٌّ من جهة، طريق العودة إلى القصر.

أثناء ذلك، كان القصر يعجّ بالإشاعات. لاحظ الملك، أثناء وجبة الغداء، أنّ الأواني الفضّية التي كانت الملكة قد أهدتها له يوم عيده لم تكن موجودة في مكانها المعتاد. فبدأ يصيح وهو يطالب بأن تجلب إلى مكانها.

قضى مروّضو الخيول والطّباخون ومساعدو الطّباخين ساعة كاملة في البحث عن تلك الأواني، في كلّ مكان، لكنّهم لم يعثروا على شيء.

- أين أوانيَّ الفضّية؟ شرع الملك يصيح. أنا أريد أوانيَّ الفضية، وحالاً، وإلاّ فإنني سأشنقكم جميعاً، بعضكم إلى جانب بعض، في ساحة قصري... أين هو ذاك الذي يسمّى السّاقي؟

– سيّدي، قال مساعد طبّاخ، السيّد السّاقي هو الآن خارج القصر.
– هاتوه حالاً، حيّاً أو ميتاً، هيّا، هاتوه!
– ها أنذا، يا سيّدي، قال بيرو الذي ولج القاعة لتوّه، وها هي ذي الأواني الفضّية التي تطالبون بها.
قال ذلك وأدخل كفّه تحت صدريّته فأخرج ستّة صحون فضيّة في حالة يرثى لها من فرط ما تلقّته من ضربات.
– ما الذي يعنيه كلّ هذا؟ سأل الملك الذي أصبح وجهه محمرّاً من الغيظ.
– سيّدي، أنتم تتذكّرون الأمر الذي أصدرتموه لي بأن أطبَع شعار المملكة على هذه الأواني الفضّية الجميلة...
– نعم، أنا أتذكّر ذلك، بالفعل.
– وعليه، فقد حملتها هذا الصّباح كي أسلّمها لصائغ جلالتكم، ومخافة أن يعترض طريقي لصوص، وضعتها هنا تحت صدريّتي. لكنّني، عندما كنت متوجّهاً إلى الصّائغ، تذكرت أن السيّد رونارْدينو، وزيركم الأعظم، كان ينتظرني في الغابة الخضراء، من أجل قضيّة شرف.
– قضيّة شرف! صاح الملك. آه! هذا شيء جيّد يا سيّد بيرو... ولكن لا، أنا مخطئ، إنّه أمر غير جيّد، أمر سيّئ للغاية أيّها السيّد الساقي. فأنت تعلم أنّ مرسوماً ملكيّاً يمنع منعاً باتّاً على رعايانا أن يتبارزوا فيما بينهم.
– كنت، في الحقيقة، أجهل وجود هذا المرسوم، يا سيّدي.

- طيّب، طيّب، أنا أسامحك هذه المرّة، لكن لا تعدْ إلى ذلك ثانية. هيّا واصل حكايتك الآن.

- لم تكن لديّ دقيقة واحدة أضيعها، قال بييرو، لأنّ الوقت المحدّد لملاقاة السيّد رونارِدينو كان قد حلّ منذ مدّة طويلة. لذلك عدت مسرعاً إلى القصر كي أصحب معي مساعد طبّاخ ليقوم بدور الشّاهد، ونظراً لاستعجالي، فقد نسيت أن أعيد الأواني الفضّية إلى خزانة أطباقكم.

- ممّا جعلك تعارك رونارِدينو وأنت تحمل الأواني الفضيّة؟...

- للأسف، نعم، قال بييرو، ويمكن لجلالتكم أن تروا أنّ رونارِدينو قد وجّه لها ضربات عنيفة.

- آه! يا له من متوحّش! صاح الملك، وسيؤدّي ثمن فعلته.

- لقد أدّى ثمنها سلفاً، قال بييرو، ثمّ شرع يحكي تفاصيل المشهد الذي كان له مع الوزير الأعظم رونارِدينو.

فرح الملك فرحاً شديداً بتلك الحكاية، فأصبح هدفه هو أن ينقلها إلى زوجته الملكة التي نقلتها سرّاً إلى وصيفتها وكاتمة أسرارها التي تقاسمتها، بصوت خافت، مع الضّابط المكلّف بالحرّاس، الذي حكاها سرّاً لمجموعة من أصدقائه، ممّا جعل السيّد رونارِدينو، بعد ساعة من ذلك، يصبح أضحوكة القصر كلّه، لا بل المدينة برمّتها.

لكنّ الأمر أضحى أفدحَ عندما أصدر الملك مرسوماً يعيّن بموجبه بييرو وزيراً أعظم، وأمر بأن يُشترى طقم أوانٍ فضيّة جديد على حساب رونارِدينو.

- لقد أحسن الملك صنعاً! أحسن الملك صنعاً! بدأ الناس يكرّرون

في كلّ مكان، وهم يتسابقون لوضع قناديل في نوافذ منازلهم.

وفي الوقت الذي كانت المدينة بأجمعها تبدي فيه سعادتها بتنحية الوزير الأعظم روناردينو، كان هذا الأخير يبدو ميّتاً أكثر منه حيّاً.

عندما عاد روناردينو إلى القصر منهَكاً، ساعده الجنرال الهرِم في أن يتمدّد على سريره. بعد ذلك أصابته حمّى، وعندما سمع خبر تنحيته من منصبه العالي ازدادت الحمّى قوّة، فشرع يهذي.

بدأ يرى أحياناً منتصِبةً أمامه أطيافَ كلّ أولئك الأشقيّاء الذين جرّدهم من أمتعتهم كي يستغني هو. كانت الأطياف تميل عليه في سريره وتقول له بصوت خفيض، موشوشة في أذنه:

- أعد لنا ما سلبتَه منّا! أعد لنا ما سلبتَه منّا!

وكان يرى تارةً أخرى العجوز المتسوّلة طالبةً منه الصّدقة بطريقة ساخرة، وهي تريه الصّرة المليئة ذهباً والتي فقدها قبل ستّة أسابيع.

انتصب سدىً على سريره، قسماتُه متوتّرة وعيناه متورّمتان، محاولاً إزاحة كلّ تلك الأشباح، لكنّ كفّيه لم تكونا ترتطمان إلاّ بالفراغ، فصاح فيه صوت حادّ وصارم:

- بهذه الطّريقة يُعاقَب النّاس الأشرار وذوو القلوب غير الرّحيمة.

ظلّ يرى الرؤى نفسها طيلة اللّيلة، وخلال اللّيل كلّه، ظلّ يسمع الكلام نفسه. فمن المعلوم، يا أطفالي الأعزّاء، أنّ ضميراً غير مرتاحٍ لا يَدَع صاحبه في هدأةٍ أبداً.

وبعد أيّام من ذلك، أقام الملك، على شرف بييرو، وزيره الأعظم الجديد، حفلاً راقصاً بهيجاً استدعى له كلّ ملوك البلاد المجاورة،

باستثناء الأمير آزور الذي كان يواصل دائماً، وبصمت، استعداداته للحرب.

كان بييرو قد حقّق آماله. جلس قريباً من الأميرة زهرة اللّوز وشرع يحكي لها أموراً هزليّة شديدة الإضحاك، لكنّه لم يكن مسروراً وهو يراها تكتفي بالابتسام. والحقيقة أنّ ملاحِظاً نابهاً كان بإمكانه أن يلاحظ أنّ الأميرة الشابّة كانت تصبح على الفور جادّة عندما تسترق نظرة إلى قلب الذّهب الواقف خلف كرسيّها، فترى لون وجهه يتغيّر وهو يقضم من الغيظ الجهةَ الخشبية من حرْبته التي تأثّرت من قضمه المفرط ذاك.

بعد الفراغ من الغداء، ودّع الملك ضيوفه واقترح على الملكة القيّام بجولة على ضفّة البُحيرة. كانت الفرصة مؤاتية، فالسّماء كانت صافية والجوُّ دافئاً والماء هادئاً تماماً. كانت المروج، من كلّ جانب، قد بدأت ترتدي حلّتها الخضراء. كان اليوم يوماً ربيعيّاً رائعاً.

وصلت العائلة الملكيّة إلى ضفّة البحيرة فصعدت على متن زورق صغير كان راسياً هناك.

– يمكنك أن تجلس قريباً منّا، قال الملك لبييرو الذي ظلّ بعيداً عن الملك والملكة، احتراماً لهما.

استجاب بييرو على الفور لدعوة الملك، فوقف بالقرب من مقوَد الزّورق، ورفع القُلوس فأخذ شراع المركب يتحرّك كما يتحرّك جناحا إوزّة، وانطلق بدون ضجيج على صفحة الماء الهادئة.

كانت الشخصيّات اللاّمعة لحكايتنا قد سارت على الماء لِما يقارب

نصف ساعة، وفجأةً صاح الملك:

- اثنِ، اثنِ الشّراع أيّها الصّديق بيبرو، فأنا أرى سمكة صغيرة هناك، في الماء قرب زورقنا الملكيّ... هي في الحقيقة تعدو خلفنا وكأنّ لديها أمراً ما تريد أن تخبرنا به.

كانت تلك بالفعل سمكة جميلة حمراء، حيويّة وحذرة، وهي تضرب وتضرب الماء بزعانفها الدّقيقة كي تلحق في أسرع وقت ممكن بزورق الملك. وقد استطاعت بالفعل أن تدرك الزّورق، نظراً للطّريقة التي كانت تعدو بها في الماء.

عندما رأتها زهرة اللّوز قادمة، ظنّت أنّها جائعة، فألقت لها بفتات من قطعة الحلوى التي كانت تحملها في يدها وهي تقول لها بصوت رقيق وهادئ حتّى لا تُفزِعها:

- كُلِي، كُلِي، أيتها السّمكة الصّغيرة.

فشرعت السّمكة الصّغيرة تقفز فوق الماء وتحرّك ذيلها الذّهبيّ علامة على شكرها لزهرة اللّوز.

في تلك اللّحظة قال الملك لبيبرو بصوت خافت:

- صديقي بيبرو، أمسكْ بالشّبكة وكنْ مستعدّاً لإلقائها في الماء عند أوّل إشارة أعطيها لك. فأنا أريد أن آكل هذه السّمكة الصّغيرة في عشائي هذا المساء.

لكنّ السّمكة الصّغيرة، التي سمعت ما قاله الملك، ظلّت بعيدة عن المركب ومحاذِرة. بعد ذلك أخرجت رأسها من الماء فقالت، أمام مستمعيها المندهشين، لأنّهم لم يسبق لهم أن سمعوا سمكة تتكلم:

- تتهدّدك أخطار كبيرة، يا ملك بوهيميا. أنت لك أعداء هم آخذون الآن في التآمر عليك للنّيل منك؛ وكنتُ قد أتيت لأساعدك على النّجاة منهم، لكنّ الفعل الشرّير الذي فكّرت في اقترافه ضدّ سمكة صغيرة لم يسبق لها أن مسّتك بسوءٍ جعلني أفهم أنّك لست أحسن من باقي البشر، ولذلك، فإنّني سأتركك لمصيرك. أمّا بالنّسبة إليك، أنتِ يا زهرة اللّوز، أيّتها الجميلة الطّيبة، فمهما حصل لك، اعتمدي عليَّ، ستجدينني دوماً إلى جانبك.

عندئذ قلّدت السّمكة الصّغيرة صوت الملك صائحة:

- هيّا يا بييرو، ألقِ بالشبكة!

لم يكن بييرو ينتظر إلاّ هذه الإشارة، فألقى بالشبكة في الماء. أنا لا أدري ما الذي حصل، لكنّ القارب أخذ فجأةً يغطس في الماء، مهدّداً المتَنزِّهين بالغرق.

كان بييرو الذي يتقن السّباحة، هو أوّل من عاد للبروز على صفحة الماء. وكانت أوّل حركة صدرت عنه هي البحث ببصره عن زهرة اللّوز. لمحها وهي تتخبّط تحت الماء بالقرب منه، فأمسك بها من شعرها وعاد بها إلى ضفّة البحيرة. حصل ذلك في زمن قصير يصعب عليّ تحديده لكم.

- نجوتِ! نجوتِ! صاح وهو يقفز من الفرح. كانت أحلام رائعة قد بدأت تراود ذهنه، وهو يرى نفسه على الأقلّ صهراً للملك. لكنّه عندما عاد للنّظر إلى المرأة عن قرب، انتبه إلى أنّ الملكة الأمّ هي من أنقذها وليس زهرة اللّوز.

شعر بخيبة كبيرة من اكتشافه ذاك. وكان يفكر في المسارعة بالعودة إلى البحيرة، عندما رأى قلب الذّهب يسبح في اتجاه الضّفة وهو يمسك فوق الماء، بعناية كبيرة، برأس الجميلة زهرة اللّوز.

- إنّه قلب الذّهب، هل هذا ممكن! صاح بييرو، وهو يكاد، من مفاجأته، يسقط إلى الخلف على الملكة التي اصطدمت قدمُه بها.

أنتم ستسألونني بالتّأكيد، يا أطفالي الأعزّاء، وستقولون: لكن كيف حصل أنْ وُجد مروّض الخيول في مكان الحادث؟

هو كان في مكان الحادث لأنّ... لأنّ زهرة اللّوز كانت هناك أيضاً. فأنتم عندما يحدث لكم أن تشعروا بألم شديد، أو أن تشعروا بغمّ يستولي على قلوبكم، أليست أمّكُم هي التي تكون أوّل من يأتي لنجدتكم أو مواساتكم؟ بلى، أليس كذلك؟ وإذن فهذا هو السّبب الذي جعل قلب الذّهب يوجد على ضفّة البحيرة عندما شرع الزّورق يغرق، فأنقذ حياة زهرة اللّوز.

أمّا الملك، فقد نال عقابه الوافي عمّا اقترفه من شرّ؛ ذلك أنّه وجد نفسه في حبال الشّبكة التي ألقى بها بييرو إلى الماء. وبعد أن شرب رغماً عنه كمية كبيرة من الماء، نجح في أن يَعْلُوَ صاري المركب الطافي على وجه الماء، وكأنّه يمتطي فرساً، وشرع في الصفير وفي المناداة، تماماً كما يفعل أيّ إنسان مهدّد بالغرق. وكان من الممكن أن يظلّ في وضعه ذاك، لو لم يكن قلب الذّهب قد سارع إلى نجدته.

عندما عاد النّاجون من الغرق إلى القصر، غيّروا ثيّابهم، ودعا الملك إلى اجتماع يشارك فيه كلّ من في القصر.

عُيّن بييرو، الذي كان قد أضحى سلفاً وزيراً أعظم، أميرالَ المملكة الأعظم، أمّا قلب الذّهب فقد عُيّن فارساً في الجيش.

بعد أن انتهت التّظاهرة، ودّع الملك أتباعه وحاشيته وأمسك بشمعة ثمّ صعد إلى بُرجه. كان يبدو مهموماً للغاية.

عندما وصل إلى قمة البُرج، وضع على عينه اليمنى منظاراً ليليّاً صغيراً وشرع ينظر إلى جهات الأفق الأربع.

دام فحصه مدّة طويلة.

- لقد استكشفتُ السّهل من كلّ جهاته، قال الملك أخيراً، فلم أرَ أيّ شيء مقلق، على الإطلاق. إنّ تلك السّمكة الصّغيرة، ليست في حقيقة أمرها سوى مندسٍّ أراد أن يهزأ بي.

بعد ذلك نزل من بُرجه، وقد تخفّف قلبه، فدخل غرفته وتمدّد إلى جانب الملكة ثمّ أطفأ الشّمعة ونام مطمئنّ البال.

«بحق الرَّب، افتح ليَ الباب»

ما إن تسلّم بييرو مقاليد الوزارة حتّى شرع يهتمّ بالإصلاحات التي يجب إجراؤها في إدارة المملكة قصد تحسين أوضاع رعايا الملك الذي كان يشعر في تلك الفترة بالذات بملل قاتل. قام بييرو، في البداية، ببناء قاعة للمسرح في الهواء الطّلق، في ساحة المعرض، ثمّ أتى بممثّلين هم عبارة عن دمىً صغيرة تتحرّك وتمشي وتتحدّث بطريقة متقنة للغاية، إلى درجة أن المتفرّجين الذين لم يكونوا يرون الخيوط التي تحرّكها، كانوا مستعدّين لأن يُقسموا بأغلظ الأيمان أنّها شخصيات من لحم ودم. بعد

ذلك أقام حفلات كرنفالية ونظّم جولات للثيران السّمينة وحفلاتِ رقصٍ تنكّرية. وكي يجعل المتعة تستمرّ لأطول وقت ممكن أبعد أيّام الصوم إلى أقصى مدّة ممكنة.

لم يسبق للمملكة أن عاشت أبداً كلّ تلك السّعادة. أصبحت بوهيميا من أقصاها إلى أقصاها حفلاً تنكّرياً مستمرّاً، وحيثما توجّهتَ فيها لم يكن بإمكانك أن تسمع سوى ارتفاع الحناجر بالقهقهات. أصبح بيرو، نتيجة لذلك، محبوباً من قِبَل الجميع، كما أنّ لحنه «في ضوء القمر» أصبح على كلّ لسان.

أصبح بيرو ذا شعبية كبيرة بين سكّان بوهيميا، ممّا جعل ظلالاً من الشّك تخيّم على ذهن الملك الذي أصبح يغار منه ويخشى على شعبّيته الخاصّة لدى رعاياه، وهو ما يعتبر أمراً عاديّاً بالنسبة لملك طيّب مثله. لكنّ الشّخص الذي كان السّعار يأكل قلبه أكثر من سواه هو السيّد روناردينو. عندما شُفي من جراحه، شرع يذرع غرفته ذهاباً وجيئة، وهو يفكّر في وضع خطّة مشؤومة لدسيسة ينوي تطبيقها.

وفجأةً بدت على ملامحه ابتسامة خبيثة.

- أوه! ها أنا قد عثرت على ما سأتمكّن منك به. لن تستطيع بعد الآن الإفلات منّي! ثمّ سارعَ رأساً إلى غرفة الملك.

طرق الباب، فسمع الملك يردّ قائلاً:

- ادخلْ... ماذا! هذا أنت، أيّها السيّد ألبيرتي! تفضّل بالجلوس... أوه! أوه! أنا أرى أنّك قد أصبحت الآن في صحّة جيّدة.

- سيّدي، إنّ الأمر لا يتعلّق بي بقدر ما يتعلّق بك، قال روناردينو

بنبر مُلغز، فثمّة شرور كثيرة تتهدّدك.

امتقع لون الملك، وهو يتذكر نبوءة السّمكة الحمراء الصّغيرة التي كانت، هي الأخرى، قد ضمّنت حديثَها هذه الكلمات نفسها.

- ماذا وراءك؟

- ذلك أنّ بييرو، واصل رونارْدينو، وزيرَك الأعظم، يتآمر عليك. وسترى أنّه سيأتي اليوم على السّاعة الثّامنة إلى هذه الغرفة بدعوى رغبته في التّحدّث إليك في أمور المملكة، كما جرت العادة بذلك، لكنّه سيأتي في الحقيقة كي يخنقك.

- يخنقني! صاح الملك وهو يرفع كفّه إلى عنقه بطريقة آليّة.

- نعم، ليخنقك، قال رونارْدينو وهو يضغط الحروف التي ينطقها، لكن، اطمئنّ، سأكون بجانبك كي أُنجدَك. سلّمني، فقط خلال هذا اليوم، مهمّة حراسة القصر، ومهما حصل، وكيفما كان الضّجيج الذي ستسمعه في الغرفة المجاورة لغرفتك، لا تفتح الباب، ولأيٍّ كان.

- سآخذ هذا الاحتياط بعين الاعتبار، قال الملك.

بعد ساعة من ذلك، كان السيّد رونارْدينو والضّابط المكلّف بحراسة الملك يقومان بجولة في حدائق القصر وهما يتجاذبان أطراف الحديث بصوت خفيض.

- ما تقوله غريب بالفعل! قال ضابط الحراسة، أنت متأكّد من أنّ هذا في صالح جلالة الملك...

- ها هو ذا الأمر مكتوب بخطّ يده.

- حسناً أيها السيّد رونارْدينو، أنا أمتثل لأمر الملك.

كان رجل مسنّ، خلف شجيرات قصيرة كثيفة، متّكئاً على مجرفته، وهو ينصت لما يقوله الرّجلان بإمعان. كان هو القائم بأمور حدائق القصر، شيخنا الذي تعرّفنا عليه من قبل، الحطّاب.

عندما اختفى المتحادثان عند انعطافة أحد الممرّات، صاح الشّيخ:

– آوه! يا لهما من مجرمين! المجرمان يريدان اغتيال بييرو المسكين خلال هذه اللّيلة! عليّ أن أسرع كي أخطره. ثمّ مشى مسرعاً نحو القصر.

أقبل اللّيل، فدقّت السّاعة الثّامنة في ساعة المدينة الضّخمة. في تلك اللّحظة خرج بييرو من غرفته وهو يدندن بلحن أغنية، متأبّطاً محفظته.

عندما سمعه رونارديئو، فتح بابه مواربأ وبرفقٍ، فرآه ينزل السّلم الذي يقود إلى ديوان الملك.

– غنّ يا رجل، غنّ! قال رونارديئو وهو يفرك كفّيه، فبعد قليل ستشرع في الرّقص! ثمّ أعاد إغلاق بابه دون ضجيج.

لكنّ بييرو، بمجرد وصوله إلى أسفل السّلم، أطفأ شمعته وتدثّر بمعطف لونه مثل لون الجدار، أخرجه من محفظته، وذهب كي يكمُن مُحاذراً قرب الباب الذي ينفتح على الغرفة المجاورة لغرفة الملك.

– والآن، لننتظر، قال. فظلّ ثابتاً لا يتحرّك في العتمة مثل تمثال.

دقّت السّاعة الثامنة والنّصف، ثمّ التّاسعة.

سَمع أصواتاً تتهامس في الغرفة المجاورة لغرفة الملك.

– لقد دقّت السّاعة التّاسعة، قال صوت، هو لن يأتي.

– ششششت! ردّ صوت آخر، أنا أسمع ضجيجاً.

صمتت الأصوات.

كان ذلك، بالفعل، هو السيّد روناردينو، وهو يخرج متخفّياً من غرفته.

- السّاعة الآن التّاسعة، قال روناردينو، لنذهب كي نرى إن كانت حيلتنا قد تُوِّجَت بالنّجاح.

نزل السّلم بخطوات ذئبيّة وهو يمشي على أصابع قدميه، إلى أن وصل إلى الباب الذي يفضي إلى الغرفة المجاورة لغرفة الملك، فحبس أنفاسه وأصاخ السّمع.

صمت عميق.

- لقد قتلوه، قال، وهو أمر جيّد!

عندئذ رفع المزلاج برفق وأفرج الباب ثمّ أطلّ، أولاً، برأسه ثمّ بذراعه ثمّ بساقه. كان على أهبة الدّخول عندما خرج بييرو من مخبئه ودفعه بكلّ قواه إلى داخل الغرفة المجاورة لغرفة الملك، وأغلق الباب خلفه.

ظلّ بييرو يسمع من مكانه جلبة رهيبة من الضّربات ومن الصّراخ ومن السّباب.

كان الجنود الذين أُدِّيَ لهم الثّمن وافياً يؤدّون دورهم على أكمل وجه.

- النّجدة! النّجدة! إنّهم يقتلونني! شرع روناردينو يصيح. سيّدي، افتح الباب، افتح الباب لي، بحقّ الرّبّ!

لكنّ الملك، الذي استمع إلى التّعليمات فنفّذها، كان قد أغلق الباب

بالمزلاج، ثمّ تحصّن في غرفته وهو يشعر بإرهاق شديد.

كان رونارديno على وشك أن يَهلَك، لولا أنّ الملكة سمعت الجلبة فأقبلت بثياب نومها وهي تحمل في يدها شمعداناً صغيراً. عندما رآها الجنود فرّوا، أمّا السيّد ألبيرتي، المنهَك، والذي كان يشعر بالخزي، فقد عدا في اتجاه غرفته، من حيث سيستمع إلى بييرو وهو يغنّي بصوت ناشزٍ عن قصدٍ اللّحنَ الذي تعرفونه:

افتح لي الباب
بحقّ الربّ!

كذبة أوّل نيسان

كان التأريخ هو الفاتح من نيسان. وكان الملك الذي قضى اللّيل كلّه ينظر من ثقب قفل باب غرفته، يشعر ببرد شديد، إلى درجة أنّه كان يرتعش مثل ورقة شجرة، ويعطس بشدّة. شرع يضرب بقدمه إحدى قوائم عرشه كي يستدفئ. في تلك الأثناء شاهد في المرآة أمامه شخصاً بوجه مشؤوم يُقلّد حركاته وهو ينظر إليه عبر المرآة.

عندما شاهد ما شاهده أطلق صرخةَ رعبٍ وهو يضع كفّه على قبضة سيفه.

قام الشّخص المنعكس في المرآة بالإيماءات نفسها التي قام بها الملك. للأسف! يا أطفالي الأعزّاء، فالملك المنكود الحظّ لم يستطع التعرّف على محيّاه في المرآة، وأنتم أيضاً ما كنتم لتتعرّفوا عليه، لأنّ شعره كان قد

أصبح مشتعلاً شيباً، منذ يومٍ فقط، ولأنّ عينيه كانتا شديدتَي الاحمرار، أمّا أنفه فكان ظاهر التّورّم.

في تلك اللّحظة طُرق الباب.

- افتح، سيّدي، هذا أنا، قال السيّد روناردينو.

عندما سمع الملك صوت ألبيرتي، توجّه إلى الباب ماشياً القهقرى، دون أن يفارق المرآة بعينيه، وأزاح المزلاج.

- خذ حذرك، أيها السيّد ألبيرتي، قال الملك بصوت خفيض وهو يشير بحدّ سيفه إلى الصّورة المهدِّدَة الماثلة على المرآة، وهي تكرّر كلّ الحركات التي يقوم بها. متآمر آخر يا ألبيرتي، خذ حذرك!

ارتسمت ابتسامة شرّيرة خفيفة على شفتي روناردينو الرّقيقتين: كان يعتقد أنّ الملك قد فقد عقله.

- سيّدي، اطمئنّ، فنحن وحدنا في هذه الغرفة.

- كيف؟ سأل الملك، نحن وحدنا! وهذا الرّجل المكفهرّ الملامح، الماثل هنا أمامي، سيفه في يده؟

- مع احترامي لك، يا صاحب الجلالة، فأنت هو ذاك الرّجل.

- هذا الرّجل الذي ابيضّ شعره واحمرّت عيناه وتورّم أنفه، والذي كان يعطس بكلّ تلك القوّة، هو أنا؟

- هو أنتم يا صاحب الجلالة، أؤكّد لكم. والدّليل أنّكم ما تزالون تعطسون.

وبالفعل، كانت نوبات الزّكام ما تزال تعصف بذهن الملك؛ ممّا جعله يصدّق ما يقوله له ألبيرتي روناردينو.

- يا إلهي! صاح الملك المسكين، بعد أن مرّت اللّحظة العصيبة، الصّورة التي تعكسها المرآة هي صورتي أنا إذن! يا له من وجه! ويا لهما من عينين! ويا له من أنف! ثمّ أرخى قبضته عن السّيف وغطّى وجهه بكفّيه معاً.

- أيّها السيّد ألبيرتي، قال الملك على الفور بصوت حادّ، مهما يكن الأمر بعد الآن، فأنا أمنعك منعاً باتّاً من أن تحدّثني عن التّآمر.

ران الصّمت للحظةٍ بدا رونارديتو خلالها مرتبكاً. شرع يفكّر لبضع ثوانٍ وهو لا يعرف كيف يُذكي أوارَ الحديث من جديد.

- سيّدي، قال أخيراً بصوته غيرِ المبالي، وهو ينفض بأنامله شيئاً لا وجود له على ثوب صدريّته، هل تحب سمكَ التّرس؟

- هل أحبّ سمكَ التّرس؟ صاح الملك، الذي لمعت عيناه فجأة من الرّغبة. آه! يا سيّد ألبيرتي، كيف تسألني إن كنت أحبّ سمك التّرس؟

- أنا كنت شبه متأكّد من أنّكم تحبّونه، سيّدي، قال رونارديتو، لأنّ من المفروض أنّهم سيقدّمون لك سمكة من هذا النّوع، هذا المساء، في وجبة العشاء. أنتم تستمتعون، دون شكّ، بأكلها.

كان الملك يستمتع بالفعل بأكل سمك التّرس، لذلك لم يجب عن السّؤال إلاّ بهزّة من رأسه.

- آه! جيّد إذن، جيّد، قال رونارديتو.

- ولماذا تقول، جيّد؟ سأل الملك.

- بعد أن منعتموني قبل قليل من أن أتحدّث عن أيّ تآمر يقام ضدّكم، فإنّني لا أجرؤ في الحقيقة على أن أقول لكم، يا صاحب

الجلالة...

- بل قلْ، دائماً قلْ، أنا آمرُكَ.

- وإذن...

- ماذا؟

- سمكة التّرس التي ستُقدّم لكم هذا المساء ستكون مسمومة.

عندما سمع الملك تلك الكلمات، أطلق صرخةَ رعبٍ وترنّحت قدماه، لكنّه سرعان ما تمكّن من استرجاع رباطة جأشه، فمال على روناردينو ووشوش في أذنه قائلاً:

- أنا لم أكن قادراً على التّحكم بانفعالي الأوّل، لكنّني كنتُ، في الحقيقة، أشكّ في الأمر.

- آه! صاح روناردينو مشدوهاً، أنت كنت على علم بأنّه قد سَمَّم سمكة التّرس تلك؟

- آوه! نعم، أنا على علم بذلك، أجاب الملك. لكن اخفض صوتك، فهو مرهف السّمع وقد يسمع ما تقوله.

- أوه! من هذا الجانب لا تخش شيئاً، لأنّني قد لمحته لتوّي يقطع ساحة القصر متوجّهاً إلى غرفة الملكة.

- أنت رأيته يقْ...طع السّاحة، سأل الملك وقد أصبح تمتاماً من شدّة الرّعب الذي استولى عليه. وهل أنت متأكّد من أنّه هو؟

- هو عينه، جلالتك.

- لعلّك تقصد السّمكة الحمراء الصّغيرة؟

- السّمكة الحمراء الصّغيرة! لا يا سيّدي، أنا أقصد وزيركم

الأعظم بييرو.

- بييرو!

- كيف؟ أليس إذن بييرو من كنتم تشكّون فيه؟

- طيّب طيّب، قال الملك وهو لا يريد أن يضع روناردينو ذكاءَه موضع شكّ، وعلى أيّ حال، فبعدَ ما جرى أمس في الغرفة المجاورة لغرفتي كان طبيعيّاً أن أفكّر...

- في أنّ بييرو قد مات، أليس كذلك؟ تخلَّ إذن عن وهمك، فالملكة أرادت شيئاً آخر، وهو ما يزال على قيد الحياة.

- الملكة؟ لكن بأيّ حقٍّ أصبحت الملكة تتدخّل في شؤون الدّولة؟

- آه! آه! قال روناردينو وهو يطلق ضحكة، أنت لا تعرف شيئاً؟ أنت إذن تجهل ما لم يعد سرّاً بالنسبة لأحد؟ إن سكّان بوهيميا، من أقصى البلاد إلى أقصاها، يعرفون جميعاً أنّ الملكة تحبّ بييرو وتعتزم الزّواج منه.

- الزواج منه! صاح الملك، وأنا؟ وأنا؟

- أنت يا سيّدي، سيجعلونك تأكل سمكةَ ترسٍ مسمومةً هذا المساء عند تقديم وجبة العشاء.

- وحقّ لحيَتي، صاح الملك الذي كان طبعُه الطيّب والطّبيعيّ يجعله يثور لأيّة نميمة يقترفها روناردينو أمامه، إنّ ما تقوله الآن لمرعب، ويستحيل عليّ أن أصدّقه، فهل لك أدلّة على ما تقول؟

- دلائل؟ أنت تطلب منّي إذن دلائل؟

- طبعاً، وبدون شكّ.

- إذن، استمع إليّ وأجبني. من أغرق زورقكم الملكيّ، منذ حوالي ثمانية أيّام؟

- آه! في هذه الحالة، بييرو هو الذي أغرقه، فأنا لا يمكنني أن أقول شيئاً آخر، إنّه بييرو.

- جيّد جدّاً، لكن هل بادر بأن يقدّم لك أيّة إغاثة عندما سقطتَ في البحيرة؟

- أنت تسألني إن كان سعى إلى إغاثتي؟ سأل الملك وهو يعمل على تجميع ذكرياته حول الحادث، لا، أنا لا أعتقد أنّه سَعَى إلى إغاثتي، لكن، انتظر، فأنا أتذكّر أنّ بييرو كان قد ألقى على رأسي بالشبكة، ولو لا وجود قلب الذّهب قريباً من المكان لكنتُ قد غرقتُ بالتّأكيد...

- هكذا إذن، فأنت تعترف بأنّ بييرو أراد أن يُغرقك؟

- أنا لا أقول ذلك، ردّ الملك، غير أنّه...

- غير أنّه ألقى بالشبكة على رأسك، في الوقت الذي سارع فيه إلى إغاثة الملكة.

أمام هذه الطريقة الماكرة التي قرّب بها رونارديمو بين الواقعتين، شعرَ الملك بارتباك كبير.

- آه! ها أنت قد أصبحت الآن ترى الأمور بوضوح! صاح رونارديمو، وإذن فاذهب حالاً جرياً إلى غرفة الملكة، التي سيتوجّه إليها بييرو الآن. أنصت قليلاً من وراء الأبواب، وستسمع ما يعرفه آخرُ فردٍ من رعاياك.

شرع الملك يرتعش وانطلق خارجاً من غرفته.

كانت الملكة مشغولة بالعناية بطيورها، فلم تُلق بالاً للملك الذي دخل إلى الغرفة من باب خفيّ، واختبأ بصعوبة، نظراً لبدانته، خلف إحدى الأبواب السّميكة.

ملأت الملكة الفناجين الجميلة الصّغيرة بالماء، وعلّقت إلى خيوط القفص الذّهبيّة مئاتٍ من قطَع الحلوى الأكثر إثارةً، ثمّ شرعت تتسلّى وهي تتأمّل صامتةً ذلك الهياجَ الفاتنَ المنبعثَ من الطّيور. تأمّلتها وهي تحاول أن تطير، وهي تقفز، وهي تلتهم من هنا ومن هناك صاخبةً، في ذروة نشاطها، وكأنّها خليّة نحلٍ منهمكة في عملها. وفجأةً جعلها صوتٌ حادّ تشعر بارتعاشة.

- إنّه هو، صاحت مبتهجةً؛ ثمّ سارعت إلى شرفة غرفتها كي تناديَ طيرها الصّغير الذي كانت قد فقدته، والذي أخذ، منذ مدّة، يعود إلى البيت كلّ يوم، في السّاعة نفسها، فيشرع يزقزق أسفل نافذة سيّدته الجميلة.

- تعال، قالت له، وهي تفتّت في يدها قطعة حلوى انتثرت في شكل مزَق صغيرة على أرضية الشّرفة. تعال يا صغيري بييرو!

عندما سمع الملك في مخبئه هذه الكلمات الرّقيقة، أطلق تنهيدة مكتومة.

ارتعبت الملكة، فالتفتت فجأة لترى أمامها الوزير الأعظم بييرو الذي دخل القاعة لتوّه، والذي انحنى أمام الملكة باحترام كامل.

- لي الشّرف أن أعلن لجلالتكم، قال بييرو، أنّ صيّاداً قدِم من البحيرة حاملاً للقصر سمكة ترس رائعة تزن أكثر من مائتي رطلاً.

- هذا جيّد، السيّد بيرو، قالت الملكة، تأمرون بغلْيها بالخلّ، وتقدّمونها، هذا المساء، أمام الملك على المائدة. فأنتم تعرفون أنّه يعشق هذا النّوع من السّمك.

أدّى بيرو التّحية للملكة وانصرف. سارعت الملكة، من جديد، إلى الشّرفة، لكنّ العصفور الصّغير كان قد اختفى.

الملك بدوره عاد إلى ديوانه في حالة يستحيل وصفها.

- أيّها السيّد ألبيرتي، أنا الآن أعرف كلّ شيء، لكنّني أقسم بعرشي أنّهما سيموتان معاً! أن يسمِّموا سمكة بهذا الجمال! سمكة ترس تزن أكثر من مائتي رطل، يا له من فعل فظيع! اعملْ فوراً، يا سيّد ألبيرتي، على استقدام كلّ علماء الكيمياء الموجودين بالعاصمة، أولئك الذين يطلقون عليهم لقب أمراء العِلم، ثمّ آتني بالسّمكة.

عندما اجتمع الكيميائيّون، الذين وصل عددهم إلى عشرين، بالدّيوان، خاطبهم الملك قائلاً:

- أيّها السّادة، اعملوا على تحليل سمكة التّرس الموجودة أمامكم، وحدّدوا طبيعة السّم الموجود فيها.

- هي سمكة مسمَّمة؟ سألوا جميعُهم في الوقت نفسه.

- نعم أيّها السّادة، هذه السّمكة مسمومة.

- آه! طيّب، قالوا، ثمّ شرعوا في العمل على الفور.

كان روناردينو، أثناء قيّامهم بعملهم، يبدو مضطرباً؛ كان يرتعش خوفاً من أن تنكشف الخدعة التي دبَّرها كي يُوقع ببيرو. كما أنّ دهشته وفرحته كانتا كبيرتين عندما صرّح العلماء بالإجماع، بعد أن أنهوا

تحليلهم، بأنّ أعضاء السّمكة التي أخضعوها للتّحليل تختزن عشرين نوعاً من السّموم.

كان كلُّ عالم من العلماء العشرين قد عثر على نوع من السّم مختلفٍ عن الأنواع الأخرى.

عندما قدّم أمراء العلم تصريحهم هذا، قدّموا التّحية وانصرفوا واحداً خلف الآخر.

بعد ذلك بساعتين، قدّم روناردينو لبييرو، بطريقة رسميّة، رسالة من الملك يطالبه فيها بأن يجمع أشياءه على الفور وبأن يتوجّه إلى قصر الأمير آزور كي يُجري معه مفاوضات قصدَ إحلال السلم بين الطّرفين؛ وهو ما يعني باختصار، إرساله إلى الموت.

في اليوم نفسه أُلقي القبض على الملكة، رغم دموع زهرة اللّوز، واقتيدت، تحت حراسة مشدّدة، إلى صومعة قديمة تقع في طرف المدينة.

والحال أنّ كلّ ما حصل كان من تدبير روناردينو الشّرير: كان قد سمع الملكة، مرّات متعدّدة، تنادي من شرفتها على العصفور الصّغير، فاغتنم فعلها ذاك كي يثيرَ غيرة الملك، التي كانت قد استثيرت سلفاً من خلال الحكاية الخادعة المتعلّقة بما حصل في البحيرة عندما غرق الزّورق الملكيّ.

أمّا سمكة التّرس المسمومة، فإنّما هي حكاية من اختراعه، لكنّها حكاية أضحت، منذئذٍ، شهيرة في البلد كلّه، وأصبحت تعاد كلّ سنة، في اليوم نفسه، بالاسم الذي أصبح معروفاً عند الجميع، ألا وهو «كذبة

الأوّل من نيسان»، وبالحرف الواحد «سمكة نيسان»[1].

ها أنا قد حذّرتكم، يا ملوك بوهيميا الصّغار. احذروا، خلال ذلك اليوم، أشباهَ رونارديني.

«انطفأت شمعتي، وما عاد لي من نور»

بعد أن قرأ بييرو الرّسالة الملكيّة، بدأ يفكّر: أصبح واضحاً بالنّسبة إليه أنّه إذا كان الملك قد أرسله إلى قصر الأمير آزور، فلأنّهم يريدون به شرّاً.

– لكن، اللّعنة! قال، وهو يفرقع أصابعه، سنرى ما سيكون!

ثمّ صعد إلى غرفته وهو يدندن بلحن. أمضى في تحسين هندامه أكثر من ساعتين، وهو ما لم يحصل له من قبل قطّ.

أراد، قبل أن يتوجّه إلى قصر الأمير آزور، أن يودّع الملك، لكنّ هذا الأخير صفَق الباب في وجهه، كما يفعل عادةً مع أتباعه الذين يكون غاضباً عليهم. بعد ذلك صعد إلى غرفة زهرة اللّوز كي يحمل معه على الأقلّ صدى صوت محبوب.

– هيّا انصرف! صاح في وجهه قلب الذّهب وهو يوجّه نحوه حربته. ممنوع الدخول!

– اضطرّ بييرو للتّراجع. نزل إلى حدائق القصر فاحتضنَ، بحنانٍ، الحطّاب وزوجته اللّذين سلّماه، وهما يبكيان، سلّة مليئة بأطعمة من

(1) يشمل الكاتب بدعابته هنا أيضاً طرفة شعبيّة معروفة عالميّاً باسم «كذبة الأوّل من نيسان»، ويدعوها الفرنسيّون «سمكة أبريل» أي «سمكة نيسان» poisson d'avril، ويصورّها كما لو كانت ولدت من الحادثة التي يسردها في حكايته الخياليّة هذه.

كلّ نوع.

قال له السيّد روناردينو، الذي كان يراقب كلّ حركاته أثناء انصرافه، وهو متكئ بمرفقيه على حافة نافذة غرفة القصر:

- حظّاً سعيداً، يا سيادةَ السفير. أبلغ تحيّاتي إلى الأمير آزور.

- سلامك مُبلّغ، أيّها السيّد الوزير الأعظم، أجاب بييرو، الذي لم يشأ أن يتعالى على سيّد يُبدي كلّ ذلك التّهذيب، وانطلق بهمّةٍ يمشي، سلّته معلّقة إلى ذراعه.

ولستُ في حاجة، يا أطفالي الأعزّاء، كي أقول لكم إنّ بييرو قد توقّف مرّات متعدّدة وهو في طريقه إلى قصر الأمير آزور. كان كلّما صادف في طريقه بِساطاً أخضر من العشب، يجلس على الطريقة الشّرقية ويفرش أمامه رداءً أبيض مثل الثّلج، يضع عليه طعاماً شهيّاً يخرجه من السّلة، ثمّ يشرع في الأكل بشهية كبيرة، إلى درجة أنّه عندما وصل إلى منتصف الطّريق، كان طعامه قد نفد، فأصبحت السّلة فارغة تماماً.

- عليَّ الآن أن أحاول الإسراع، قال بييرو في سرّه، ثمّ شرع يمشي بخطوات واسعة، فوصل في المساء نفسه إلى قصر الأمير آزور.

لكنّ وصوله صادف لحظة سيّئة للغاية؛ ذلك أنّ القصر كان في هرج ومرج، لأنّ الأمير آزور كان قد ابتلع حسَكة سمكة، فأصبح في حالة شديدة من الغضب، إلى درجة أنّه خنق بيديه طبيباً فشل في إخراج الحسّكة من حنجرته.

غير أن الطّريقة العنيفة التي قُتِلَ بها الطّبيبَ لم تخلّص الأمير من الألم الذي كان يُقلقه، لذلك راودته فكرةُ استعمالِ طريقة أخرى أكثر

لطفاً: قرّر أن يجعل وزيره الأعظم يبتلع بدوره حسَكة مماثلة لتلك التي ابتلعها هو، وأن يجرّب على حنجرة معاليه كلّ التجارب التي يمكن للعِلم أن يتصوّرها. كان إذن يهمّ بالمناداة على وزيره الأعظم، عندما ولج المسافرُ القاعة، برفقة الضّابط المكلّف بالاستقبال.

- من أنت؟ سأله الأمير الذي أرغمه حادث بلْع الحسكة على الحديث عن طريق أنفه. من أنت حتّى تتجرّأ على المثول أمامي؟

- اسمي بييرو، أجاب بطلنا، أنا موفد صاحب الجلالة ملك بوهيميا، وقد أتيت كي أتفاوض مع سموّكم حول اتفاقيّة سلام.

- وحقّ حدبتي! قال الأمير، ما كان بإمكانك أن تأتي في وقت أحسن من هذا. وعلى أيّ حال، فأن تكون أنت خيرٌ من أن يكون وزيري الأعظم. اجلس إلى تلك المائدة... جيّد... والآن فلتأكلْ هذه السّمكةَ التي أمامك، واعملْ بالخصوص على أن تبتلع الحسَكات كلّها. أتسمع، كلّها؟ ابتلعْها كلّها وإلاّ قتلتك مثل كلب.

وبما أنّ بييرو كان يشعر بجوع شديد فإنّه قد استجاب على الفور لطلب الأمير آزور: أخذ يأكل بشهيّة ظاهرة، إلى درجة أن السّمكة المشوية التي كانت قبل قليل تملأ المائدة، اختفت في رمشة عين، كما لو بفعل ساحر. لم يبق منها سوى الحسَكة الكبرى. شمّر بييرو كمّه ثمّ أمسك بالحسَكة بسبّابته وبإبهامه وحملها فأدخلها برفق في فمه، ثمّ قام بمجهود كبير، أتبعه بحركة من وجهه، فابتلعها.

- أيّها الأمير، قال بييرو بنبرِ مشعوذٍ أرسل لتوّه كرةَ شعوذتهِ بعيداً، لقد قمتُ بما أمرتني به!

- هذا مستحيل! قال الأمير آزور الذي تابع ما قام به بييرو بانتباه كامل. هيّا تعال، اقترب منّي وافتح فمك... هذا أمر خارق! قال وهو يستكشف، مستعيناً بضوء، كلّ زوايا فكّي بييرو... اختفت الشّوكة! يا إلهي، هذا أمر لا يُصَدَّق.

قال ذلك ثمّ استنشق كمية كبيرة من الهواء، وقام بمجهود جبّار رافقه بتكشيرة رهيبة من وجهه، فمرّت الحسَكة التي كانت ملتصقة بحنجرته.

- نجوتُ! لقد نجوتُ! صاح الأمير. ها! ها! ها! أيّها الصّديق، لقد قدّمتَ لي خدمة جليلة، وكي أجازيك فإنّني أترك لك أن تختار طريقة الموت التي تراها أنت أنسب لك؛ ألا ترى أنني أمير طيّب!

- سيّدي، أنا في الحقيقة لم أكن انتظر منكم أقلّ من هذه الطّيبة التي أبديتموها نحوي، لكن من الأحسن أن تختاروا أنتم طريقة موتي، فأنا أترك الخيّار لسموّكم.

- آه! أنت تريد أن تمزح يا صغيري، قال الأمير. اعلَمْ إذن أنّني بعدما رأيتك، قبل قليل، تأكل بكلّ تلك الشهيّة، أرى الآن أنّه سيكون مدعاةً للفضول أن أراك تموت جوعاً.

رغم احتفاظ بطلنا برباطة جأشه، فإنّه لم يقدر على منع نفسه من أن يرتعش من سماعه تلك الكلمات.

- أن أموت جوعاً، قال مخاطباً نفسه، فذاك ما لم يسبق لي البتّة أن فكرت فيه.

ربّما كان يهمّ بأن يتراجع عن اختياره عندما أصدر الأمير آزور الأمر

لحرسه بأن يحبسوه في أحد أقبية القصر.

لم يكن القبو الذي حُبِسَ فيه بييرو، يا أطفالي الأعزّاء، سوى سجنٍ رهيب لم يكن الهواء والشّمس يصلانه إلاّ عبر فتحة صغيرة عليها سياج كثيف من الحديد. كما أنّ موقع القبو لم يكن يسمح لبييرو الشّقي بأن يرى ولو جزءاً صغيراً من السّماء.

كان كلّ ما يوجد في القبو ينحصر في سريرٍ رديءٍ وخشنٍ وإسكملةٍ وجرّةٍ من طينٍ وشمعدانٍ من حديدٍ يجدّد السّجان شمعته صباحَ مساء.

عندما أغلق السّجان الباب خلف بييرو، تمدّدِ هذا الأخير على السّرير، منهَكاً بعد أن قطع كلّ تلك المسافة مشياً على الأقدام، وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

وخلال اليوم التّالي، في الصّباح الباكر، استيقظ منتفضاً بفعل صوت حادّ ترافقه صلصلة مفتاح.

انفتح الباب ودخل السّجان.

- خذ أيّها الرفيق، قال السّجان، هذا ماء طريّ استقيته لتوّي من النّبع. أنا لن أسلّمك الشّمعة لأنّني أرى أنّك لم تستعمل الشّمعة التي وضعتها أمس بالشّمعدان.

ضرب بييرو جبهته بكفّه، كما يفعل أيّ شخص خامرته فكرة، لكنّه لم يجب بشيء.

خرج السّجان وأقفل الباب بثلاث دورات من المفتاح. وعندما لم يعد سجينُنا يسمع صدى خطواته في الممرّ، قفز من على سريره ثمّ أمسك الشّمعة بلهفة وأكلها عن آخِرها.

وعندما انتهى من تناولها، وضع الكرسيّ في شعاع الضّوء الباهت المتسلّل من الفتحة وشرع ينحت من قطعة خشب، بواسطة سكّين صغير كان يحمله، لعبةَ أطفالٍ جميلة. عندما أقبل المساء، كانت قطعة الخشب قد أصبحت دمية صغيرة تُحرِّك، اعتماداً على خيطٍ، ساقَيها وذراعَيها بطريقة جذّابة.

- يا إلهي! ما ألطف هذا! قال الحارس عندما دخل القبو، وقد أشرق وجهه الأصهب، فأصبح مثل نبتة الوَدح، وهو يتملّى مظهر الدّمية المتحرّكة الجميلة. عليك أن تسلّمني هذه الدّمية، أيّها الرّفيق، كي يتسلّى بها طفلي الصّغير.

- بكلّ فرح، قال بييرو، ولو كان بإمكاني أن أرى بوضوح داخل هذا القبو لصنعتُ له دمىً أخرى أجمل من هذه. لكن ها أنت ترى أنّ القبو معتم للغاية.

- هذا ليس أمراً صعباً يا سجيني، أجاب السّجان الذي لم يكن يرى في الشّمعة إلاّ أداة للإضاءة، سأحضر لك من النّور ما ستستطيع به أن ترى كما ترى في منتصف النّهار.

بعد خمس دقائق من ذلك، كان بييرو قد حصل على خمسِ عُلَبٍ من الشّمع أو ستٍّ، وأنتم تعرفون الآن، يا أطفالي الصّغار، أكثر ممّا أعرف أنا، لأيّ غرضٍ كان يستعملها بييرو. أريد أن أضيف فقط أنّ بييرو، عندما كان ينفد زاده، كان يشرع في الإنشاد عبر فتحة القبو:

ماتت شمعتي

وما عاد لي من نور...

فيسرع الحارس الطّيب، مطلقاً ساقيه للرّيح، كي يأتي بييرو بزادٍ جديد.

انقضى خمسة عشر يوماً على تلك الحال. أصبحت جودة اللُّعَب التي يصنعها بييرو عالية، ممّا جعل السّجان يتاجر بها في حانوت فتَحَه بالمدينة، يظلّ الأطفال أمامه فاغرين أفواههم خلال اليوم كلّه، مبدين إعجاباً كبيراً بما هو معروض أمامهم من لُعَب جميلة.

غير أنّ الأمير آزور أراد أن يعرف، ذات يوم، ما آلت إليه أحوال سجينه. حمل مشعلاً ونزل إلى القبو، فكاد يسقط على قفاه وهو يعود القهقرى، بعد ما رآه من امتلاء القبو بالحيويّة.

- كيف! أليس غريباً أن تكون بعدُ على قيد الحياة؟

- الحمد لله، أنا في صحّة جيّدة، أجاب بييرو.

- آه! أنت في صحة جيّدة، قال الأمير بنبر مهدِّد. إذن، سنرى ونضحك.

ثمّ غادر السّجن.

بيد أن من واجبي أن أقول لكم، يا أطفالي الأعزّاء، أنّ الأمير آزور كان قد قرأ، قبل ذلك بيومٍ، «مغامرات الأميرة الماهرة»، وهي من بين أجمل الخرافات، فشرع يضحك بملء فيه وهو يقرأ وصفَ عملية تعذيب فظيعة واردة في تلك الحكاية. ضحكَ من ذلك ضحكاً شديداً، إلى درجة أنّه أحسَّ، في لحظةٍ ما، بأنّ الحسَكة تصعد إلى حنجرته من جديد. ومنذ قرأ تلك الخرافة، لم يستطع أن يأكل ولا أن ينام، لفرط ما كان يستعجل أن يجرّب على أحد رعاياه تلك الطّريقة في القتل.

وبما أن بييرو لم يكن قد مات بسبب سجنه المرعب، فإنّ الأمير آزور قد رأى أنّ الفرصة مؤاتية بالنسبة إليه كي يكون بييرو هو الضّحية التي تُجَرَّب عليها تلك الطّريقة.

في تلك اللّحظة نفسها استُقدِم، بأمر من الأمير آزور، برميلٌ إلى القصر، فرُصِّعَ من الدّاخل بقطع فولاذ مسنّنة مثل إبَر، ثمّ حُمِلَ إلى قمّة جبلٍ عالٍ يقع على مدخل المدينة.

وأثناء ذلك، أُخرج بييرو من سجنه واقتيد إلى قمّة ذلك الجبل، حيث أمسك السّجان به من كفّه وأخذ يلتمس منه، بأدبٍ، أن يدخل البرميل.

- سيدخل! لن يدخل! ردّد الجمهور الغفير الذي سارع بأعداد كبيرة إلى الجبل كي يحضر ذلك العرض الخارق للعادة.

دخل بييرو في البرميل.

وعندما أصبح كلّ شيء جاهزاً أعطى الأمير آزور، من المصطبة التي كان يقتعدها، الإشارةَ، فدفع الجلاّدُ بقدمه البرميلَ من على قمّة الجبل.

- رأى الجمهور ذلك السّقوط البشريّ المُريع، بتلك السّرعة الرّهيبة؛ رأوا البرميل يقفز من حَجَر إلى حجر، حاملاً معه كلّ ما يلقاه في طريقه، فساد صمت حزين، يقطعه أحياناً بكاء الأطفال الصّغار الذين لم يستطيعوا تحمّل رؤية ذلك القتل الشّنيع للفتى الأبيض السّحنة الذي كان يصنع لُعَباً بذلك الجمال. لكنّ المفاجأة كانت عامّة عندما انشطر البرميل شطرين، عند وصوله إلى سفح الجبل، ورأى الجمهور بييرو ينبثق منه، مسلّحاً من أخمص قدميه إلى قمّة رأسه، تماماً كما كانت

انبثقتْ، في الأسطورة، مينيرفا من رأس جوبيتر[1]. نعم يا أطفالي، كان بييرو مسلّحاً من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه، بزَرَدٍ من الفولاذ الرّقيق، وبعُدّة تكون عادةً لدى الفرسان الشّجعان وهم يدخلون ساحة المعركة. كانت تلك ملابس داخلية ارتداها من باب الاحتياط قبل أن ينصرف متوجّهاً إلى قصر آزور. أمّا بالنّسبة لصدريّته التي ما عادت تستر شيئاً من جسده، فقد أصبحت مجرّد مِزَق متدلّية بسبب قطع الفولاذ المسنّنة الموجودة داخل البرميل.

- هيه! هيه! صاح الجمهور عندما استفاق من انبهاره.

- ليسقط الأمير آزور! صاح الأطفال الصّغار، وهم يضربون الأرض بأرجلهم ويصفّقون بأكفّهم، مُبدين فرحاً شديداً وهم يرون أنّ بييرو كان ما يزال على قيد الحياة.

أثناء ذلك، كان الأمير آزور يغلي من الغيظ على مصطبّته، فأمر جنوده بالذّهاب لإلقاء القبض على بييرو. كان يودّ أن يعيد العملية من جديد، لكنّ البرميل كان قد تحطّم تماماً، كما أنّ الوشوشات كانت قد انتشرت بين الرّعيّة بقوّة، ممّا جعل الأمير آزور يرى أنّ من باب الاحتياط، وتفادياً لاندلاع أعمال شغب في البلد، أن يعود إلى قصره فوراً.

أُعيد بييرو إلى سجنه. وما كاد يستقرّ فيه لمدّة ساعة من الزّمان، حتّى أتاه الحارس بلباس كامل مشابه تماماً للّباس الذي كان لديه، اشتراه له

---

(1) مينيرفا هي في الأساطير الرّومانيّة إلهة الأشجار والفنون والعلوم وتقنيّات الحرب، وهي ابنة الإله جوبيتر، ولدت من رأسه كما ولدت حوّاء من ضلع آدم.

الأطفال بعد أن جمعوا ثمنه. تأثّر بييرو بالغَ التأثّر بإشارة الاهتمام هذه التي أبداها نحوه الأطفال، ممّا جعل الدّموع تراود عينيه. بارك الأطفالَ الصّغارَ في سرّه، وأقسم بأن يُكنّ لهم الحبّ ما دام حيّاً.

ما كاد بييرو يزرّر آخر زرّ من صدريته حتّى دخل رجل إلى زنزانته وأشار عليه بأن يتبعه. كان هو، ثانيةً، الجلاّد.

أجاب بييرو بإشارة أخرى تدلّ على أنّه مستعدّ لفعل ما أمرَه به. شرعا يمشيان معاً عبر دهاليز القصر المعتّمة، وهما يصعدان وينزلان سلالم كثيرة، أفضت بهما في الأخير إلى ساحة تقع في وسطها حفرة، وفي عمق تلك الحفرة كان يوجد دبّ أبيض كانت عدوانيّته معروفة في الإقليم كلّه.

عندما وصل الجلاّد إلى الحاجز الذي يحيط بحفرة الدّب توقّف، ثمّ استخرج من جِرابِه سُلّماً مصنوعاً من الحبال ربطَه بقوّة إلى قضيب من الحاجز، وأشار على بييرو بأن ينزل إلى عمق حفرة الدّبّ.

نزل بييرو.

كان الدّبّ ينام بعمقٍ، فلم يسمعه. لكنّ رائحة اللّحم الطّريّ التي كانت تصله إلى غايةِ عمقِ نومه، جعلته يرفع رأسه بكسل، ويتحسّس مصدر الرّائحة.

فجأة تمدّدت عيناه وألقتا ببريق داكن.

عندما كان بييرو قد أدرك عمق الحفرة، سُحِبَ سلّم الحبال على الفور.

وعوض أن يرتمي الدّب بقفزة واحدة على فريسته، كما تفعل كلّ

الضّواري، تظاهر بأنّه لم يرَ شيئاً. انتصب من على الأرض ببطء، وشرع يمطّ أعضاءه الفاترة عضواً بعد عضو، ثمّ أخذ يتقدّم بخطىً قصيرة، متّكئاً على قائمتيه الخلفيتين، وهو يحرّك رأسه. كان مظهره الخارجيّ يوحي بأنّه حيوان من أشرف حيوانات الدّنيا، كما أنّه كان يبدو حيواناً بريئاً وطيّباً. ولو كنتم رأيتموه، أنتم أنفسكم يا أطفالي الأعزّاء، لَكنتم أبديتم نحوه، وأنا متأكّد من ذلك، احتراماً كبيراً.

لكنّ بييرو، الذي كان يعرف طباع الدِّببة عن ظهر قلب، لم يغترّ بتلك المظاهر الخادعة. لذلك تمدّد على الأرض وحبس أنفاسه وتظاهر بالموت.

اقترب الدّبّ وفحص للحظاتٍ، بعينين ملؤهما الشّكّ، جسدَ بييرو الممدّد هادئاً على الأرض، ثمّ اشتمّه ودار حوله من كلّ الجهات. وعندما قدّر أنّ الأمر يتعلّق فعلاً بجثّة، أبدى علامة اشمئزاز، وعاد لينام في عرينه بالخطوات المتباطئة نفسها التي أقبل بها.

وعندما استغرق الدّبّ في نومه، وقف بييرو برفق، وتقدّم على رؤوس أصابع قدميه نحو الحيوان. استلّ سكّينه الصّغيرة من جيبه، وقطع رأس الدبّ بإتقان، دون أن يترك للحيوان المسكين وقتاً للاستيقاظ. بعد ذلك أشعل ناراً متأججة من القش، وقطع من لحم الدّبّ وشوى أكلاً شهيّاً قضّى ليله والأيّام التّالية وهو يأكله دون انقطاع.

بعد أسبوع من ذلك، سارع الأمير آزور إلى الحفرة:

– جيّد، أيّها الحيوان الجميل! قال للدّب المتبختر أمامه. أنا كنت على

يقين من أنّك ستزدرده في لقمة واحدة.

- تحيّة للأمير آزور! أجاب الدّبّ الذي رفع رأسه وأرى مُخاطِبَه وجه بييرو المعفّر بالغبار.

- اللّعنة! ليس الدّبّ هو الذي أكل بييرو، وإنما بييرو هو مَن أكل الدّبّ!

خيانة روناردينو

كانت حالة الأمير آزور أمام بييرو تصبح يوماً بعد يوم مُحرِجة ومثيرة للسّخرية.

قال الأمير آزور، عندما استيقظ صباح اليوم التّالي:

- عليّ أن أقضي عليه اليوم بيدي هاتين، وإلاّ فإنّ اسمي لن يكون هو الأمير آزور.

وفجأةً أمسك بكفّه سيفاً تركيّاً رائعاً، كان قد أهداه إياه السّلطان العظيم مصطفى، فأرغم بييرو على أن يجثو أمامه وهو يلوّح بسيفه، ثمّ هوى على رقبته بضربة مرعبة.

اختفى رأس بييرو.

عندما قام الأمير آزور بمأثرة المُحارب تلك، لم يستطع منع نفسه من أن يبدي حركةَ زهو، فاتّكأ على سيفه وهو يسنده إلى خصره، وظلّ في تلك الوضعيّة للحظاتٍ أمام جنوده.

- هل انتهى أمره؟ وشوش الجلاّد بصوت خافت، وهو يشعر بأنّ صبره أخذ ينفد أمام كلّ تلك التّمارين المدرسيّة التي يقوم بها سيّده.

وأضاف بعد لحظة: سيّدي، اسمح لي بأن أزعجك، لكن من واجبي أن أقول لك إنّ رأس سجينكم قد اختفى.

- هيه! تبّاً لك! أنا على علم تامّ بذلك، أجاب الأمير وهو يزيد من شموخ قامته بافتخار.

- لكنّ ما لا تعلمونه، ربّما، عقَّب الجلاّد، هو أنّ من المستحيل العثور عليه.

- ماذا تقول! أنت تمزح بالتّأكيد... ثمّ تخلّى عن وضعيّته التي أراد بها إثبات بطولته وشرع يبحث بنفسه، لكنّه لم يعثر على شيء.

فجأة، انتصب شعر رأسه الأصهب وأصبحت عيناه ثابتتين من الرّعب. فهو قد رأى لتوّه أموراً مثل عينينِ وأنفٍ وفمٍ تخرج شيئاً فشيئاً من كتفَي ضحيّته، وهي تأخذ بهدوء مواضعها الطّبيعية من جسد بييرو. إنّه الرأس الذي كان يبحث عنه والذي ظنّ أنّه كان قد قطعه. لكنّ بييرو كان قد أدخله، بطريقة لا يعرفها إلاّ هو، بحِذق، سالماً في عمق صدريّته.

عندما رأى الأمير آزور ما رأى، فهم أنّه كان غبيّاً، وشعر بإذلال كان من القوّة بحيث ترك سيفه يسقط من كفّه على البلاط، فتكسّر كما يتكسّر الزّجاج، لأنّه كان مصنوعاً من فولاذ خالص.

- سيّدي، قال الجلاّد، في تلك اللّحظة، هل تريدون قتل هذا الرّجل؟ أنتم تريدون القضاء عليه، أليس كذلك؟ إذن اتركوني أفعل، ولْتشنقوني إن استطاع النّجاة هذه المرّة.

- صافِح كفّي، أيّها الشّهم، قال بييرو وهو يضرب بكفّه على كفّ

الجلاّد، اتّفقنا.

في تلك اللّحظة نفسها نُصبت المشنقة في ساحة القصر، وأُوتيَ ببييرو فأُصعِد إلى المصطبة حيث كان يُفترَض أن تُسحَب الخشبة من تحت قدميه، عندما تُعطَى الإشارة.

عندما أنهى الجلاّد المكلّف بعملية الشّنق استعداداته، صعد السّلم وهو يحمل حبلاً في يديه. بعد ذلك عقد الحبل على هيئة أنشوطة ومال كي يدخلها في عنق السّجين. لكنّ بطلنا، في الوقت الذي لم يكن الجلاّد ليتوقّع فيه ذلك أبداً، أمسك بهذا الأخير من وسطه ودغدغ بقوّةٍ خاصرتيه بيديه معاً، ممّا جعل الجلاّد المسكين يستغرق في ضحك طويل، غير مُتَحَكَّم فيه، فاضطرّ أن يطلق الحبل من يديه مخافة أن يسقط.

أمسك بييرو في طرفة عين بالحبل ووضع العقدة بمهارة في عنق الجلاّد ثمّ ضرب بقدمِ السُّلم وسحب بالأخرى خشبة المصطبة، فوجد الجلاّد نفسه، وهو ما يزال يضحك، مشنوقاً.

– ماذا أيّها الرجل الشّهم! قال بييرو، لقد خسرتَ.

عندما شاهد الأمير آزور تلك النّهاية الغريبة، سارع نحو بييرو وهو يريد أن يطعن خاصرته بخنجره. لكن في تلك اللّحظة دخل إلى ساحة القصر رجل مُغْبَرّ وهو يتصبّب عرقاً، فأوقف الأمير في طريقه وسلّمه رسالة.

– هذه رسالة أرسلها لك السيّد روناردينو، قال، خذوها واقرأوها.

فضّ الأمير آزور المظروف وقرأ الرّسالة.

- مرحى! صاح وهو يقذف بقلنسوته في الهواء، مرحى! بوهيميا أصبحتْ لنا!

فتقدّم الرّسول نحوه وهو يثير انتباهه إلى أن للرّسالة ملحقاً.

- يا للشّيطان! قال الأمير وهو يفرك أذنه. اليهوديّ يطلب منّي ثلاثمائة ألف قطعة نقدية ذهبيّة... لكن، وعلى أيّ حال، فإنّ هذا الثّمن ليس غالياً ما دام ثمناً لمملكة بوهيميا. هيّا أيّها الجنود، سلاحكم، سلاحكم!

عندما أعطى الأمير آزور هذه الإشارة، سادت القصرَ جلبةٌ عظيمة. لم يعد أحد يفكّر لا في بييرو الذي تسلّل خارجاً ولا في الجلاّد الذي ظلّ مشنوقاً. وهو ما شكل مصدرَ ارتيّاح عند رعايا الأمير آزور الذين كانوا يكرهونه كرهاً شديداً.

عندما كان ذلك يحصل في قصر الأمير آزور، كان ملك بوهيميا يجلس إلى مائدة طعامه بقصره، يصحبه كلّ من زهرة اللّوز والوزير الأعظم رونارديو وقلب الذّهب، الذي كان الملك قد عيّنه قائداً عامّاً للجيوش الملكيّة.

ساد الوجبةَ جوّ حزين وصامت. كان الملك الهرِم، الذي لم يرَه أحد يضحك ولو لمرّة واحدة منذ وُضعت الملكة في السّجن ومنذ انصراف بييرو، كان خلال ذلك المساء يجلّل وجهَه حزنٌ شديد.

فقد قضّى اللّيلة وهو يرى في منامه أنّهم يقتلونه قتلاً عنيفاً ويدفنونه. ضيوفه لم يكن لهم، هم أيضاً، أية رغبة في الضّحك. كانت زهرة اللّوز تفكّر حالمة في أمّها، وكان قلب الذّهب يفكّر في زهرة اللّوز.

كان السيّد روناردينو، بدوره، يبدو قلقاً للغاية. وكان، وهو يميل بأذنه نحو الباب، ينتفض لأقلّ جلبة قادمة من الخارج.

فجأةً، فُتح الباب على مصراعيه، وظهرت على العتبة المتسوّلةُ العجوز التي سبق لهم أن التقوا بها على الطّريق.

- زهرة اللّوز، قلب الذّهب، قالت، تعالَيا معي. إنّ صاحبة الجلالة تطلبكما إلى جانبها.

عندما سمعت زهرة اللّوز اسم أمّها، انتصبت واقفة، وجرت لتقبّل أباها ثمّ خرجت. ذهب قلب الذّهب في أثرها، ثمّ أُقفل الباب خلفهم.

ظلّ السيّد روناردينو وحيداً في رفقة الملك. قال الوزيرُ الأعظمُ في نفسه:

- أمر جيّد، ما كان بإمكان هذه المشعوذة أن تأتي في وقت أنسب من هذا، كي تخلّصني من هذين الشّخصين غير المرغوب فيهما. إنّ كلّ شيء يسير الآن على خير ما يرام.

ثمّ قال بصوت مرتفع:

- هيّا يا سيّدي، اطردوا من أذهانكم هذه الأفكار السّوداء التي تحاصرها، ولنحتفل بمناسبة القضاء الوشيك على الأمير آزور وبمناسبة رفاهية بيتكم.

حمل الملك بصورةٍ آليّةٍ كوباً إلى شفتيه وشربَ محتواه دفعة واحدة.

- آه يا إلهي! قال الملك، ثمّ سقط منقلباً على أريكته، كما لو أنّ الصّاعقة قد أصابته.

- ممتاز! قال السيّد روناردينو وهو يفرك كفّيه، لقد فعل مسحوقُنا

المخدِّر فعله. ولنحقّق الآن ما وَعَدنا به.

ثمّ أخرج من جيبه حبلاً وقيّد الملك من رأسه إلى قدميه.

ولو أنّ تلك الجريمة الشّنعاء التي ارتكبها الرّجل الشّرير لم تَشغَله بشكل كامل، لكان بإمكانه أن يرى في الكوّتين المنصوبتين أمامه وجهاً أبيض ناصعاً وعينين مفتوحتين على سعتهما وهما تتابعان تلك الحركات كلّها، باندهاش مخلوط بالرّعب.

كان ذلك هو بييرو الذي عاد بسرعة كبيرة من قصر آزور، فكان أوّل ما اهتمّ به عندما دخل إلى قصر ملك بوهيميا هو أنْ ذهب ليرى ما الذي يحدث في قاعة الطّعام.

فجأةً صدرت أصواتُ خطواتٍ مصحوبة بأصوات سيوف تتقارع في أروقة القصر. فتح الأمير آزور الباب دفعة واحدة، وسارع نحو السيّد رونارديتو.

- أين الملك؟ سأل الأمير آزور بصوت خفيض.

- هو هناك، في الأريكة، مقيّد اليدين والرّجلين، أجاب رونارديتو.

- وحقّ حدبتي! إنّك لَرجلُ كلمةٍ بالفعل.

- والثّلاثمائة ألف قطعة نقدية ذهبيّة؟

- ها هي ذي.

في تلك اللّحظة من الحوار الجاري بين رونارديتو والأمير آزور، انزلق أمامهما بسرعةٍ طيفٌ أبيض، فأمسك بالصرّة التي كان يمدّها الأمير آزور للوزير الأعظم رونارديتو، ثمّ نفخ على الشّمعة فانطفأ الضّوء وغرقت الغرفة في العتمة. وفي اللّحظة نفسها تلقّى السيّد

ألبيرتي رونارِدينو، الذي كان يمدّ كفّه ليمسك بالقطع النّقدية الذّهبية، صفعة عنيفة على خدّه، فردّ عليها بضربة من قبضة يده هوت مباشرة على وجه الأمير آزور.

دارت، إذن، في العتمة، معركة رهيبة، مصحوبة بالصّراخ والعضّ وإطلاق اللّعنات. كان الأمير آزور ورونارِدينو يتشابكان ويتدحرجان ممسكاً أحدُهما بالآخر، وهما ينفتلان مثل أفعيَين.

ارتعب الجنود من حدّة الجلبة التي كانوا يسمعونها، فسارعوا وهم يحملون المشاعل في أيديهم، وأَنهضوا المتعاركَين.

- ماذا! هذا أنت! صاح كلّ منهما وهما يتعرّفان أحدهما على الآخر، فظلاّ مشدوهَين، للحظةٍ، من هولِ المفاجأة.

لكنّ مفاجأتهما كانت أعظم عندما نظرا حولهما فاكتشفا أنّ الملك قد اختفى مع الثلاثّمائة ألف قطعة نقديّة ذهبيّة.

موت الأمير آزور

خلال المساء نفسه، شرع الأمير آزور ورونارِدينو بتفتيش دقيق للقصر. تكلّف أحدهما بالبحث عن الملك، وتكلّف الثّاني بالبحث عن الآلاف الثّلاثمائة من القطع النّقدية الذّهبية التي سُلبت منهما. لكن بحثهما لم يفض إلى أيّة نتيجة.

كان الملك قد غادر القصر؛ فقد أخذه بييرو إلى كوخ الحطّاب، وهو الآن ينام نوماً عميقاً. كان بييرو قد فكّ قيوده، وشرعت مارغريت الطّيبة تضع بين الفينة والأخرى أمام أنفه أملاحاً حادّة الرائحة كي

يشمّها، ممّا كان يجعل الملك المسكين يُقطّب وجهه بحدّة، ويشرع في توجيه لكمات لأنفه.

أمّا الحطّاب، فكان، من جهته، يجلس إلى طاولة، مستنداً إلى مرفقيه وهو يتأمّل بنهمٍ كمّية كبيرة من القطع النّقدية الذّهبية التي ينبعث منها شعاع ذهبيّ يضاعف الإنارة الباهتة للمصباح.

غير أن الأمير آزور، الذي بدأ يشعر بقلق شديد، كان قد وضع حرّاساً عند مَداخل القصر، وقضى اللّيل كلّه في التّواصل مع السيّد روناردينو. كان أمرٌ واحدٌ يشغل باله بالخصوص، وهو غياب الفِرَق العسكرية للملك، التي كان قلب الذّهب قد أخذها معه، بنصيحة من المتسوّلة العجوز، عند المساء، كي تمشي في ركاب زهرة اللّوز.

أمّا روناردينو، فقد كانت ذهبت به الظّنون كلّ مذهب وهو يفكّر في ذلك الاختفاء الغريب. ورغم أنّه لم يكن يصرّح بشيء، فقد كان يتنبّأ بحدوث وشيك لما لا تُحمَد عقباه.

عندما أصبح الصّباح حضر قائد قوّات الأمير آزور، ودخل الغرفة.

- ما الجديد عندك؟ سأله الأمير آزور.

- ساد خلال اللّيل هدوءٌ كامل، سيّدي، أجاب القائد؛ غير أنّ جنود الحراسة لمحوا طيفاً يحوم، طيلة اللّيل، حول مَداخل القصر. وقد اعتقد أحد الجنود أنّه قد تعرف في هذا الطّيف على الرّجل الأبيض الذي قال إنّه مُوفَد ملك بوهيميا، والذي أردتم قتلَه. وسواء أكان الأمر يتعلق به أم بشخص آخر، فإنّني لا أستطيع أن أخفي عن جلالتكم أنّ معنويات جنودكم قد تأثّرت تأثّراً بالغاً بهذا الظّهور الغريب.

– ماذا! الجبناء يخشون طيفاً! قال الأمير آزور بصوت متوتّر. إذن، أيّها القائد، علينا استباق الأمور. اخرُجْ من القصر برفقة فرقي العسكرية وأشعلِ النّار في المدينة وانهبْها عن آخرها.

انحنى القائد محيّياً وخرج.

وبعد لحظة، عاد وقد استولى عليه رعب شديد.

– نحن محاصرون، أيّها الأمير. فقد أغلق ملك بوهيميا، الذي يوجد على رأس جيوشه، كلّ منافذ القصر، وهو يأمر جلالتكم بأن تسلّموا نفسكم!...

– لِتُهرَقِ الدّماءُ ولْيُنشَرِ الموتُ في كلّ مكان. من ذا الذي يأمرني بأن أسلّم نفسي! عقّبَ الأمير آزور بصوت رهيب. هاتِ أيّها القائد درعي ورمحي، وافتحوا مَداخل القصر، وسأشتّت بضربة واحدة كلّ أولئك الأوباش.

– أنتم، أيّها الأمير، لم تفهموا كلامي، قال قائد الجيوش. أنا أكرّر لكم أنّنا محاصَرون. لقد أُخِذَت كلّ مفاتيح مداخل القصر خلال هذه اللّيلة، فأصبح متعذراً علينا مغادرته.

– أُخِذَت المفاتيح؟ ومن يملك كلّ هذه الجرأة؟...

– ذلك الرّجل الأبيض الذي حام طيلة اللّيلة حول القصر والذي حدّثتكم عنه قبل قليل. وقد سلّم تلك المفاتيح منذ حينٍ إلى الملك، عدوِّك.

– سلّموا أسلحتكم! صاح فجأة صوت مهدِّد. سلموا أسلحتكم، وإلاّ فاعتبروا أنفسكم في عِداد الموتى.

كان الصّوتُ صوتَ قلب الذّهب الذي سارع بدخول الغرفة، متبوعاً بملك بوهيميا وبجنوده.

شعر الأمير آزور بغيظ شديد وهو يرى نفسه يقع في الفخّ، فاتّكأ بظهره إلى الجدار وهو يستعدّ للقتال. في تلك اللّحظة أمسك به من يده السيّد رونار دينو وقال له بصوت خفيض:

- بهدوء، أيّها الأمير، بهدوء، ودعني أتصرّف. إنّ المعركة لم تُخسَر بعد.

ثمّ تقدّم نحو الملك:

- سيّدي، إنّني لا أستطيع، في الحقيقة، أن أتخلّص من الاندهاش الذي استولى عليّ. ما الذي يحدث إذن؟ وما الذي يعنيه حضور كلّ هذه الجيوش؟ أبهذه الطّريقة تعبِّرون عن كرمكم وعن حسن ضيافتكم للأمراء الذين يلتمسون التّحالف معكم؟

- هيه! ما الذي تريد أن تقوله يا سيّد رونار دينو؟ صاح الملك.

- أنا أقول، واصل رونار دينو كلامه بصوت حادّ وهادئ، إنّ الأمير آزور الحاضر هنا بيننا، ورغبةً منه في إحلال السّلم بين مملكتيْنا، يتشرّف بأن يطلب من جلالتكم يد صاحبة السّمو الملكيّ، ذات الشّأن والعظمة، الأميرة زهرة اللّوز.

أطلق الحاضرون، عندما استمعوا إلى هذا الكلام غير المنتظَر تماماً، أصواتَ تعجُّبٍ. وبدا بيرو نفسه مشوّشاً فشرع يصفّر بلحن كي يهدّئ نفسه، بينما كان الملك يقول له بصوت خافت:

- ما الذي ستغنِّيه لنا هذه الليلة، بعد حكايتك عن المسحوق

الأبيض، يا سيّد بيرو؟

- الأمير آزور ينتظر جوابكم، سيّدي، واصل رونارديتو.

عندما سمعت المتسوّلة العجوز الواقفة إلى جانب الملك كلامَ رونارديتو، وشوشت في أذن الملك:

- أجيبوه بسرعة أنّكم توافقون على طلبه، لكن قولوا له إنّ عليه، كي يحظى بها، أن ينتصر على من يتقدّم لقتاله.

- أنتِ على حقّ، قال الملك. فأنا لم أفكّر في ذلك. شكراً لك أيّتها العجوز الطّيبة. ثمّ التفت نحو رونارديتو وقال:

- أنا أوافق، بكلّ فرح، على عرض المصاهرة الذي يتقدّم به لنا ابن عمّنا الأمير آزور، لكن بشرط؛ ذلك أن التّقليد القديم لمملكة بوهيميا يقتضي بأن يحارب الأمير آزور، في مباراةٍ فروسيّةٍ، كلّ من يتقدّم لمحاربته، بشتّى صنوف الأسلحة، راجلاً وراكباً.

- وأنا موافق، قال الأمير آزور.

- وإذن، فأنا أتحداك أيّها الأمير آزور! قال بصوت مرتفع، وفي الآن نفسه، كلٌّ من قلب الذّهب وبيرو، فرمى أحدهما قفّازه ورمى الآخر قبّعة اللّبد التي كان يعتمرها قرب قدَمي الأمير آزور.

- أيّها الأحمقان! صاح الأمير آزور بصوت متوعّد. الويل لكما! ثمّ قبِلَ بالتّحدي.

بعد ذلك بساعة، كانت كلّ الاستعدادات قد اتُّخذت لتبدأ المبارزة. اصطفّ الجيشان حول ساحة المعركة، مستعدّيْن للقتال، وجلس الملك على المصطبة المُقامة وسط الحلبة، على يمينه زهرة اللّوز وعلى يساره

السيّد روناردينو.

امتطى الأمير آزور، بزهوٍ، صهوة فرسه الأسود، وشرع ينتظر بثباتٍ إشارةَ بداية المعركة، رمحه في يده.

فجأة علا صوت البوق فبدا من أقصى حلبة الصّراع السيّد بييرو، وهو يركب حماراً، لا سلاح له ليدافع به عن نفسه سوى مذراة أخذها من أحد إسطبلات القصر، وعلى رأسه خوذة وعلى ظهره درع. وبعد أن حيّا الملك بأدبٍ، همزَ مطيّته بعقبيْه وهجم بسرعة على الأمير آزور الذي استقبله بدوره بهجوم شبيه بالصّاعقة.

كاد بطلنا بييرو، من هذه الهجمة وحدها، أن يُسحَق تماماً، لو لا أنّ الحمار الذي كان يركبه، والذي لم يسبق له أن خضع لاختبار مثل هذا، شرع ينهق بصوت مرتفع ويائس للغاية، ممّا جعل مطيّة الأمير آزور تصاب بالذّعر، فقفزت فوق الحمار وراكبه.

ارتجّ الأمير آزور بقوّة على صهوة الفرس، ممّا اضطره إلى التّشبث بعُرفِ مطيّته حتّى لا يفقد توازنه، بينما واصل بييرو مسيره المظفّر، وهو يهتز على حماره، ومذراته في يده.

عندما وصل البطلان إلى طرَفي الحلبة، استدارا ثمّ همزا، من جديد، مطيّتيهما. لكنّ الصّدام، هذه المرّة كان شديد القوّة، فتدحرج بييرو مع حماره لأكثر من مائة خطوة، بعد أن أصابه رمح خصمه في صميم درعه. بدا أن الرّاكب والمركوب قد فارقا الحياة، إذ لم تصدر عنهما أية علامة تدلّ على أنهما ما يزالان على قيد الحياة.

أصدر جنود الأمير آزور صيحات ابتهاج.

- ليلزمِ الجمهورُ الصّمتَ! صاح الملك، وليتمّ النّداء على بطل آخر.

في تلك اللّحظة دخل قلب الذّهب الحلبة، مدجّجاً بسلاحه، على صهوة فرسه الأبيض. حيّا الملكَ وزهرةَ اللّوز بأدبٍ وهو يُنكّس رمحه، ثمّ أخذ مكانه في الطّرف القصيّ من الحلبة، وجهاً لوجه أمام الأمير آزور الواقف على الطّرف الآخر منها.

أطلق البوق صوته، فانطلق الفارسان وهجمَ أحدهما على الآخر. صدر عن التقائهما وسط الحلبة صوت شبيه بهزيم الرّعد. انثنى الفرَسان من قوة الصّدام وتفتّتَ الرّمحان إلى قطع صغيرة، لكن لا أحد من الفارسين سقط من على فرسه.

- هيّا أيّها الفارسان الشجاعان، أعيدا الكرّة، قال الملك.

عندئذ سُلّمَ للفارسين رمحان جديدان، كي يعيدا الكرّة من جديد.

عندما تواجَها ثانيةً، أُصيب قلب الذّهب في ذراعه، بينما راحَ الأمير آزور، وقد سقطَ من على سرجِ حصانه، يتدحرجُ على الرّمال، لكنّه سرعان ما عاد للوقوف، فأمسك بساطوره الحربيّ ووقف إلى جانب جواده.

ألقى قلب الذّهب بدوره برمحه وأمسك بساطوره، ثمّ قفز من على فرسه.

دارت بينهما معركة رهيبة، وكان كلّ منهما يوجّه لخصمه ضربات تتحطّم منها الجبال، لكنّ البطلين النابهين لم يبدوا متأثّرين منها البتّة.

دامت المعركة لساعة كاملة دون أن يبدو أيُّ امتياز لهذا الطّرف أو

ذاك. وفجأة بدأ قلب الذّهب، المتأثّر بجرحه، يتراجع. وأثناء تراجعه اصطدمت ساقه بحاجز، فأخذ يترنّح ثمّ سقط... قفز الأمير آزور عليه، وأمسكه من عنقه ثمّ أخرج خنجره.

في تلك اللّحظة الحاسمة، صدر صوت؛ كان صوتاً رهيباً ومؤثراً، شبيهاً بصوت أمّ ترى ابنها وهو يموت. كان الصّوت صادراً عن زهرة اللّوز.

عندما سمع قلب الذّهب تلك الصّرخة استعاد حيويته واستجمع قوّاه فاستطاع التّخلص من قبضة الأمير آزور. انتصب واقفاً وأمسك بساطوره بكفّيه كلتيهما، ولوّح به في الهواء ثمّ هوى بضربة قوية على رأس الأمير آزور ففتّت خوذته وشطر خصمه شطرين من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه.

- أوف، في الوقت المناسب! قال الملك وهو يتنفّس بكلّ قوّته مثل غطّاس عاد إلى سطح الماء. لقد أفلت قلب الذّهب من موت محقّق!

- النّصر! النّصر! عاش قلب الذّهب! شرعت جيوش الملك تصيح، بينما بُهِتَ جنود الأمير آزور، وظلّوا صامتين ساكنين وهم يقضمون حرابهم من الغيظ.

حُمِلَ المنتصر على الأكتاف، على نغمات أصوات الأبواق، إلى أن أنزل أمام المصطبة الملكيّة. لكنّ نزيف جرحه كان حادّاً، ممّا جعله، وهو يتلقّى تهنئة الملك، يفقد وعيه ويسقط بين ذراعَي العاهل.

اضطرب الملك الطّيب اضطراباً شديداً وهو يرى قلب الذّهب مغشيّاً عليه بين ذراعيه، فأقعده على العرش، وهو يستعدّ ليضربه ضرباً

خفيفاً على كفّه في محاولة لإعادته إلى وعيه. في تلك اللّحظة جثت زهرة اللّوز على ركبتيها، وجهها ممتقع مثل زنبقة، ثمّ أمسكت بشالها من على كتفيها وشرعت تربطه، بكفّيها الرّقيقتين، على جرح الفارس المسكين. لكن إمّا أنّ تلك الطّريقة في العلاج كانت فعّالة، وإمّا أنّ أمراً ما شبيهاً بالكهرباء حصل من جرّاء الاتصال بالشّخص المحبوب؛ إمّا لهذا السّبب أو لذاك، صدرت، يا أطفالي الأعزّاء، عن قلب الذّهب حركةٌ وفتح عينيه. أنار قسماتِه شعاعُ سعادة لمع في عينيه، وهو يرى الأميرة الشابّة جاثية على ركبتيها أمامه، وقد غشي محياها كلَّه احمرارٌ فاتن.

- آه! ابقي من فضلك كما أنت، وإن كنت أعيش في حلمٍ فالرّجاء ألاّ توقظوني منه!

وأنا لا أدري كم من الوقت كان ممكناً أن يبقى الوضع على تلك الحال، لولا أنّ المتسوّلة العجوز، التي كانت تتنقل في كلّ مكان، لمست كتف قلب الذّهب، فانتصب واقفاً وقد شُفيَ تماماً من جرحه.

عندما رأت زهرة اللّوز ذلك الفعل الخارق، لم تتمالك نفسها وأطلقت صرخة فرحٍ عالية، فكانت تلك هي المرّة الثانية التي تكشف فيها عن سرّها. ما عاد ثمّة من داعٍ للتستّر: هي تحبّ قلب الذهب.

لنعد الآن إلى بيبرو.

كنّا تركناه، يا أطفالي، ممدّداً على أرضية الحلبة، إلى جانب حماره الذي رفع قوائمه الأربع في الهواء. لم يكن أيّ منهما قد أبدى أية حركة أثناء المباراة. لكن عندما تناهت إلى سمع بيبرو صيحات الابتهاج التي أطلقها جنود ملك بوهيميا، عندما انتصر قلب الذّهب، نهض فجأةً،

وجرى في ساحة المعركة إلى أن أدرك جثّة الأمير آزور فأخذ من تحت درعه ورقة صغيرة مطويّة.

- إنّها الورقة ذاتها، قال بييرو، ثمّ توجّه نحو الملك كي يسلّمه إيّاها.

والحال أنّ الملك كان قد اطمأنّ على حال قلب الذّهب، فشرع يتجاذب أطراف الحديث مع وزيره الأعظم رونارديمو، حول الأحداث التي جرت خلال ذلك اليوم. وفجأة امتقع لون السيّد رونارديمو. كان قد لمح لتوّه الورقة في يد بييرو.

- سلّمني تلك الرّسالة، قال رونارديمو بصوت حاسم، سلّمني تلك الورقة. ثمّ قفز عليه محاولاً أخذها منه بالقوّة.

- بعد أن يقرأها صاحب الجلالة، من فضلك أيّها الوزير الأعظم، أجاب بطلنا.

- بييرو على صواب، عقّب الملك. لقد حدثت أمور غريبة للغاية خلال هذا اليوم، وأنا أريد أن أرى الآن كلّ شيء بعيني.

ثمّ أمسك بالورقة.

أخرج رونارديمو، في لمح البصر، خنجراً من تحت صدريّته وهمّ بطعن الملك، لكنّ بييرو الذي كان ما يزال ممسكاً بمذراته ضغط بها على عنق رونارديمو وثبّته إلى المصطبة.

- والآن يمكنكم، يا سيّدي، أن تقرأوا الرّسالة كما تشاؤون.

فقرأ الملك بصوت مرتفع الآتي:

«إلى الأمير آزور، من ألبيرتي رونارديمو...

«لقد أخذتُ، أيّها الأمير، كلّ إجراءاتي. سأسلّمك خلال هذه

اللّيلة نفسها ملك بوهيميا مقيّد اليدين والسّاقين. فالعاهل المسكين لا يستطيع أن ينظر إلى أبعد من أرنبة أنفه. عندما نلتقي، سأحدّثك عن كلّ الحماقات التي أقنعتُه بها في موضوع الملكة وبيرو. ستضحك منها بملء فيك.

«هيّا بسرعة، امتطِ فرسك أيّها الأمير آزور الجميل، فقد أصبحت بوهيميا ملك يمينك!

«محبّك المخلص

«روناردينو.

«ملحوظة: لا تنسَ بالخصوص أن تأتي بالقطع النّقدية الذّهبية الثّلاثمائة ألف، التي اتّفقنا عليها.»

– آه! أيّها الخائن! آه أيّها الوغد! صاح الملك، وهو يلتفت نحو روناردينو، في ذروة غضبه، واضعاً قبضته على أنفه. آه! أنا عاهل مسكين! آه! أنا لا أرى أبعد من أرنبة أنفي! أقسم لك بلحيتي أنّك ستؤدي الثّمن غالياً!

ثمّ أمرَ بتقييده بالسّلاسل، وأخذه الحرّاس.

أمّا قلب الذّهب وزهرة اللّوز اللّذان كانا مستغرقين في الحديث، فلم يرَيا ولم يسمعا شيئاً ممّا كان يدور بالقرب منهما. بل حتّى لو كانت الصّاعقة قد دوّتْ بالقرب منهما لما كانا انتبَها.

– والآن هيّا بنا، هيّا! صاح الملك. على العدالة أن تقول كلمتها في حقّ الجميع، اليوم. ثمّ لِنسارع إلى البُرج قصد إطلاق سراح الملكة.

عندما سمعت زهرة اللّوز اسم الملكة انتفضت.

- أوه! سامحيني يا أمّي الطّيبة، فقد نسيتك! ثمّ اتكأت على ذراع قلب الذّهب والتحقت بالموكب الذي كان قد أخذ طريقه نحو البُرج.

كان الملك يمشي في المقدّمة، غارقاً في أفكاره. فهو كان بالتّأكيد يقوم بعمليات حسابيّة، لأنّهم كانوا يرونه، بين الفينة والأخرى، يعدّ على رؤوس أصابعه. بعد حينٍ توقّف. كان توقّفه مفاجئاً ممّا جعل الضّابط المكلّف بالحراسة، والذي كان يمشي في أثره، ينقلب من على مطيّته، ورمحه في يده. عندما سقط ضابط الحراسة، أسقط معه جنديّاً، وبطبيعة الحال فإنّ ذلك الجنديّ أسقط معه جنديّاً آخر، وأسقط هذا جنديّاً ثالثاً، وهكذا دواليك، شرعوا يسقطون تباعاً، الأقرب فالأقرب، إلى أن أصبحت الأرض مليئة بهم.

- هذا يكفي، هذا يكفي، يا أبنائي، قال الملك الذي كان يظنّ أنّ الجنود ينبطحون أرضاً كي يحيّوه تحيّة إكبار. هذا يكفي، انهضوا.

ثمّ التفت نحو زهرة اللّوز وسأل:

- مؤرّخي الرّسميّ، هل هو موجود بيننا ها هنا؟

- نعم يا أبي، فأنتم تعلمون أنّه يرافقكم حيثما ذهبتم.

- حسناً! اطلبوا منه أن يأتي وأن يحمل معه دفاتره. فقد قرّرت أن أنجز اليوم عملاً خيريّاً، وأريده أن يسجّله بمداد من ذهب، حتّى تتذكّره الأجيال القادمة.

- هذه فكرة جيّدة، يا أبتِ، وهي جديرة بقلبكم الطّيب.

- أيّتها المحابِية! عقّب الملك وهو يداعب وجنتها بأنامله. لكنّني فكّرت وقرّرت أنّكِ أنتِ التي ستتكلّفين بهذا العمل.

- وأنتَ، يا أبي؟

- أنا لا أفهم في هذه الأمور، وأنتِ على علم تامّ بذلك. أنا أفرض قراراتي فحسب، هذا كلّ ما في الأمر، أمّا أنتِ فتملكين صوتاً رخيماً وكلاماً مناسباً، وعندما تقدّمين شيئاً للفقراء، يشعرون بالسّعادة لمجرّدِ سماعِ صوتك. كما أنّ طريقتك، يا ابنتي الغالية، تتّسم بتلقائية تجعل أجْر العطاء يتضاعف.

- أبي! ... قالت زهرة اللّوز وهي تنكّس رأسها.

- هيّا يا ابنتي، عليك ألاّ تخجلي ممّا قلته لك. اسمعيني جيّداً: بمجرّد عودتنا إلى القصر، ستأخذين من مالي ألف قطعة نقدية ذهبية لتسلّميها إلى تلك العجوز الطّيبة التي قدّمت لي اليوم نصيحة جيّدة، وستقولين لها إنّ ذلك المبلغ يشكّل ربع المعاش الذي أعتزم تخصيصه لها كلّ سنة إلى أن أفارق الحياة...

- أنا أتقدّم لك بالشّكر الجزيل، يا ملك بوهيميا، قال صوت بدا وكأنّه يخرج من الدّغل المجاور.

عندما سمع الملك ذلك الصّوت الذي يعرفه جيّداً، ارتعش ثمّ التصق بقلب الذّهب.

- من تكلّم؟ سأل الملك، أليس هذا صوت السّمكة الحمراء الصّغيرة؟

- لا يا سيّدي، أجاب قلب الذّهب، إنّه صوت المتسوّلة العجوز.

- لا، يا قلب الذّهب، قالت زهرة اللّوز، من جهتها، وهي تبتسم، إنّه صوت ساحرة البِرْكة.

– زهرة اللّوز على صواب، قال الصّوت القادم من الأكمة، فأنا ساحرة البِرْكة، لكن اطمئنّ يا ملك بوهيميا، فساحرة البِرْكة قد نسيتْ إساءاتك للسّمكة الحمراء، وما عادت تتذكّر إلاّ أعمالك الخيّرة التي قمتَ بها تجاه المتسوّلة العجوز. وستُجازى نظيرَ عملك الطيّب هذا. أنا أعلم أنّ لديك رغبة قويّة في أن يكون لك ولد ذكَر...

– أوه! نعم، صاح الملك الذي لم يستطع منع نفسه من أن يعبّر عن رغبته.

– ستتحقّق أمنيّتك. فقبل أن يمرّ عامٌ، ستنجب الملكة أميراً يكون جميلاً مثل ضوء النّهار، وسيستطيع، عندما يدرك عمرَ الرّجال، أن ينجز، بفضل هذه التّميمة، أموراً خارقة للعادة.

عندئذٍ سقط في الطّريق خاتم رائع من ذهب مزيّن بالجواهر.

خطا الملك خطوة وأخذ التّميمة ثمّ وضعها في إصبعه وصاح:

– أوه، شكراً لك أيّتها السّاحرة الصّغيرة الطّيبة! سيكون لي ولد! سيكون لي ولد!

عقبَ ذلك، حثّ خطاه كي يخبر الملكة، في أقرب وقت ممكن، بهذا النّبأ الذي لا يصدّق.

خلال كلّ ذلك، كان جنود الأمير آزور قد ظلّوا في ساحة المعركة. لم يسبق لأحد أن رآهم في تلك الحال من الارتباك: كان أولئك البائسون قد ظلّوا هناك، أفواههم فاغرة، وهم يستندون مرّة على ساق ومرّة على أخرى، وهم لا يعرفون ما الذي عليهم أن يفعلوه.

– هل أنتم جنود من ورق مقوّى؟ صاح بهم فجأةً قائدهم بصوت

مرتعش. هل عليَّ أن أضعكم في علبة كي تصيروا لُعَباً يلهو بها الأطفال الصّغار؟ ما هذا! أيُعقل أن يُقتل أميركم أمام أعينكم وأنتم تلهون بقضم أظافركم، يا سيوفاً من خشب! ألستم تنتمون إلى الجيش العظيم للأمير آزور! ألا تستمعون إلى صوته وهو ينادي عليكم ويدعوكم للانتقام؟...هيّا حالاً! وها هي ذي قلوبكم تندلع فيها النيران، هيّا! هيّا بنا! إلى الأمام، تقدّموا!

عندما استمع الجنود إلى هذه الخطبة، انطلقوا، مُكَهرَبِين، مقدّمين سيقانهم اليُسرى، وشرعوا، على أصوات طبول الحرب، يبحثون عن ملك بوهيميا.

- يا جنود الأمير آزور، توقّفوا، وإلاّ فاعتبِروا أنفسكم ميّتين! صاحت العجوز المتسوّلة التي ظهرت فجأةً على جدران المدينة، وفي يدها عصاها البيضاء.

لكنّ الجنود استمرّوا مواصلين سيرهم.

عندئذ حركت العجوز عصاها وتلفظت ببضع كلمات، فشرعت الحيوانات المفترسة المرسومة على الجدران تطلق من عيونها ومن أنوفها وأفواهها، ومن كلّ عضوٍ فيها، ألسنةَ لهب.

ارتفعت صرخات: النار! النار!

سارع سكان المدينة الطيّبون فصعدوا الجدران، حاملين دلاء ماءٍ في أيديهم. لكنّهم، عندما نظروا إلى الأسفل، لم يروا أيّ شيء آخر غير الدّروع والخُوَذ وحدائد الرماح.

كان ذلك هو كلّ ما تبقّى من جيش الأمير آزور.

عندما سارع الملك كي يعلن للملكة نبوءة ساحرة البرْكة، كان بييرو قد ظلّ في ساحة المعركة، يبحث في كلّ الجهات عن حماره كي يوقفه على قوائمه، وليرى إن كان ما يزال يعاني من شيء، وكي يعيده إلى كوخ أبيه بالتّبني، الحطّاب.

لكنّه نظر في كلّ الاتجاهات دون أن يستطيع أن يتبيّن أدنى أثرٍ لِحماره.

- آه يا مارتان المسكين! صاح وهو في ذروة القلق، أين أنتَ الآن؟

وعندما استولى اليأس على بييرو، شرع يصرخ بكلّ قواه:

- مارتان! مارتان!

ثمّ يحبس أنفاسه كي يُصيخ السّمع، لكنّه لم يكن يسمع إلاّ صوت الصّدى المتهكِّم، وهو يكرّر صراخه: مارتان! مارتان! وكأنّ الأمر يتعلّق بصوت طفل ماكر مختبئ خلف صخرة.

كان بييرو يستعدّ لتكرار المناداة من جديد عندما صادفت عيناه، فجأةً، جموعَ الحيوانات التي كان الملك قد أمر برسمها على جدران المدينة كي يُرهب بها خصومه. كانت تلك الحيوانات الذّكية قد علمت، دون شك، أنّ الأمير آزور قد مات، ممّا جعل عدوانيّتها تختفي تماماً، فأصبحت كلّها ذات هيئة محترمة، وطيّبة في إهابها، ممّا كان يجعل الرّائي يعتقد أنّها قطيعٌ من الحِملان في طريقها لزيارة السيّد دو فلوريان[1].

لكنّ بييرو لم يلاحظ التّحول الذي طرأ على تلك الحيوانات، من

(1) إشارة فيها دعابة إلى الكاتب الفرنسيّ جان-بيار كلاريس دو فلوريان Jean-Pierre Claris de Florian (1755-1794)، وكان كاتب خرافات، أي حكايات تدور على ألسنة الحيوانات.

فرط ما كان ذهنه مشوّشاً.

- أوه! الوحوش! هي التي افترست مارتان المسكين!

ثمّ تقدّم إلى أن اقترب من الجدران وهو يريد أن يعنّف نمراً ملكيّاً ضخماً، كان يبدو أكثر كسلاً من باقي الحيوانات.

- أوف! ما أقبحك، قال، أوف! كم هو فظيع، يا سيّدي، ما قمتَ به هنا!

كان بييرو منساقاً مع غيظه، فكان يبدو على وشك أن يرمي ذلك الحيوان الرائع بكلام بذيء آخر، لكنّه لمح، فجأةً، على التّلة حماره يرعى نباتات شوكيّة، بالبرود والهدوء المعروفين عن فصيلته.

ارتعش بييرو فرحاً بما رأى، فترك النّمر الملكيّ لشأنه وسارع نحو التّلة. لكنّ الحمار الذي يبدو أنّه أقلّ غباءً ممّا نتصوّر، لم ينتظر بييرو. كان قد أخذ طريقه عبر السّهل، إمّا خوفاً من أن يعيده سيّده إلى المعركة، وإمّا لأنّه، بعد أن قضّى بضع ساعات حرّاً طليقاً، بدأ يتذوّق لذّة الحياة الوحشيّة، وإمّا لأنّه كان يمتثل لقوّة عجيبة فوق طبيعيّة. واصل الحمار سيره وهو يملأ الفضاء بنهيقه العالي، موجِّهاً للهواء ركلاتٍ مظفّرة.

سارع صديقنا بييرو لمطاردته، لكنّه لم يستطع، رغم خطواته السّريعة، أن يلحق به.

- طيّب، طيّب، قال بييرو للحمار الذي يعدو أبعد منه بمائة خطوة، أنا لم أكن أعرف أنّك بكلّ هذه الخفّة والرّشاقة، لكنّني سأتذكّر ذلك خلال المرّات القادمة.

بعد ساعتين من العدْو الذي لم يجنِ منه أيّة فائدة، توقّف بييرو في

سفح جبل. إنّ أيّ حمارٍ آخر غير حماره الهرِم مارتان كان سيغتنم فرصة توقّف صاحبه كي ينصرف بسرعة، لكنّ مارتان كان حماراً جيّد التّربية وكان يعرف أصول التّصرّف معرفة عميقة. لذلك، عوضَ أن يفرّ، توقّف منتظراً أن يرتاح سيّده. لكنّه، حتّى يمارس هواياته وهو ينتظر، اقتطفَ بطرفَي شفتيه نباتاً شوكيّاً عديمَ الحذرِ كان قد أبان بكامل الغباء عن رأسه بين شقوق صخرة، وشرع يمضغه بملء فيه.

نهض بييرو بعد استراحة دامت نصف ساعة. كانت المهلة قد انتهت، فتواصلت المطاردة بأقوى من ذي قبل.

بقي في مطاردة مارتان إلى أن حلّ اللّيل. كان التّعب قد أخذ من بييرو كلّ مأخذ، وكان على وشك التخلّي عن المطاردة عندما رأى دابّته تدخل مغارة في صدر الجبل.

- أوه! هذه المرّة لن تفلت منّي! صاح بييرو، وها هو ذا يدلف منكّس الرأس إلى عمق المغارة.

لم يكن قد خطا بعدُ مائة خطوة، عندما شعرَ بكفّ تضغط على ذراعه، وسمع صوتاً يقول له في أذنه:

- أدخل يا بييرو، مرحباً بك، لي معك حديث.

- من ينادي عليّ؟ سأل بييرو مرتعش الجسد.

- لا تخف يا صديقي، واصَل الصّوت، فأنت في بيت المتسوّلة العجوز.

- المتسوّلة العجوز! قال بييرو وقد شعر ببعض الاطمئنان.

- نعم يا صديقي، ولي رغبة شديدة في أن أتجاذب معك أطراف

الحديث.

- أنتِ تشرّفينني بما تقولين، أيّتها السيّدة الطّيبة، عقّب بييرو الذي كان يجيد الحديث بأدبٍ للنّاس الفقراء، لكن، قولي لي، قبل ذلك، إن كنت قد شاهدتِ حماري يمرّ من هنا قبل لحظات قليلة.

- نعم يا ولدي، قالت المتسوّلة العجوز وهي تبتسم، بل إنّني قد أدخلتُه لتوّي إلى إسطبل يعثر فيه على كلّ ما يشتهيه، كي يستطيع أن ينتظر، دون مللٍ، نهاية لقائنا.

- أوه! يا للسّعادة! صاح بييرو وهو يقفز من الفرح، بعد أن علمَ أنّ حماره لم يتِه.

بعد ذلك التفت نحو المتسوّلة العجوز قائلاً:

- تكلّمي الآن، يا سيّدتي الطّيبة، فأنا كلّي آذان صاغية، رغم أنّني أرى أنّ من الأفضل أن نؤجّل لقاءنا إلى يوم آخر. فلا المكان ولا الزّمان...

- أنت ترى أنّهما غير مناسبين، أليس كذلك؟ لكن، كن مطمئنّاً يا صديقي، فأنا كنت أنتظرك هذا المساء، وقد أعددتُ كلّ شيء كي أستقبلك.

عندما تلفّظت المتسوّلة العجوز بتلك الكلمات، ضربت بعصاها الصّخرة التي كانت تستند إليها، فانشطرت المغارة، فجأةً، شطرَين، ورأى بييرو قصراً بديعاً ينبثق في مكان المغارة المعتّمة التي كان يمشي فيها قبل قليل متلمّساً طريقه. كان قصراً أبيض بالكامل، شبيهاً بتلك القصور التي لا نراها إلاّ في الأحلام، أو في بلاد الجنّيات السّاحرة.

كان ذلك القصر عبارة عن بناية عظيمة مثبّتة في كتلة من الرّخام الأبيض. وكانت قبّته الشّاسعة المرصّعة بالجواهر تستند إلى صفّ مزدوج من الأعمدة المرمريّة التي تربط بينها أشرطة مزخرفة بالجواهر وبالأحجار الكريمة وبزهور الزّنبق وورود البرتقال ونباتات أخرى بهيجة المظهر، أُحسِنَ تنسيقُها.

آلاف الزّخارف المتلألئة، التي ابتدعتها أيادي العفاريت، كانت تتلوّى في شكل حلزونيّ حول الأعمدة وتتسلّق إلى أن تصل نتوءات الأفاريز، فتبدو متدلّية من السقف وكأنّها ترسّبات ثلجية.

وعلى مرأى البصر، وعبر مسافات، كانت تظهر نوافير ومياه تنبثق وتنطلق عالياً في الهواء ثمّ تعود إلى السّقوط، متكتّلةً وفي شكل رذاذِ مطرٍ من جوهر، في أحواضٍ من الكريستال الحجريّ، حيث تلعب، حول بجعاتٍ جميلة نائمة، سمكاتٌ صغيرة ذات زعانف فضيّة. كانت الأرضيّة، المشكّلة من عِرْق اللّؤلؤ، مغطّاةً ببساط من فروِ حيوانِ القاقُم، مزيّن بورود الياسمين البريّ وبالريحان والنرجس والزهور وورود الكاميليا البيضاء. وعلى ورقة كلّ زهرة من تلك الزهور، كانت تبدو قطرات من الندى ترتعش.

بيد أن أمراً لا يُصَدّق كان مُلاحظاً هناك، لكنّكم، يا أطفالي الأعزّاء، ستصدّقونه، ما دمت أقوله لكم، وهو أن كلّ تلك الأشياء كان لها مظهر مُشِعّ: كان القصر برمّته يتألّق، لكنّ تألّقه كان ملطّفاً بأشعّة باهتة وهادئة، إلى درجة أنّه كان يُخيّل للرائي أنّه يرى أشعّة القمر البيضاء، ليلاً، نائمة على العشب الأخضر.

ووسط البناية، كانت تجلس ملكة العفاريت على عرش سميك من الفضّة، ظاهرِ الزّخرفة. كانت جنيّة جميلة بيضاء ذات ابتسامة فاتنة. وكان من يراها لا يقدر على منع نفسه من أن يحبّها من أوّل نظرة.

إنّها جنيّة البِركة؛ تلك الجنّيّة الطيّبة التي لم يسبق لكم، يا أطفالي الأعزّاء، أن رأيتموها إلاّ في شكل سمكة صغيرة حمراء، وفي هيئة متسوّلة عجوز.

كانت مدّثرة، من أعلى رأسها إلى أسفل قدميها برداء من شفٍّ خفيفٍ، وكانت جبهتها المتأمّلة والحالمة، مستندة إلى كفّها.

وفجأة نهضت.

- اقترب يا صديقي، قالت بصوت رخيم لبيرو الذي ظلّ واقفاً على بعد خطوات من عرشها.

لكنّ بيرو المفتون بذلك الظّهور السّحريّ ظلّ بلا حراك، عيناه جاحظتان، مثل تمثال للانخطاف منتصب على أبواب السّماء.

- هيّا يا صديقي، قالت السّاحرة من جديد، تعال بالقرب منّي، ثمّ أشارت بإصبعها إلى الدّرجة الأولى من عرشها.

وبما أنّ بيرو لم يقم بأية حركة، واصلت:

- هل أنت خائف مني؟ وهل تجدني أقلّ جمالاً وأنا أرتدي هذه الملابس الثّمينة منّي لما كنت ألبس أسمال المتسوّلة الفقيرة؟

- أوه! لا، لا تغيّري ملابسك! قال بيرو وهو يضمّ كفّيه، فأنتِ جميلة جدّاً بملابسك هذه! ثمّ خطا بضع خطوات إلى الأمام، وجثا عند قدميها.

- انهض يا صديقي، قالت الجنيّة وهي تبتسم، ولنتحادث. فأنا أريد أن أطلب منك تقديم تضحية كبيرة، فهل تشعر بأنّك قادر على القيام بها؟

- أنا عبدٌ لك، أجاب بييرو، وكلّ ما ستطلبين منّي القيام به، سأفعله حبّاً لكِ.

- جيّد يا بييرو العزيز، كان هذا هو المنتظر من قلبك الكبير.

ثمّ واصلت وهي تبتسم ابتسامتها اللّطيفة التي تلائم بشكل جيّد وجهها الشّاحب:

- استمعْ، فقبل أن تلتزم بأيّ شيء، هل ترى أنّني صديقة للأطفال الصّغار؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل تريد أنت أيضاً أن تحبّهم؟

- بكلّ فرح، ومن أعماق قلبي، أجاب بييرو، وهو يتذكّر في تلك اللّحظة بالذّات قضيّة الصّدرية التي أهداه إيّاها في السّجن أطفالُ مدينة الأمير آزور.

- هل تريد أن تَنْذِرَ حياتك لتسليَتهم وإسعادهم؟

- نعم، أريد ذلك، أجاب بييرو بتصميم.

- لكن، عليك أن تأخذ حِذرك، فهؤلاء الصّغار الأعزّاء لا يكونون مؤدّبين دوماً. فلهم، مثلنا نحن الكبار، أيّامُهم الجيّدة وأيّامُهم السّيّئة. فهم يكونون تارةً متقلّبي الأطوار وتارةً أخرى متهوّرين متمرّدين، وسيجعلونك تعاني.

- أنا مستعدّ لأن أعاني، أجاب بييرو بنبر بطوليّ.

- عليك أن تعلم يا صديقي أنّك ستكون ملزماً منذ الغد بأن تبدأ

عمل الامتثال والتّضحية، وأن تنفصل عن كلّ ما أحببتَه حتّى هذا اليوم، وأن تغادر بوهيميا والزّوجين العجوزين اللّذين ربّياك، والملك والملكة وزهرة اللّوز...

- زهرة اللّوز! تمتم بييرو بصوت خفيض، هي أيضاً!

- ها أنت ذا تتردّد، يا طفلي المسكين، قالت الجنية بصوت متأثّر، وهي تضغط بحنانٍ يد بييرو البيضاء بين يديها.

لم يُجب بييرو.

- لكن، كن مطمئنّاً يا صديقي، واصلت الجنيّة، فأنا سأكون حاضرة كي أحميك وكي أواسيك، كما أنّ حبّ الأطفال الصّغار سيعوّضك عن معاناتك.

ظلّ بييرو صامتاً.

- أنت تعاني منذ الآن، أنا ألاحظ ذلك. إذن، قالت له وهي تلمس كتفه، انظرْ يا صديقي أمامك.

رفع بييرو عينيه، فطرأ تحوّل فوريّ على وجهه الحالم.

رأى أمامه، على الجدار، مسرحاً جميلاً، يتلألأ ذهباً وأضواءً، مملوءاً عن آخره بأطفال صغار. لقد كان في الحقيقة مشهداً رائعاً أن تُرى تلك الرؤوس الشقراء والوجوه البيضاء والمورّدة ذات العيون الزرقاء والسّوداء، وهي تضحك وتتفتّح وسط تلك الأجواء المذهّبة، مثل سلّة من الزهور المتألّقة تحت أشعّة الشّمس الدّافئة.

تقدّم بييرو، مسحوباً بقوة لا تُقاوَم، إلى الخشبة.

شرع الأطفال الصّغار، عندما رأوه، يطلقون صيحات فرح وهم

يصفّقون بأكفّهم، ثمّ ارتفعت في القاعة كلّها ضحكات نديّة وصافية، وكأنّها زقزقة طيورٍ عند مقْدم النّهار. ثمّ طفقت تتساقط حول بييرو باقات وأكاليل من الورود.

أراد بييرو أن يقول شيئاً لكنّ الانفعال خنق صوته، فلم يستطع إلاّ أن يضع كفّه على شفتيه وأن يُرسل آلاف القبل إلى الأطفال الصّغار.

مباشرةً بعد ذلك، اختفى المسرح.

- ماذا يا صديقي! أمّا تزال متردّداً؟

- أوه، لا! أجاب بييرو بحماس، وهو يمسح دمعة راودت جفنيه. غداً سأنصرف.

- ما كاد بييرو ينهي هذه الكلمات حتّى انتفى قصر الرّخام، فوجد نفسه راكباً على حماره، عند مدخل المغارة.

كانت التّضحية قد تقرّرت، وكان بييرو قد نذَرَ نفسه لإمتاع الأطفال الصّغار.

«أعرْني ريشتك كي أكتب كلمة»

كانت الملكة قد أُعيدَت في ذلك المساء نفسه إلى القصر، فدخلته دخول المظفَّرين، على أكتاف العبيد السّود الاثنين والثلاثين، الذين انتبهوا إلى ضرورة العودة إلى القيام بالمهمّة الرّهيبة المتمثّلة في حمل الهودج، بعد أن قضّوا أشهراً عديدة متمتّعين بالراحة.

كانت صاحبة الجلالة تحمل في يدها قفصاً ذا خيوط فضّية، يزقزق بداخله العصفورُ الصّغير الذي عثرت عليه أخيراً. كان الطّائر حزيناً

وهو ينظر من زاوية عينيه إلى زرقة السّماء.

أمّا الملك فكان يركب حصاناً أشهبَ ضخماً أتاه به مروضو جيّاده، وهو يعدو بسرعة وبَخْتَرَة، ملتصقاً عن قرب بهودج الملكة. كان يشعر بسعادة كبيرة وهو يرى الملكة من جديد بعد فراق دام مدّة طويلة. لم يغادرها بعينيه، ولو للحظة واحدة، طيلة المدّة التي أمضوها في الطّريق.

اقترن قلب الذّهب، في اليوم التّالي، بزهرة اللّوز، فحصل من الملك على امتياز، هو ولايات الأمير آزور.

أُقيمت حفلة الزّفاف بالرّوعة المعهودة في حكايا الجنّيات، عندما يتزوّج ملكٌ راعيةً، أو عندما تتزوّج أميرةٌ راعياً. أقبلت جنيّة البِركة، منذ الصّباح، على متن عربة من اللّؤلؤ تجرّها بجعتان بيضاوان جميلتان، وكأنّهما من مرمر، فترأسّت حفل الزّواج وباركت العاشقين بعصاها الذّهبية، ثمّ وعدتهما رسميّاً، وأمام الملأ، بأن تكون هي عرّابة أوّل طفل يُنجبانه.

عُوقب السيّد رونارديو، بما يستحقّه، على ما ارتكبه من شرور وعلى خيانته: صُودرت كلّ أملاكه وأعيدت إلى الأشقياء الذين كان قد انتزعها منهم. كما أنّه جُرّد من كلّ ألقابه، وأُلبس لباساً خشناً، ثمّ كُلّف بأَحقرِ الأعمال المنزليّة.

واعترافاً من ملك بوهيميا بالأعمال الخيّرة التي قامت بها الجنيّة، أعطى أوامره إلى خازنه كي يوزّع صدقات وافرة على كلّ متسوّلي البلاد. كما أنّه عمَدَ إلى إنشاء أحواضٍ رائعةٍ من رخام في حدائقه، لتعيش فيها سمكات صغيرة حمراء تُطْعَم ويتمّ الاعتناء بها على نفقة الحكومة.

أمّا بييرو، يا أطفالي الصّغار، فقد احتاط حتّى لا يظهر له أيّ أثر أثناء حفل زواج قلب الذّهب من الأميرة زهرة اللّوز. فهو كان يخاف إن حضر الحفل أن يُخلّ بالقرار الذي كان قد اتّخذه في اليوم السّابق أمام الجنيّة، لكنّه حضرَ المأدبة وأخذ مكانه على كرسيّ فأَشرق محيّاه الأبيض كما كان يحدث في أجمل أيّامه، هو الذي ظلّ حتّى تلك اللّحظة غائماً بحزن شفيف. عندما انتهت المأدبة، انتصب واقفاً بصعوبة ثمّ نزل إلى كوخ الحطّاب فترجّاه أن يعيره ريشته كي يكتب كلمة.

كتب في تلك الكلمة أنّه يقدّم للزّوجين الطّيّبَين، رغبة منه في أن يعيشا شيخوختهما بأمان، ثلاثمائة ألف قطعة نقدية ذهبية، وهو المبلغ نفسه الذي كان قد أخذه بحذق من الأمير آزور، وكان الملك قد ترجّاه بأن يحتفظ به مقابل خدماته.

عندما كتب ذلك، عانق الحطّاب العجوز وزوجته. كانا يبكيان وهما يقبّلانه. بعد ذلك مسح دموعه بكمّ صدريته ثمّ علّق إلى ذراعه سلّة السّفر وغادر الكوخ.

عندئذ سُمع صوت يغنّي في ممرّات القصر لحناً سبق لي أن حدّثتكم عنه مراراً.

كان الملك والملكة وكلّ من يوجد بالقصر ينصتون، لكنّ الصّوت كان يخفُت شيئاً فشيئاً، ثمّ ما لبثَ أن اختفى بعيداً.

كان الصّوت صوتَ بييرو وهو ينصرف للبحث عن وطن آخر وعن مغامرات أخرى سأحكيها لكم في مناسبة أخرى، يا أطفالي الأعزّاء.

الأنانيّ

كان كارل قد ورث عن أبيه مزرعة بقطعانها وماشيتها ومحاصيلها. كانت مخازن الحبوب ومخازن الحطب والإسطبلات مترعةً عن آخرها. لكنّ العجيب هو أنّ كارل كان يبدو وكأنّه لا يرى شيئاً من كلّ ذلك. كانت له رغبة وحيدة، وهي أن يزيد ما كان عنده، فكان يشتغل باللّيل كما بالنّهار، وكأنّه أفقر فلاّحي القرية، فأصبح معروفاً في البلد كلّه بأنّه أبخل المزارعين على الإطلاق. لم يكن أحدٌ يقبل أن يشتغل عنده، خصوصاً إن كان باستطاعته أن يجد عملاً في مكان آخر. كما أنّ الخادمات اللاّئي كنّ يشتغلن في بيته سرعان ما كنّ يُصَبن بالإحباط، لكثرة ما كان يتركهنّ جائعات، فيغادرْنه. لكنّ مغادرتهنّ لم تكن تُقلِقه أبداً، إذْ كان له أخت طيّبة وعطوف. وبالفعل، فقد كانت أَمِيلْ مدبّرةً حكيمة، كما أنّها كانت تهتمّ باستمرارٍ براحة أخيها. لكن رغم أنّ أميل كانت تحاول باستمرارٍ أن تعوّض بخلَ أخيها بكرمها هي، فإنّها لم تكن تستطيع أن تصل إلى أيّة نتيجة، لأنّه كان يراقبها عن قرب.

كان كارل أنانيّاً جدّاً، ممّا كان يجعله يأبى أن يتناول عشاءه إلاّ بمفرده،

إذْ كان متأكّداً من أنّه سيجد أكله دافئاً، ومقدَّماً في وقته، وله وحدَه، لأنّ أخته كانت تتناول طعاماً بسيطاً على حدةٍ، ثمّ تتفرّغ لخدمته. وكان يبرّر ذلك بأنّه لا يحبّ أن يجعل الآخرين ينتظرون، وأنّه هو نفسه لا يتحكّم بوقته. والحال أنّه كان يأتي دائماً في الوقت الذي يحدّده هو نفسه للعشاء. من المؤكّد إذن أنّ كارل كان أنانيّاً، وهي خصلة غير محمودة.

أتى رجل ذو وضعية اجتماعية معتبرة يريد الاقتران بأميل، لكنّ كارل رفض، لأنّه كان يخشى أن يفقد أخته التي كانت تخدمه دون أن تطالب بأيّ شيء مقابل خدماتها. ومن السّهل علينا أن نفهم أنّ كارل لم يكن له أصدقاء، لأنّ حتّى أقلّ النّاس نباهةً كان بإمكانهم أن يلاحظوا بُرودَه. لكنّ كارل كان يهزأ من ذلك، وكان يقول إنّه يحمل أحسن أصدقائه في حافظة نقوده. لكن، للأسف، فإن أصدقاءه أولئك كانوا، على العكس ممّا يقول، هم ألدّ أعدائه.

ذات صباح، وفيما كان كارل يتأمّل حقلَ قمحٍ تتمايل سنابله الذّهبية حوله، وهو يحسِب ما يمكن لهذا الحقل أن يدرّه عليه، أحسّ، فجأةً، بالأرض تميد تحت قدميه.

- هذا، بالتّأكيد، خُلْدٌ ضخمٌ، قال كارل وهو يتراجع إلى الوراء، مستعدّاً للإجهاز على الحيوان فور بروزه من الأرض.

لكنّ الأرض سرعان ما تكوّرت بعنفٍ تحت قدميه، فانقلب وارتبك في حسابه لمزروعاته.

تضاعف رعبه عندما رأى عفريتاً، وليس خُلْداً، يخرج من الأرض. كان العفريت ذا مظهر غريب؛ يرتدي صدريّة جميلة بلون قرمزيّ، مع

ريشة طويلة تتمايل على قلنْسوته. ألقى العفريت على كارل بنظرة لا تبشّر بخير.

- كيف حالك أيّها المزارع؟ سأل مع ابتسامة متهكّمة لم ترُق لكارل.

- لكن من أنت بحقّ السّماء، سأل كارل مقطوع الأنفاس.

- أنا لا دخل للسّماء بي، عقّب العفريت، فأنا جنّيٌّ شرّير.

- أرجو أن لا تكون تنوي إصابتي بسوء، سأله كارل بتذلُّل.

- أنا لا أدري في الحقيقة! فأنا فقط أُريد أن أحصد زرعكَ هذه اللّيلة، على ضوء القمر، لأنّ جيادي، رغم أنّها ما فوق طبيعيّة، فإنّها تأكل أيضاً كمّية من الزّرع ما فوق طبيعيّة؛ وبصفة عامّة، فأنا أحصد عند النّاس القادرين أكثر من غيرهم على تقديم هذه التّقدمة لي.

- آه، أيّها السّيد العزيز! صاح كارل، إنّني أفقَر فلاّحي هذه المنطقة. إنّني أُعيل أختاً لي، كما أنّني قد تكبّدتُ خسائر فادحة.

- لكن، أنت كارل غريبنهاوزن، أليس كذلك؟ سأل العفريت.

- نعم سيّدي، تمتم كارل.

- وهذه الصّفوف من حزمات القمح التي تشبه مدينة صغيرة، هل هي لك أم لا؟ سأل العفريت.

- نعم، سيّدي، عقّب كارل.

- وحقل اللّفت هذا، وتلك الأراضي الممتدّة والصّالحة للزّراعة، وتلك القطعان وتلك المواشي الزّاهية التي تغطّي خاصرة الجبل، هي لك أيضاً، على ما أعتقد؟

- نعم، سيّدي، أجاب كارل بصوت مرتعش، لأنّه كان مرعوباً من

أن يرى العفريت عارفاً بدقائق ما يوجد في مزرعته.

- وتقول إنّك رجل فقير؟ أوه! قال العفريت وهو يحذّر بإصبعه المسكينَ كارل، إن واصلت حكاياتك هذه فإنّني سأعمل، بحركة واحدة من يدي، على أن يصبح كلّ ما قلتَه صحيحاً... عيبٌ عليك! عيبٌ عليك! عيبٌ عليك!

تلفّظ الجنّي إذَن بالعبارة الأخيرة ثلاث مرّات، ثمّ ارتمى في ثقبٍ في الأرض، لكنّ الثّقب لم ينغلق، فشرع كارل يصيح متوسّلاً بصوت مرتفع، طالباً الرّأفة من زائره الغريب الذي لم يكلّف نفسه حتّى عناء إجابته.

مشى كارل ببطء نحو منزله قلِقاً ومحبَطاً. وعندما اقترب من مسكنه، وهو يعبر طريقاً محفوفاً بالأشجار، لمح عشيق أخته وهو يحادثها من فوق سور الحديقة. عندئذ راودته فكرة، هي فكرة أنانيّة بالتّأكيد. وقبل أن ينتبها إليه، سارع نحوهما فأمسك بكفّ فيلهَيلم بودٍّ ودعاه للعشاء معهما. يا للعجب العُجاب! ... ومن النّافل القول إنّ فيلهَيلم قبِل الدّعوة بصدر رحب، رغم أنّه قد فوجئ بها مفاجأة عظيمة. وبعد العشاء، أطلق كارل العنان لفكرته الألمعيّة تلك، ممّا ضاعف مفاجأة أخته وفيلهَيلم. ما هي هذه الفكرة من وجهة نظركم؟ هي لا شيء آخر غير أن يُبادل قطعة أرضه الفسيحة المملوءة بالسّنابل النّاضجة، والجاهزة للحصد، بقطعةٍ لفيلهَيلم، غلّتها أقلّ وفرة. وبعد مناقشة سريعة، أعرب خلالها، مبتهجاً، عن حسن نيّته، تمّ الاتّفاق على هذه الصّفقة الغريبة، فعاد فيلهَيلم إلى بيته وقد أضحى أغنى ممّا كان

عليه من قبل.

نام كارل مطمئنّاً إلى عملية التّبادل التي قام بها مع فيلهَيلم؛ فقد أصبح متأكّداً من أنّه لن يؤدّي مِن زرعه ما سيحصده العفريت وما ستأكله جيّاده النّهمة. كما أنّ فيلهَيلم، من جهته، نام دون أن يكون لديه أدنى شكّ بنيّة كارل.

أفاق كارل في الصّباح الباكر، لأنّ العفريت كان قد أفسد عليه نومه طيلة اللّيل. سارع إلى ارتداء ملابسه وخرج إلى الحقول كي ينظر إلى نتيجة الأعمال اللّيلية التي من المفروض أن يكون العفريت قد قام بها، فوجد أنّ الزّرع ما يزال على سيقانه يداعبه نسيم الصّباح.

- ربّما أكون قد رأيتُ ما رأيتُ في الحُلم.

عندئذ صعد التّلّ كي يلقي بنظرة على الحقل الذّي أصبح ملكه بعد أن بادَله بحقل القمح المهدَّد. أصيب كارل برعب شديد وهو يرى حقله ذاك قد أصبح عارياً تماماً، في حين كان العفريت الصّغير المرعب ينهي عمله برمي حزَم أخيرة في ظلام حفرة عميقة في الأرض.

- يا للسّماء! ما الذي تفعله؟ صاح كارل. فأنا يبدو لي أنّك كنتَ قلت إنّك ستحصد ذاك الحقل الذي يقع هناك، وليس هذا.

- كنتُ قلت لك إنّني سأحصد زرعك أنت، والحال أنّ الحقل الذي تتحدّث عنه هو، إن لم أكن قد أسأت الفهم، لفيلْهَيلم وليس لك، أليس كذلك؟

- بلى، ويا لَشقائي!

عندئذ جثا كارل على ركبتيه وشرع يتوسّل للعفريت طالباً الصّفح.

لكنّ هذا الأخير قام، رغم توسّلات كارل، بإلقاء آخر حزمة زرع في الحفرة، فانقفلت الأرض، وطُمست كلُّ علامة يمكنها أن تدلّ على المكان الذي طُمر فيه ذلك الحصاد الكبير.

- أنا الآن، كما ترى، قد أغلقت باب مخزن غلالي، قال العفريت وهو يرفع صوته بالضّحك. وسأذهب الآن كي أستريح. نهارك سعيد، يا كارل!

فابتعد بهدوء، بادياً عليه الرّضا.

شرع كارل يمشي ذات اليمين وذات الشّمال، وكأنّه قد فقد عقله، فنسي حتّى موعد عشائه. أخيراً، وعندما حلّ اللّيل، عاد إلى بيته، وتوجّه على الفور، مُهَمهِماً، لينام، رافضاً أن يجيب عن الأسئلة المفعمة حناناً التي طرحتها عليه أخته. لكنّه، بمجرّد أن وضع رأسه المسكين والمضطرب على الوسادة، أعاده صوتٌ إلى اليقظة وهو يقول له:

- كارل، يا صديقي، ها أنذا قد عدتُ كي أثرثر معك لبعض الوقت؛ استيقظ إذن وأنصت إليّ.

أخرج كارل رأسه من تحت اللّحاف، فلاحظ أنّ غرفته كانت منارة بضوء قويّ، وبدا له العفريت جالساً على أرضيّة الغرفة.

- آه أيّها البائس! أتكون أتيت الآن لتسرق منّي راحتي كما سبق لك أن سرقت منّي زرعي؟ انصرف لحال سبيلك وإلاّ أشفيت غِلّي وانتقمت منك.

- هيّا، هيّا، قال العفريت ضاحكاً، أنت تخرّف!... ألا تعلم، أيّها الفتى المغفّل، أنّني لست في الأصل سوى شبح؟ أنت إن حاولت

ضغطي بين ذراعيك، لن تضغط إلاّ الفراغ. وعلى أيّ حال، فأنا إن كنت أتيت عندك الآن فلكي أعدك بثروات لا حدود لها. فأنتَ رجل يروق لي. ثمّ ألستَ أنانيّاً وماكراً بشكل رائع؟ استمع إليّ إذن يا كارل الطّيب. تعال غداً لملاقاتي لحظة مغيب الشّمس، وسأطلعك على كنز تتجاوز ضخامته كلّ خيال بشريّ. تخلّص من مزرعتك الحقيرة، وأنا أعتقد أنّ الأبله الذي يحبّ أختك يمكن أن يكون ضحية أنموذجيّة، لأنّ له أصدقاء يمكنهم أن يساعدوه في زرعها، وأن يخلّصوك، بالتّالي، منها. إنّ الثّمن الذي سيقترحه عليك سيكون هزيلاً، لكنّك، عندما سأطلعك على الكنز الذي حدّثتك عنه، ستحتقر المبالغ الماليّة الهيّنة التي تحصل عليها بالوسائل العاديّة. أتمنى لك ليلة سعيدة وأحلاماً جميلة!

ثمّ بهتت الأضواء وانصرف العفريت.

- آه! قال كارل وهو يتذكّر ما قاله العفريت عن الكنز، آه! هذا لذيذ! آه!

ثمّ خلد للنّوم من جديد.

وخلال اليوم التّالي، ظنّ النّاس جميعاً أنّ كارل قد فقدَ عقله. إلاّ أنّه ركبتْه طبيعته الانتفاعية، فرفض أن يتخلّى لفيلهَيلم ولو عن قطعة نقديّة واحدة من الثّمن المتّفق عليه. لكنّ صهره كان سعيداً للغاية أنِ استطاع أن يصل معه إلى ذلك الحلّ، حتّى أنّه كان، من فرط مفاجأته، قد بدأ يشكّ في طبيعة تلك الصّفقة. وأخيراً تمّت كلّ الإجراءات، وحُدِّد موعد زواجه من أميل، لأنّ كارل كان قد سلّمها له مع المزرعة، بعد أن تمّت الصّفقة بينهما. لكنّ كارل لم يصبر إلى أن يحلّ موعد زواج أخته: قبّلها

وتركها في حماية بعضٍ من أقاربه، ثمّ انصرف للقاء العفريت فوجده جالساً على حاجز كما بإمكان أيّ إنسان عاديّ أن يفعل.

- أنت، يا كارل، دقيق في مواعيدك مثل ساعة! وأنا سعيد بذلك، لأنّنا ملزمون بأن نكون عند سفح الجبل الذي تراه هناك، قبل طلوع القمر.

عندما تلفّظ بتلك الكلمات، نزل من على الحاجز، وانصرفا إلى أن أدركا شاطئ بِرْكة، فشرع العفريت، أمام عيني كارل المبهورتين، يمشي على مائها وكأنّه يمشي على مياه متجمّدة.

- تعال يا صديقي، قال العفريت، وهو يلتفت نحو كارل الذي ظلّ متردّداً في اللّحاق به.

غير أن كارل، الذي كان يعلم أنّه مضطرّ للمرور من هناك، تقدّم فغاص في البرْكة إلى عنقه، وهو يتوجّه نحو الشّاطئ الآخر الذي كان العفريت قد وصل إليه منذ مدّة. وعندما أدرك الشّاطئ هو أيضاً، كان في حالة يرثى لها. كانت أسنانه تصطكّ من البرد، وكان الماء يسيل من ملابسه بغزارة حتّى شكّل حول ساقيه صورة مصغّرة للبرْكة التّي غادرها لتوّه.

- أرجوك أيّها السّيد العفريت، قال كارل بصوت حادّ، حاول أن لا يحصل ثانيةً شيء من هذا البتّة، وإلاّ فإنّني سأكون مضطرّاً لإنهاء علاقتي بك.

- أن تنهي علاقتك بي؟ سأل العفريت وهو يقهقه. أنت لست حرّاً في ذلك أبداً، يا صديقي كارل. فأنت قد سبحتَ في البرْكة المسحورة

عن طيب خاطر، وهو ما يجعلك الآن مضطرّاً لأن تبقى مرتبطاً بي لفترة من الزّمن. أنتَ الآن أكثر انجباراً على السّير ورائي ممّا لو ربطتُكَ إلى طرف سلسلة قويّة. هكذا إذن، واصِل مشيك وفكّر في الجائزة.

ظلّ كارل، للحظة، مذهولاً، لكنّه سرعان ما انتبه إلى أنّ كلّ ما قاله العفريت صحيح؛ ذلك أنّه، بمجرّد أن بدأ الجنّي يمشي، شعرَ بأنّه مرغم، بسبب قوّة لا تقاوم، على السّير في أثره. وسرعان ما وجدا نفسيهما في سفح جبل وعر جدّاً. انزلق العفريت على طول المنحدر بسهولة كبيرة، ودون أن يفقد توازنه. أمّا كارل المسكين فقد نزل بصعوبة، وبالخصوص بطريقة جارفة، ممّا جعل صخوراً ضخمة، على يمينه وعلى يساره، تبدأ في التّدحرج، وفي التّصادم فيما بينها مُحدِثةً أصواتاً مرعبة، فتسقط في تلك الهوّات السّحيقة التي تحيط به. كانت ملابسه قد أصبحت في حال رثّة، فتداعتْ خياطتها وسقطتْ من معطفه نُتَفٌ كبيرة. فهو لم يكن بإمكانه قطُّ أن يبطئ في مشيه ليحاول التّخلّص من شجيرات العلّيق ومن الشّوك الذي كان يتشبّث باستمرار بملابسه، وينتزع من لحمه مِزَقاً كلّما ركضَ ليتخلّص منه. وأخيراً، تدحرج مثل علبة إلى أسفل الجبل حيث وجد العفريت وهو يشمّ رائحة وردة وحشيّة.

جلس كارل للحظة، محاولاً استرجاع أنفاسه، وبما أنّ دمه كان يغلي من الغيظ، فإنّه قد صاح:

- لن أتبعك خطوة واحدة بعدُ، أيّها الجنّي المتوحّش، وإن كنت تريدني أن أواصل معك، فاحملني. أنا مسحوق من أسفل قدمي إلى أعلى رأسي. انظر إلى ما فعلته بي!

- آه! هذا رائع! قال العفريت دون انفعال. سنرى أيّها الفتى! أمّا فيما يخصّني، فأنا على أحسن ما يرام، وستعلم لاحقاً، عندما تزداد معرفتك بي، أنّني أتحمّل بحكمةٍ بليغةٍ شقاءَ الآخرين. تعال يا كارل، يا صديقي.

كانت كلمة «تعال» قد بدأت تتّخذ عند كارل معنىً رهيباً. لكنّه وجد نفسه، كما كان الأمر من قبل، مرغماً على الطّاعة. بدأ يمشي ويمشي إلى أن أخذت أسنانه تصطكّ من البرد. عندئذ لاحظ أنّ المشهد الطّبيعيّ البهيج والدّافئ كان قد أضحى يابساً، كما يكون في فصل الشّتاء، فقدّر، انطلاقاً من أَعداد طيور النّقّار البيضاء التي تضيع في السّحب، والتّي كان يراها حولَه، أنّ من المفروض أن يكونا على مقربة من بحر عظيم. كان كارل مقروراً إلى درجة أنّه لم يعد يستطع أن يجرّ ساقيه، فبدأ يستحلف العفريت بأن يستريحا للحظة. في الأخير قبل الجنّي وجلس.

- أنا لا أتوقّف إلاّ نزولاً عند رغبتك، لكنّني أعتقد أنّ انعدام الحركة لمدّة طويلة سيكون أمراً خطيراً بالنّسبة إليك.

بعد ذلك استخرج غليوناً بدا ضخماً جدّاً، من الصّعب تصوّر إمكانية دخول أنبوبه في فمه. أشعله وبدأ يدخّن كما لو أنّه جالس بطريقة مريحة بالقرب من النّار في منزل كارل. طفق كارل المسكين ينظر إليه، أسنانه تصطكّ وأعضاؤه تتألّم. بعد ذلك رجاه أن يتركه يأخذ نفساً أو نفسَين من غليونه المتّقد.

- أنا لا أجرؤ على ذلك يا كارل، فهو من تبغِ الجنّ، وهو أقوى بكثيرٍ

من أن تحتمله. أدفِئ أصابعك بالدّخان إن استطعت. أنا لا يمكنني أبداً أن أعرف ما الذي أنت في حاجة إليه، فأنا أشعر بأنّني في أحسن حال. أمّا أنتَ فلستَ حكيماً بما فيه الكفاية!

أطلق كارل أنيناً، ولم يردّ على كلام ذلك المُدَخِّن المزعج.

بعد أن دخّن العفريت لمدّة طويلة، أفرغ رمادَ الغليون بالقرب من جزمته وقال لكارل المرتعش، مع ابتسامة رائقة:

– تبدو يا صديقي الطّيب، في الحقيقة، في حال سيّئة للغاية، وربّما كان من الأحسن أن نواصل سيرنا.

فانتصب واقفاً على الفور، وتبعه المسكين كارل مترنّحاً.

– سننعم بدفء أكثر، بعد قليل، يا صديقي العزيز، قال وهو يلتفت نحو كارل، الذي كان كلّ جوابه أنْ أطلق همهمةَ تذمّرٍ؛ إذْ كان يشعر بعجزه يتضاعف.

وبالفعل، سرعان ما أصبحا أكثر دفئاً. اختفى الجليد، فأصبحت الأرض مخضرّة ومكسوّة بأعداد كبيرة من الورود العطِرة. وبدت لهما دوالي الأعناب المكسوّة بالعناقيد الرّائعة المتدلّية من الأغصان الممتدّة تغري العين بالنّظر.

بعد ذلك تسلّقا الجبل بصعوبة كبيرة... أقصد بصعوبة كبيرة بالنّسبة لكارل، أمّا بالنّسبة للعفريت، فأَنْ يصعد أو أن ينزل، سيّان، كلاهما سهل بالنّسبة إليه. فجأةً أصبح الجبل جافّاً قاحلاً، فشرع الرّماد يتبعثر تحت أقدامهما، كما بدأت تنبعث من الأرض المشقّقة أبخرة تبعث على الغثيان.

- أنا أريد أن أعرف إلى أين نسير الآن، قال كارل مزمجراً.

كان كارل قد انتهى إلى أن اكتشف أنّ الحديث إلى ذلك العفريت أمرٌ غيرُ مُجدٍ ومضْيَعة للوقت. لم يدم شكّه إلاّ للحظة وجيزة، فهو سرعان ما بدأ يسمع صوت بركان عظيم بالقرب منه، وبدأ يشعر بحِممه تتهاطل على رأسه وعلى كتفيه. بدأ يتنقّل من حجر إلى حجر، معرّضاً لأكبر الأخطار. كانت الأرض تختفي تحت قدميه بطريقة مرعبة، وكان الدّخان يعميه، بينما كانت لازمة العفريت «تقدّمْ، تقدّمْ!»، التّي لم يكن يستطيع مقاومتها، تصيبه باليأس.

أخيراً لم يعد يعي ما يفعله. كان فقط يشعر بأنّه يسقط على سفح الجبل ويتدحرج إلى أسفل. وعندما سمع صوت تلاطم أمواج، وشعر ببرودة الماء، علم بأنّه قد سقط وسط أمواج البحر. جعلته غريزة البقاء يبذل مجهودات جبّارة كي يصعد على صفحة الماء. وعندما طفا على وجه الماء، رأى العفريتَ جالساً على جذع شجرة ضخم، يتهادى على الأمواج.

- هات يدك أيّها العفريت الطّيب، قال بصوت ضعيف، فأنا سأغرق.

- هيه! أجاب العفريت. كن شجاعاً يا صديقي! عليك أن تنقذ نفسك بنفسك. وهذا الجزء الصّغير من جذع الشّجرة الذي أجلس عليه لا يكاد يكفيني لتجنّب بعض التّعب. من يتصدّق، عليه أن يتصدّق على نفسه، قبل أيٍّ كان، كما تعرف، هذه هي المسألة الأولى، أمّا الثّانية، فإنّ الأمر الآن لك: أنا أنصحك بأن تسبح بقوّة وبعزم، هذا

طبعاً إن كنت أنت تريد ذلك. أمّا ارتباطي بك فقد انتهى، اللّهم إلاّ إن كنت أنت تريد أن تجدّده عن طيب خاطر، إمّا بأفعالك أو بتمنّياتك. وداعاً!

حملت الأمواج المتلاطمة في لحظةٍ وجيزةٍ العفريتَ السّاخر، إلى أن اختفى، فبقي كارل وحيداً يصارع الأمواج. شرع يسبح إذن إلى أن بدأ يرى الشّاطئ. عندئذ رأى، لحسن حظّه، بعض بقايا الخشب طافية على البحر، فبدا لكارل وكأنّها آتية من حاجز قديم. انقضّ عليها وضمّها ضمّة يائسة وشرع يطلق صرخات عالية، وهو يأمل أن يرى أحداً قادماً من الشّاطئ لنجدته. وكان من صرخات كارل، الغارق إلى نصف جسمه، أن لفتت أخيراً انتباه أطفالِ صيّادٍ كانوا يلعبون على الشّاطئ. فقاموا، غير آبهين بالخطر المحدق بهم، بدفع قارب إلى الماء وتوجّهوا نحو الرّجل الذي كان يبدو على حافّة الغرق. وبعد محاولات فاشلة عدّة، استطاع الأطفال الشّجعان أن يُصعِدوا كارل إلى القارب.

- شكراً، شكراً! تمتم وهو ينظر في وجوه الأطفال الذين لم يتردّدوا للحظة واحدة في المخاطرة بحياتهم قصدَ إنقاذ حياته.

- لا تشكرنا، قال أحد الأطفال الصّغار، فأنت لا تعرف مقدار سعادتنا بأن تكون السّماء قد قيّضت لنا هذه الفرصة لإنقاذك من موت محقّق. نحن الذين نكون مدينين عندما يتيسّر لنا أن نقوم بعمل جيّد. هذا على الأقلّ ما يعلّمنا إيّاه أبونا الطّيب.

- كنت أودّ لو كان أبي أنا قد فعل الشّيء نفسه، فكّر كارل.

ودّع الأطفالَ بحرارة، لأنّه لم يكن يملك أيّ شيء آخر يقدّمه لهم؛

فهو كان قد فقد كلّ ذهبه أثناء تلك الرّحلة المغامرة برفقة العفريت الماكر.

سأل عن الطّريق، فتطوّع مزارع شابّ، يكبر الأطفال الصّغار الذين أنقذوه، بمرافقته لاجتياز أعالي الجبل، وإيصاله إلى منزله الذي كان يوجد على بعد مسافة كبيرة، فاندهش كارل من طيبته.

أخذ كارل طريقه، رثّ الثّياب مجروح الساقين، برفقة دليله الشابّ خفيفِ الحركة. شرع الشابّ يسنده بشهامة كبيرة أثناء اجتيازه للممرّات الصّعبة وللطّرق الوعرة في الجبل. كان كارل يشعر بالخجل فيحمرّ خدّاه من أن يرى ذلك الفتى لا يعبأ بنفسه، وهو يبتعد بتلك المسافة الطّويلة عن قريته. بل أكثر من ذلك، كان قد شرع يترنّم بأغانٍ جبلية، كي يساعد ذلك الغريب المسكين المتألّم على نسيان طول الطّريق، وكي يَغفَل عمّا كان يشعر به من تعب ومن آلام. وعندما كانا يصلان إلى أماكن هادئة، كان الفتى يجلس إلى جانب كارل في الظّل ويعرض أمامه محتوى جرابه، فيقاسمه ما به من طعام.

أخيراً، وعندما أصبحت الطّريق سهلة وممتدة بوضوح إلى غاية مسكنه، طلب الدّليلُ اللّبق من كارل أن يسمح له بالعودة إلى قريته. لكن، وقبل أن يُقْدم على ذلك، أصرّ على أن يترك لكارل ما بجرابه من طعام، مخافة أن يشتدّ به الجوع. رفض كارل رفضاً باتّاً أن يقبل ذلك المعروف، لأنّه كان يعلم أنّ ذلك الفتى الضعيف البنية سيعاني معاناة شديدة إن هو حرمه من زاده. أصرّ كارل على رفضه، وودّع الفتى بحرارة وانطلق في الجبل ينزله: كان كارل، بفعله ذاك، قد تعلّم كيف

يفكّر بالآخرين.

مشى لأيّامٍ عابراً الأودية، مهدّئاً جوعه بالتّوت البرّيّ، ومطفئاً غليل عطشه بمياه الجداول. ثمّ وصل أخيراً إلى قرية أكواخها متناثرة. كان التّعب والجوع قد أضعفا جسده الذي كان من قبل قويّاً. واصل مشيه بصعوبة وهو يترنّح آملاً في أن يرى أحد سكّان القرية مقبلاً لنجدته. لكنّه لم ير أحداً، غير فتاة جميلة شقراء جالسة على عتبة كوخها وهي تأكل خبزاً بعد أن تبلّله بالحليب. حاول الاقتراب منها، لكنّه عجز عن أن يخطو خطوة واحدة، فسقط على الأرض. انتفضت الفتاة واقفة وهي ترى ذلك الغريب الشّاحب والبائس يسقط بتلك الطّريقة قريباً من قدميها، مُصدراً أنيناً حزيناً.

رفعت رأس كارل، فأظهر لها شحوبُه وامتقاعُه، فضلاً عن هزاله، سببَ معاناته. عندئذ حملت آنية الحليب إلى شفتيه وأبقتها كذلك إلى أن شرب كلّ ما كانت تحويه بنهمٍ يَشي بمقدار ما كان يعانيه من جوع. كانت الطّفلة قد ضحّت، عن طِيب خاطر، بطعامها، وهي لا تفكّر إلاّ في محنة كارل الذي يكاد يموت من الجوع. وعندما واصل طريقه، بعد أن استعاد عافيته، تذكّر ما قامت به الفتاة من أجله، فامتلأ قلبه بالدّرس الذي تلقّاه.

كان ما يزال يفصله عن منزله شوط طويل ومتعب من الطّريق... منزله! آه! انقبض قلبه عندما تذكّر أنّه لم يعد منزله. كان قد أصبح في ملكيّة صهره وأخته، اللّذين كان قد عاملهما بأنانيّة فائقة، حتّى لحظة فراقهما؛ فدماغه، قبل أن يغادر قريته، كان ما يزال مترعاً بالوعود

الجميلة التي قدّمها له العفريت الماكر. فهو كان يتصوّر أنّه سيصبح مالكاً لثروة شاسعة، فرغبَ، بسلوكه ذاك، في أن يضع بينه وبينهما مسافة كبيرة حتّى لا تكون هناك أيّة إمكانية لمقاسمتهما ثروته، عندما يعود، حتّى ولو وجدهما معوزين. لكنّ قلبه الآن أصبح عامراً بالمشاعر الجميلة الجديدة، بسبب المعاملة الطّيبة التّي تلقّاها من كلّ حدب وصوب، دون أن يكون وراءها أيّ طمع في مقابلٍ ما. لذلك شعر بأنّه لن يكون له أيّ حقّ في أن يطلب من أخته وزوجها أيّ صدَقة، بعد أن أصبح، بسلوكه، غير جدير بصداقتهما. عندئذ تنهّد بعمق وهو يتذكّر وضعيّته السّابقة.

فاجأه الليل في أرض خلاء قاحلة وموحشة. وكي يصل بؤسه إلى مداه، شرع الثّلج يسقط بِنُدَفٍ ضخمة، بدأت تحجب عنه الرّؤية. زرّر سترته الممزّقة، وشرع يقاوم العاصفة القوية المثلّجة التي تحيط به من كلّ جانب. تكوّم الثّلج حول قدميه المرتجفتين، فأصبح تقدّمه بطيئاً وصعباً للغاية. ضاعفت العاصفة من قوّتها فبدأ يترنّح، ثمّ توقّف عن المشي للحظة وقد كبّلته الرّياح الغاضبة، فجلس، وسرعان ما أصبح مُكفّناً إلى نصف جسمه بطبقة من الثّلج.

علا صوتُ جرس على صوتِ العاصفة، معلناً اقتراب عربة مغطّاة، وهي تمشي ببطء بسبب الثّلوج الكثيفة المتكوّمة، حتّى كان بإمكان من يراها أن يشكّ في وجودها لولا مصباح كان يلمع بداخلها. وصلت العربة بعد دقائق إلى المكان الذي كان كارل ممدّداً فيه. جفل الفرس من ذلك الشّكل الآدميّ المسجّى على الأرض.

نزل المسافر من العربة وحمل الغريب المجمّد. وبعد محاولات جدّية متعدّدة، استطاع أخيراً أن يجلسه سالماً في عربته فأسرع نحو أقربِ كوخٍ لاح له نوره من بعيد. قُدّمت لكارل إسعافات مكثّفة ممّا جعله يستعيد وعيه، فكان أوّل وجه رآه عندما فتح عينيه هو وجه صهره فيلهَيلم، الذي لم يتعرّف عليه، في البداية، وهو يراه على تلك الحال الرّثة، بعد ما كان عليه من غنىً ومن أنانيّة. تبادلا بضع كلمات عرف منها كارل أنّه قد سافر مع العفريت لمدّة فاقت سنة، وهو ما صعب عليه تصديقه. غير أنّ فيلهَيلم أقنعه بأنّ ذلك هو عين الحقيقة، ثمّ طمأنه بأنّه مستعدّ لاستقباله في منزله، وأنّه سيمنحه كلّ ما تقدر العاطفة الصّادقة أن تمنحه، بالإضافة إلى نسيان كلّ الأخطاء التي سبق له أن ارتكبها في حقّه. كان ذلك التّطمين بمثابة بلسم لجراح كارل الجسديّة والمعنويّة. بعد ذلك تركه فيلهَيلم يريح أعضاءه المتألّمة في الفراش المريح للقرويّين، وقفل عائداً إلى بيته.

وصباح اليوم التّالي، توجّه كارل، وهو يشعر بالخجل من أهل القرية، نحو منزله القديم. وما إن لمست قدماه أوّل درج من السّلم حتّى سارعت أخته نحوه فاحتضنته وهي تقبّله. عندئذ أخفى وجهه في صدر تلك المرأة الطّيبة والكريمة، وأجهش بالبكاء.

لم يكن العفريت قد كفّ عن ملاحقة كارل، آملاً في أن يسيطر عليه من جديد، لكنّه كفّ فجأةً عن ذلك، بعد أن رأى ذلك المشهد المؤثّر. وبينما كان ينظر إليهما على تلك الحال، بدأ جسده يختفي شيئاً فشيئاً، إلى أن لم تعد العين قادرة على رؤيته، فتلاشى تماماً.

كان عفريت الأنانيّة قد اختفى إلى الأبد، فشكر كارل الله بكلماتِ عرفانٍ صادقة على نجاته من تلك المحنة الرّهيبة التي أحدثت فيه تغييراً شاملاً، بعد أن بيّنت له أنّ الإنسان عندما يكون يسهر على راحة الآخرين، فإنّه يكون أيضاً يعمل من أجل راحته الشّخصية ويساهم بفعّالية في سعادته الذّاتية. كان كارل إذن قد اكتشف، في الحقيقة، كنزاً أثمن ألف مرّة من كلّ ذهب الدّنيا.

نيكولا الفيلسوف

قال نيكولا لسيّده بعد أن خدمه لمدّة سبع سنوات:

- سيّدي، لقد خدمتكَ لمدّة كافية، وأنا الآن أريد أن أعود إلى أمّي. سلّمْني أجري.

- لقد أخلصتَ في خدمتي، فكنت ماهراً وفي مستوى المسؤولية، أجاب السيّدُ نيكولا، وستكون الجائزة في مستوى تلك الخدمة.

ثمّ سلّمه سبيكة ذهبية يمكن أن يصل وزنها إلى خمس ليرات أو ستّ. أخرج نيكولا منديله من جيبه ولفّ فيه السّبيكة ثمّ حملها على كتفه وأخذ طريقه نحو منزل أبويه.

أثناء مشيه الحثيث، التقى فارساً مبتهجاً ونشيطاً، قادماً من الجهة المقابلة، وهو يمتطي فرساً جميلاً.

- أوه! قال نيكولا بصوت مرتفع، ما أجمل أن يكون لنا فرس! نركبه ونجلس على السّرج وكأنّنا نجلس على أريكة، ثمّ نشرع نتقدّم دون أن ننتبه إلى ذلك، فلا يبلى حذاؤنا.

بعد أن سمع الفارس ما قاله نيكولا، خاطبه قائلاً:

- هيه، يا نيكولا! لكن لماذا تمشي أنت راجلاً هكذا؟

- آه! لا تحدّثني عن ذلك، فأنا، مع مشيي راجلاً، أحمل هنا على كتفي سبيكة ذهبيّة تُتعِبني للغاية، إلى درجة أنّني أفكّر في أن ألقي بها هنا في هذه الحفرة.

- وهل تقبل أن نتبادل؟ سأل الفارس.

- نتبادل ماذا؟ سأل نيكولا.

- أعطيك فرسي وتسلّمني سبيكة الذّهب.

- بكلّ سرور، قال نيكولا، لكنّني أحذّرك من أنّها ثقيلة جدّاً.

- طيّب، لكنّ ذلك لا يمنع من أن يحصل هذا التّبادل بيننا، قال الفارس.

ثمّ ترجّل من على فرسه وأمسك بسبيكة الذّهب وساعد نيكولا على امتطاء الدّابة فسلّمه الزّمام، قائلاً:

- عندما تريد أن تمشي ببطء، تسحب الزّمام نحوك وتقول: «أوه!»، وعندما تريد أن تسرع في مشيك، ترخي الزّمام وأنت تقول «هوب!»

انصرف الفارس راجلاً وهو يحمل السّبيكة، وواصل نيكولا، الذي أصبح فارساً، طريقه على صهوة فرسه.

شعر نيكولا بسعادة غامرة وهو يجلس على سرجه. في البداية مشى ببطء، لأنّه لم يكن يحسن الرّكوب، ثمّ أخذ يسرع قليلاً، إلى أن تجاسر، ظانّاً أنْ لا ضير في أن يخبّ على صهوة الفرس للحظات.

عندئذ أرخى الزّمام ثمّ فرقع لسانه وهو يقول:

- هوب! هوب!

قفز الفرس وسقط نيكولا بعيداً عنه بعشر خطوات.

وعندما رأى الفرسُ أنّه قد تخلّص من فارسه، أطلق قوائمه للرّيح. الله وحده يعلم أين كان سيقف لولا أن اعترض طريقه مزارع كان مارّاً من هناك وهو يقود بقرة.

نهض نيكولا مرضوضَ الجسم وشرع يركض وراء حصانه الذي كان المزارع ممسكاً بزمامه.

- شكراً لك يا صديقي!... إنّه لمن الغباء أن يسافر الإنسان ممتطياً فرَساً، خصوصاً عندما يكون لنا فرس بليد مثل هذا، يرفس ويُسقِط، أثناء رفسه، راكبَه بطريقة عنيفة قد ينكسر منها عنقه. أمّا بالنّسبة إليّ، فقد قرّرت ألاّ أعود أبداً لامتطائه. آه! واصل نيكولا حديثه مع إطلاق تنهيدة، أنا أحبّ البقرة أكثر من الفرس. نمشي خلفها بدون عناء، ثمّ نستفيد، فضلاً عن ذلك، من حليبها، دون احتساب السّمن والجُبن. أقسم أنّني مستعدّ لأن أقدّم أموراً كثيرة للحصول على بقرة مثل بقرتك.

- إذن، قال المزارع، ما دامت تعجبك إلى هذه الدّرجة، خذْها. فأنا أقبل أن آخذ فرسك بدلاً منها.

فرح نيكولا فرحاً شديداً، فأمسك بالبقرة من زمامها، وامتطى المزارعُ الفرسَ وانصرف.

واصل نيكولا، بدوره، طريقه، تتقدّمه بقرته، وهو يفكّر في الصّفقة الرّائعة التي قام بها لتوّه.

وصل إلى نُزل فأكل، بفرح، كلّ ما حمله معه من منزل سيّده؛ أي، قطعة خبز رائعة مدهونة بالجبن. بعد ذلك، وبما أنّه كان يملك فلسين،

طلب نصف كأسٍ من شراب، ثمّ واصل سيره نحو منزل عائلته.

أصبحت الحرارة، عند منتصف النّهار، خانقة. كان نيكولا، عندئذ، وسط أرض قاحلة أمامه فرسخان ليقطعها.

كانت الحرارة مرتفعة بشكل لا يحتمل، ممّا جعل نيكولا المسكين يُخرج لسانه من فمه بأكثر من بوصتين.

- ثمّة علاج لهذا، قال نيكولا في سرّه: سأحلب بقرتي وأستمتع بحليبها.

ربط البقرة إلى شجرة جافّة، وبما أنّه لم يكن يملك آنية، فقد وضع قبّعته الجلديّة على الأرض تحت ضرع البقرة. لكن رغم المجهود الكبير الذي بذله لم يستطع أن يُخرج من ضرع الدّابة قطرة حليب واحدة.

لم يقتصر الأمر على أنّ نيكولا لم يحصل من البقرة على حليب، وإنّما كانت طريقته في حلْبها أيضاً سيّئة للغاية، ممّا جعل البقرة ترفس بإحدى قائمتيها الخلفيّتين، وتصيبه في رأسه بضربة طرحتْه أرضاً، وبقي للحظاتٍ يتلوّى يميناً وشمالاً، غير قادرٍ على أن يقف من جديد على رجليه.

ومن حسن حظّه أنّه كان يمرّ من هناك جزّارٌ يسحب عربة على متنها بعض الماشية.

- هيه! هيه! ماذا دهاك يا صديقي، هل أصابك مكروه؟، سأله الجزّار.

- إنّني أموت عطشاً.

- خذْ يا طفلي المسكين واشرب قليلاً من الماء.

ثمّ ساعد نيكولا على الانتصاب على قدميه وسلّمه مطرة الماء.
حملها نيكولا إلى فمه وشرب منها جرعة.
ثم، وبعد أن استعاد وعيه، سأل الجزّارَ:
- هل يمكنك أن تقول لي لماذا ترفض بقرتي إعطائي حليباً؟
تجنّب الجزّار تماماً أن يقول له إنّ السّبب هو أنّه لا يعرف كيف يحلب البقرة.
- بقرتك هرمة، أجابه، ولم تعد تصلح لشيء.
- لم تعد صالحة حتّى للذّبح؟ سأل نيكولا.
- من ذا الذي سيأكل لحم بقرة هرمة؟ من يأكل لحمها فكأنّما يأكل لحم بقرة مسعورة.
- آه لو كان لي كبش صغير جميل مثل كبشك! قال نيكولا. إنّه صالح من قوائمه إلى رأسه. فلحمه نملّحه ونجفّفه، وبأمعائه ودمه نصنع نقانق.
- اسمع، قال الجزّار، فأنا كي أقدّم لك خدمة... فقط كي أقدّم لك خدمة... سأسلّمك كبشي إن شئت أن تقدّم لي بقرتك.
- جازاك الله، أيّها الرّجل الشّهم! قال نيكولا.
وبعد أن سلّم بقرته للجزّار، أنزل الكبش من العربة وأمسك بطرف الحبل كي يسحبه.
واصل نيكولا طريقه، سعيداً بأن تكون الأمور تجري وفق رغبته.
عندما تقدّم نيكولا لمسافة قصيرة، لحق به فتىً يحمل تحت ذراعه إوزّة سمينة.

وتزجيةً للوقت، بدأ نيكولا يحكي له، سعيداً، عن التّبادلات التي قام بها والتّي كانت كلّها لصالحه.

بعد ذلك، أخبره الفتى، من جهته، بأنّه يحمل الإوزّة من أجل وليمة.

– حاول أن تقدّر وزنها بحملها من عنقها، قال الفتى لنيكولا. هيه! هل هي ثقيلة؟ إنّنا قد شرعنا في تسمينها منذ ثمانية أسابيع بإطعامها الكستناء. إنّ من سيأكل منها، سيلزمه أن يمسح العرق من جانبَي ذقنه معاً.

– نعم، قال نيكولا، وهو يحملها بيده مقدِّراً وزنها، هي ثقيلة، لكنّ كبشي يزن ما يعادل عشرين إوزّة من مثل إوزّتك.

شرع الفتى ينظر من حوله وهو يحرّك رأسه.

– اسمعْ، قال الفتى لنيكولا، أنا أعرفك منذ أقلّ من عشر دقائق، لكنّك تبدو لي فتىً شهماً. عليك أن تكون على علم بما يأتي: يبدو لي أن أمر كبشك هذا لا يُطمئن؛ فقد سُرِقَ من القرية التّي أتيتُ منها كبش الجابي. وأنا أخشى أن يكون الكبش الذي سُرق هو هذا الذي تسحبه. لقد أخبروا الدّرك، وبعثوا برجال لتعقّب السّارق، وأنت تعلم أنّه سيكون أمراً سيّئاً بالنّسبة إليك أنْ يجدوه لديك؛ فأقلّ ما يمكن أن يُقدموا عليه، آنذاك، هو أن يقتادوك إلى الحبس إلى حين استجلاء الأمر.

عندما سمع نيكولا كلام الفتى استولى عليه خوف شديد.

– يا إلهي! قال نيكولا، خلّصني من هذه الورطة، أيّها الفتى. أنت تعرف هذا البلد جيّداً، أمّا أنا فقد غادرتُه منذ خمسة عشر عاماً. أنت إذن لك فيه من يحميك، أمّا أنا فلا. أعطني إوزّتك وخذ كبشي.

- يا للشّيطان! قال الفتى. سيكون أمراً خطيراً، لكنّني لا أستطيع أن أتخلّى عن رفيق في ورطة.

عندئذ سلّم إوزّته لنيكولا ثمّ أمسك بحبل الكبش وسارع إلى طريق مختصر.

واصل نيكولا طريقه وقد تخلّص من مخاوفه، حاملاً إوزّته تحت ذراعه، وهو يقول في سرّه:

- الحقيقة أنّني إن تأمّلت ما قمت به لتوّي، وجدت أنّني، فضلاً عن تخلّصي من مخاوفي، قد قمت بصفقة رائعة. فها أنذا قد حصلتُ على إوزّة سأحصل منها على لحم مشويّ لذيذ، كما أنّني سأحصل منها، فضلاً عن اللّحم المشويّ، على شحوم سأهيّئ بها خبزاً مدهوناً لمدّة ثلاثة أشهر؛ هذا دون احتساب الرّيش الأبيض النّاعم الذي سأصنع منه وسادة جيّدة، سأنام عليها، منذ الغد، بطريقة مريحة. آه! وأمّي هي التي ستكون أسعد، لأنّها تحب الإوزّات!

وما إن انتهى نيكولا من ترديد تلك الكلمات في سرّه حتّى وجد نفسه جنباً إلى جنب مع رجل يحمل في يده شيئاً ما ملفوفاً في ربطة.

كان ما يحمله يعتمل في الرّبطة ويضطرب، ممّا جعل نيكولا يوقن بأنّ الأمر يتعلّق بحيوان حيّ، وأنّ ذلك الحيوان يطالب بحرّيته بكلّ قوّته.

- لكن ما الذّي تحمله في ربطتك تلك أيّها المسافر؟ سأل نيكولا.

- أين، هنا؟ سأل المسافر.

- في ربطتك؟

- أوه! هذا ليس بشيء، أجاب المسافر ضاحكاً.

بعد ذلك قال بصوت خافت وهو ينظر يمنة ويسرة، وكأنّه يخشى أن يسمع أحدٌ ما سيقوله:

- هي حجلة أخذتها لتوّي من فخّ. وقد أتيتُ في الوقت المناسب، فأمسكتُ بها وهي ما تزال حيّة. وأنت ما الذي تحمله تحت ذراعك؟

- كما ترى. إنّها إوزّة، وآمل أن تكون إوزّة جميلة.

ثمّ أرى المسافر، الذي تبيّن أنّه صيّاد غير قانونيّ، إوزّته بفخر.

أمسك المسافرُ بالإوزّة بازدراء، فشمّ رائحتها.

- هممم! ومتى تنوي أكلها؟

- غداً مساءً، مع أمّي.

- بالصّحة والعافية! قال الصّياد غير القانونيّ، ضاحكاً.

- نعم، أنا أتوقّع أن أستمتع بها، لكن لماذا تضحك؟

- أضحك لأنّ إوزّتك صالحة لأن تؤكل اليوم؛ هذا إن كنت تحبّ أكل لحم الإوزّ المُبَيَّت.

- يا للشّيطان! هل أنت متأكّد؟ سأل نيكولا.

- اعلمْ يا صديقي العزيز لمصلحتك أنّنا عندما نشتري إوزّة، علينا أن نشتريها حيّة، فبذلك يكون بإمكاننا أن نذبحها متى نشاء، وأن نأكلها في الوقت المناسب. صدّقني أنّك إن كنت تريد أن تفيد من إوزّتك فائدةً ما، فإنّ عليك أن تشويها في أوّل نُزل تلقاه في طريقك. وأنصحك بأن تأكلها كلّها دون أن تترك منها قطعة واحدة.

- لا، قال نيكولا. لكن لنَقم بما هو أهمّ: خذ أنت إوزّتي الميّتة،

وأعطني حجلتك الحيّة. سأذبحها صباح غد وسيكون مناسباً أن آكلها مساءً.

- إنّ شخصاً سواي كان سيُطالبك بمقابل، لكنّ رفقتي أنا رفقة طيّبة. فرغم أنّ حجلتي حيّة وإوزّتك ميّتة، فإنّني أقبل تسليمك حجلتي كاملة غير منقوصة.

أخذ نيكولا الحجلة ووضعها في منديله الذي عقده من أطرافه الأربعة، وواصل طريقه عبر القرية، مستعجلاً الوصول في أقرب وقت ممكن، تاركاً مُرافقه وهو يلج نُزلاً كي يأكل فيه إوزّته.

عندما وصل إلى مخرج القرية، التقى بشاحذ سكاكين.

كان الشّاحذ، وهو يشحذ سكّيناً أو مقصّاً، يغنّي مطلعَ أغنية يعرفها نيكولا.

توقّف نيكولا وغنّى المقطع الثّاني.

فغنّى الشّاحذ المقطع الثّالث.

- هذا جيّد! قال نيكولا، فما دمتَ مبتهجاً، فأنت بالتّأكيد مسرور.

- بالطّبع، أنا مسرور! أجاب الشّاحذ. مهنتي رائجة، وكلّما وضعت يدي على المِسَنّ، سقطت منه قطعة نقديّة. لكن ما الذّي تحمله في ربطتك، وهو يعتمل بهذه الطّريقة.

- إنّها حجلة حيّة.

- آه! ومن أين أخذتها؟

- أنا لم آخذها، لقد حصلت عليها بعد أن استبدلتُ بها إوزّة.

- والإوزّة؟

- استبدلتُ بها كبشاً.

- والكبش؟

- استبدلتُ به بقرة.

- والبقرة؟

- استبدلتُ بها فرساً.

- والفرَس؟

- استبدلتُ به سبيكة ذهبية.

- وتلك السّبيكة الذّهبية؟

- هي أجر خدمتي لمدّة سبع سنوات.

- ما أروعَك! كنت تعرف، كلّ مرّة، كيف تسوّي أمورك!

- نعم، عرفت دائماً كيف أسوّي أموري، إلى أن حلّ هذا اليوم. فأنا أريد، عندما ألتقي بأمّي، أن تكون لي مهنة كهذه التي أنتَ حاصلٌ عليها.

- آه! صحيح، إنّها مهنة جيّدة.

- وهل هي صعبة؟

- ها أنت ترى، علينا فقط أن ندير الرّحى وأن نُدني السّكين أو المقصّ الذي نريد أن نشحذه.

- هذا صحيح، لكن، قبل ذلك، يجب أن يكون لدينا مِسَنّ.

- خذ، قال الشّاحذ وهو يدفع نحوه برحى قديمة، ها هي ذي واحدة درّت مالاً يفوق وزنها، وهي مع ذلك ثقيلة.

- رحى مثل هذه غالية الثّمن، أليس كذلك؟

- بلى، هي غالية جدّاً، قال الشّاحذ، لكنّني رجل طيّب. سلّمني حجلتك وخذ الرّحى. هل يناسبك هذا الاقتراح؟

- جدّاً! وهل في ذلك من شكّ؟ قال نيكولا. فما دمت سأحصل على مال كلّما وضعت يدي على المِسَنّ، فما الذي سيقلقني بعد ذلك؟

ثمّ سلّم حجلته للشّاحذ وأخذ منه الرّحى القديمة التّي كان قد أهملها.

بعد ذلك وضع الرّحى تحت ذراعه وواصل طريقه، قلبه مترع فرحاً وعيناه تلمعان رضىً.

- من المفروض أنّني وُلدت مبارَكاً، قال نيكولا. فأنا ما أكاد أتمنّى شيئاً حتّى أحصل عليه.

غير أنّ نيكولا بدأ يشعر بالعياء، بعد أن قطع فرسخاً أو فرسخين؛ فهو كان قد بدأ رحلته منذ الصّباح الباكر، كما أنّه الآن مثقل بالرّحى. كان الجوع أيضاً قد بدأ يقلقه، فهو كان قد أكلَ زاده كلّه في غمرة فرحه بمبادلة فرسه بالبقرة. غلبه التّعب أخيراً، فبدأ يجد نفسه مرغماً على أن يستريح بعد كلّ عشر خطوات يقطعها. أصبح يحسّ أيضاً بأنّ ثقل الرّحى أخذ يتضاعف باستمرار، بسبب قواه الخائرة.

وصل، وهو يمشي متثاقلاً مثل سلحفاة، إلى عينٍ كان يخرج منها ماء صافٍ مثل السّماء التي يعكسها. كانت العين عميقة جدّاً، فلا يظهر قعرها.

- أوه! صاح نيكولا. يبدو أن حظّي ما يزال يلازمني. فعندما أشرفت على الموت عطشاً، ها هي ذي عين جارية.

وضع نيكولا الرّحى على حافّة العين وانبطح على بطنه، ثمّ شرع يشرب لمدّة خمس دقائق.

لكنّه، عندما كان يحاول الوقوف على ساقيه، انزلقت ركبته فأراد أن يمسك بالرّحى. غير أنّه دفعَ المِسَنّ فسقط في الماء واختفى في أعماق العين.

- الحقيقة أن الرّحمن، قال نيكولا وهو بعدُ جاثٍ على ركبتيه شاكراً الله، قد فعل خيراً بتخليصي من هذه الرّحى الثقيلة والكئيبة. وليس عليّ أيّ شيء أؤاخذ به نفسي.

عندئذ واصل طريق عودته إلى بيت أمّه متخفّفاً من كلّ عبء، يداه وجيوبه فارغة، لكنّ قلبه مبتهج.

«بياض الثلج» وحكايات أخرى

رفعت تيني بصرها فرأت على الشاطئ الآخر امرأةً جميلة ذات جناحين عجيبَين، مصحوبة بقزم صغير مرعب. كانا معاً يضحكان مستهزئيْن بها.

واصلت المرأة قائلة، بعد أن استطاعت السّيطرة على ضحكها:

- لا شكّ أنّك تجدين صورةَ وجهك في الماء جميلة، أليس كذلك؟ وربّما تكونين أيضاً مندهشة من جمال شكلك، لكنك، أيّتها الصّغيرة، تدوسين بقدميكِ الصّغيرتين أشياء هي أجمل وأكمل منك بكثير. إن استمرَرْتِ كلَّ حياتك في أن تكوني مغرورة بنفسك إلى هذه الدّرجة، فاعلمي أنّك لن تكوني سعيدة، وستصبحين أضحوكة للجميع. وأنا أريد، على أيّ حال، أن أقدّم لك درساً يمكن أن يكون له تأثير ملموس عليك، فيشفيكِ ممّا أنت فيه: سأهديك جناحين يساعدانك على البحث عن الحقيقة. الجناحان لن يمكثا لديك سوى وقت قصير، لكنّهما سيمكّنانك من أن تستنتجي بنفسك أنّ عبادة الذّات ليست أمراً ملائماً، وذلك من خلال مشاهدتك لها عند الآخرين.








9 789948 171843